



رابطة الأديب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية

١٩

## محمد مصطفى هدارة

بحوث ودراسات

مكتبة العبيد

ح) مكتبة العبيكان. ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مكتبة العبيكان

محمد مصطفى هدارة: بحوث ودراسات. /مكتبة العبيكان.-

الرياض، ١٤٢٣هـ

٣١٨ ص، ١٦،٥×٢٤سم

ردمك: ٥-٢٤٩-٤٠-٩٩٦٠

١- هدارة، محمد مصطفى

أ. العنوان

ديوي ٩٢٨

١٤٢٣/٥٤٥٦

ردمك: ٥-٢٤٩-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٣/٥٤٥٦

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

ص ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeikandi.com

## تصدير

رحم الله الدكتور محمد مصطفى هدارة...

فما كان إلا سيفاً ماضياً، شاء الله له أن يشهر نصرة للحق وإزهاقاً للباطل.. حتى إذا أتختته الجراح، وفلّته المعارك، عاد السيف إلى غمده، ورجع المجاهد إلى ربّه، فكان كما قال أبو تمام:

وما مات حتى مات مضرب سيفه من الطعن واعتلت عليه القنا السمر  
وهل عرفت الساحة الأدبية رجلاً أصدق منه لهجة، وأكثر منه جرأة، وأثبت  
منه جناناً، وأقوى منه عارضة في الذود عن تراث الأمة، وتأصيل الأدب  
الإسلامي الذي يعد رائداً من رواده الأوائل.

وكان لا يحسن المصانعة والمداراة، ولا يخاف في الحق لومة لائم ولا أذى  
غاشم.. وكم تعرض للترغيب والترهيب، وكم حيل بينه وبين المناصب التي تربع  
عليها في غفلة الزمان من لا يستحقها، ولكنه أبعد عنها بعد أن عرفوا قوة  
شكيمته، وأنه لا يلين للوعد، ولا يهاب الوعيد.

ولقد كان قمة شامخة في الأدب والنقد، يعرف ذلك من قرأ كتبه، أو اطلع  
على مقالاته، أو مناظراته، أو استمع إلى محاضراته. وها هي ذي كتبه تبدو  
للمنصفين نماذج يحتذى بها في المنهج القويم والمنطق السديد، وفي نصاعة الحجّة  
وغزارة المعرفة، واستيفاء البحث، حتى لا يترك زيادة لمستزيد.

ولقد بلغ من موهبته وتفوقه في مراحل الدراسة ما سمعته من أستاذ الجليل الدكتور محمد محمد حسين -رحمه الله- حين قال لي: ((لم يتخرج عليّ أحدٌ في مقدرة الدكتور هدارة))، وبلغ من ذلك أيضاً أنه أُلّف قبلَ تخرجه من مرحلة الإجازة كتاباً عن ((التجديد في شعر المهجر)) أصبح من المراجع التي يُعتمد بها في موضوعه، كما أصبحت رسالته التي نال بها درجة الدكتوراة عن ((اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري)) من أهم المصادر عن تطور الشعر العربي في تلك الفترة المهمة من تاريخنا الأدبي.

ولقد قرأت كتابه ((مقالات في النقد الأدبي)) فتمثل لي صاحبه وكأنه جرير حين كان ينازل أقرانه وأنداده، فينقضّ انقضاض الصقر الأجدل، لا يعرف مهادنة أو مهاودة، حتى كان مما قلته بيبي وبين نفسي بعد قراءتي لهذا الكتاب: ((اللهم لا تسلطه على مؤمن)).

وكان الدكتور هدارة أول من تصدى لحداثة أدونيس وأشباعه، في المحاضرة التي ألقاها في مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية، حيث أظهر الفرق بين الحداثة بمعنى التجديد، وهو ما لا يرفضه إنسان عاقل، وبين الحداثة الفلسفية المدمرة، التي عرفها أصحابها بأنها ((انقطاع معرفي)) والتي قال عنها الدكتور هدارة في محاضراته:

((إنها في الحقيقة أشد خطورة من الليبرالية والعلمانية والماركسية وكل ما عرفته البشرية من مذاهب واتجاهات هدامة، ذلك أنها تتضمن كل هذه المذاهب والاتجاهات وهي لا تخصص مجالات الإبداع الفني أو النقد الأدبي، ولكنها تعمّ الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية والفكرية على السواء)).

على أن شدة الدكتور هدارة في صدعه بالحق، وصرامته في مواجهة الباطل والانحراف، لا تعنيان أنه كان في حياته عابساً أو متجهماً أو متمزماً.. بل كان دائم البشر، حلو المعاشرة، كريم النفس، قريباً إلى قلب طلابه وإخوانه ومحبيه الذين يحتسبونه عند الله، داعين له الله أن يعلي مقامه في جنته كفاء جهاده في سبيله.

د. عبد القدوس أبو صالح

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية

ورئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي

obeikandi.com

## مدخل عن حياة وأعمال

### الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة

بقلم أ.د محمد زكريا عناني\*

في هذه الفترة العصيبة العاصفة من عمر الوطن؛ الفترة التي شهدت فيها البلاد التحولات السياسية الكبرى، بعد اندلاع ثورة ١٩١٩م، وذهاب سعد<sup>(١)</sup> للمنفى ثم رجوعه للبلاد، ووضع دستور ١٩٢٣، والدخول في مراحل الشدّ والجذب مع الاستعمار، والفترة التي شهدت ظهور وعي عميقٍ بتراث الأمة، ومن ثم نشطت حركة النشر والتحقيق، وإنشاء المكتبات الكبرى، وطبع مئات الدواوين والمعاجم والموسوعات.

والفترة التي شهدت اكتمال نضج الشعراء والكتّاب الكبار، من أمثال طه حسين، والعقاد، وشوقي، وحافظ، وخليل مطران، ومصطفى صادق الرافعي، وإبراهيم عبد القادر المازني وعشرات آخرين.

والفترة التي شهدت العديد من الظواهر الثقافية الكبرى، مثل جماعة الديوان، وجماعة أبولو ومجلتها الفريدة في بابها، كما آذنت بقرب ظهور مجلتي الرسالة والثقافة وغيرها من عنابر الفكر الرفيع.

---

\* أستاذ بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر.

(١) سعد زغلول باشا، زعيم مصري.

في هذه الفترة المشحونة بالتيارات والانفعالات يولد محمد مصطفى هدارة (في العاشر من فبراير سنة ١٩٣٠). بمدينة الإسكندرية التي امتزج بها، كما امتزجت به، حتى أصبح واحداً من أهم رموزها الثقافية بلا مرأى.

وإذا كانت مراحل حياة الرجل معروفة بوضوح تام (من خلال كُتَيْب ظهر منذ حين بعنوان: رواد غرب الدلتا، وكذلك الكتيب الذي صدر عن مجلة الرافعي بعنوان: الأصيل معاصراً) فإن هناك علامات أو سمات تستحق التنويه، منها أن ميله إلى اللغة العربية كان قد ظهر مبكراً، حتى إنه كان في مراحل دراسته الابتدائية والثانوية ((نحماً في اللغة العربية وآدابها))، تُقرأ على طلاب فصله موضوعاته الإنشائية، ويُلقى الشعرَ أمام المفتشين وكبار الزائرين... وكانت له في أثناء دراسته الثانوية محاولات جيدة في كتابة الشعر، والمسرحية، والقصة القصيرة، والرواية، نشر بعضها في مجلة الثقافة وغيرها من المجلات.

ومن العلامات الأخرى: أنه التحق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، حتى تخرج في عام ١٩٥٢ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، ليواصل بعدها الدراسة لنيل درجة الماجستير، حتى يحصل عليه سنة ١٩٥٧ (بتقدير ممتاز)، ثم الدكتوراه سنة ١٩٦٠ (بمرتبة الشرف الأولى).

وتقلّب الرجل في وظائف شتى، إذ عمل أول ما عمل معيداً بكلية الآداب جامعة عين شمس، ثم تركها -في ظروف غامضة- ليعمل لفترة قصيرة من الزمن مدرساً بمدرسة الرمل الثانوية بالإسكندرية (الناصرية حالياً)، وهذه المرحلة قلما أشار إليها هو، أو ذكرها من كتبوا عنه، على الرغم من أنه كان في أثنائها

صاحب تأثير كبير في نفوس طلابه، وأشرف خلالها على عدد من أعمالهم المنشورة، كما تولى إصدار مجلة كبيرة لهم.

وعين بعد ذلك ملحقاً ثقافياً بجامعة الدول العربية، وفي خضم هذه الفترة كان قد حصل على درجة الدكتوراه، مما جعل جامعة الإسكندرية ترحب به ليعمل بها مدرساً للأدب (سنة ١٩٦٠)، حتى نال درجة الأستاذية (سنة ١٩٧٢)، وتولى بها العديد من المناصب الإدارية، من أهمها: وكالة الدراسات العليا بكلية الآداب، ورئاسة قسم اللغة العربية لعدة دورات، كما تولى عمادة كلية الآداب بطنطا، وأُعيد للعمل بجامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٩٦٦، ثم لجامعة الرياض، ودُعي لإلقاء محاضرات في أقطار شتى من الوطن العربي، والصين، والولايات المتحدة الأمريكية، وألمانيا وغيرها، وظلّ إلى آخر أيام حياته يوالي الكتابة، والإسهام في الحياة العلمية والثقافية بما عُهد عنه من ذكاء وألمعية وفطنة، مما جعله من النماذج الفريدة في هذا المضمار.

وقد خلف الدكتور محمد مصطفى هدارة تراثاً أدبياً ضخماً فمن ذلك:

- التجديد في شعر المهجر، ويُعدّ من أوائل كتبه.

- تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، وهو من الدراسات الجامعة المتعمقة، ولعله أفضل ما أُلّف في بابه.

- مشكلة السرقات في النقد العربي، وهو البحث الذي تقدم به لنيل درجة

الماجستير في الآداب، ولا يزال يُعدّ أفضل الدراسات الأكاديمية في موضوعه.

- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، وهذا البحث الذي تقدّم به لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، ومن المؤكد أنه أفضل ما أُلف في بابه، وقد عوّل عليه العديد من الباحثين، وبنوا بوحى منه العديد من دراساتهم وبحوثهم.

- مقالات في النقد الأدبي، وطبع أكثر من مرّة في مصر والمملكة العربية السعودية.

- دراسات في الشعر العربي (جزآن).

- الشعر العربي في العصر الجاهلي.

- الشعر العربي في القرن الأول الهجري.

- المأمون الخليفة العالم.

- النقد الأدبي الحديث.

- الشعر العربي الحديث.

- الشعر المعاصر إلى أين؟

- دراسات في النثر العربي الحديث..

- دراسات في الشعراء العرب المُحدّثين، وهو الكتاب الضخم (في جزأين

من قرابة ألف صفحة) الذي استحق عليه نيل جائزة (محمد حسن فقهي) في الدراسات الأدبية والنقدية.

وللدكتور محمد مصطفى هدارة العديد من الكتب المحققة مثل:

- سرقات أبي نواس لمهلل بن يموت.

- ضرائر الشعر للقرّاز القيرواني (بالاشتراك).
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي.
- كما ترجم عن الإنجليزية خمسة مؤلفات هي:
- ١- الإسلام لألفريد جيوم.
- ٢- يوميات هيروشيما لهاشيا.
- ٣- قاهر القطب الجنوبي لرتشارد بيرد.
- ٤- ملفل الملاح الصغير لجين جولد.
- ٥- عالم القصة لبرنارد ديفوتو.

أما بحوثه المنشورة فإنها فيض من العلم وقوة العارضة وحسن الاحتجاج والحماس لما يقول، ويمكن أن نورد هنا كذلك ما كان يشارك به من ندوات وأحاديث إذاعية وتلفزيونية، وربما جاز كذلك أن يسجل هنا ما يشير إلى الكمّ الهائل من التقارير العلمية التي كتبها حول بحوث الترقّي لدرجة أستاذ وأستاذ مساعد، التي كان يتقدم بها أعضاء هيئة التدريس بالجامعات، وتبلغ قرابة مائتي تقرير، فضلاً عن قرابة مائتي رسالة جامعية أشرف عليها، وأعداد أخرى من الصعب حصرها، مما قام بالاشتراك في لجان الحكم عليه، وكان من المعروف عنه أنه يكرس جهداً كبيراً لكل عمل يسند إليه، ويوليه ما يستحق من عناية ومراجعة واستيعاب.

ولم يكن هناك نظير لطاقة الرجل في مجال إعداد المؤتمرات والمشروعات العلمية، والإدلاء بالآراء الحسيفة في أدقّ التفاصيل الفنية المتعلقة بذلك، وقد

أسهم إبان عمله بالإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية على عدد من المشروعات العلمية ذات القيمة، مثل الإعداد لترجمته كتاب بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ولقانون توحيد المطبوعات بالعالم العربي، وتقديم نشرة بليوجرافية موحدة للمؤلفات التي تصدر في مختلف الأقطار العربية، كما أسهم في التخطيط لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وكانت له جهود بارزة أثناء عضويته بالمجلس الأعلى للثقافة في لجنة الدراسات الأدبية، وفي إعداد مواد المنتخبات الأدبية المعروفة باسم ((الروائع))، ومن الممكن إضافة حشد هائل من الأعمال الجليلة التي كان له فيها قصب السبق، والرأي الناضج العميق.

كذلك فإن هذه الكلمة الموجزة لا ينبغي لها أن تخلو من تنويه بالجانب الفني للرجل، والذي تمثل في روايته الشهيرة ((المنصورة))، وفي قصائده العديدة مما ظهر على مدى نصف قرن.

وقد كان من حقّ هذه الكلمة أن تأتي والرجل ملء السمع والبصر، كما أن سطور هذا الكتاب كان مقدراً لها أن تصدر، إذ كتبها أقلامٌ زملائه وتلاميذه ومحبيه عندما كان بيننا علماً يهله، فتضاءل أمامه النفوس، وتشحب وجوه الأعداء، وتكسر الفقاقيع الخاوية إلا من الزهو الأجوف، والصخب الأرعن.

لكن الرجل مضى إلى بارئه، بعد أن أدى رسالته، وملاً الدنيا علماً وكفاحاً وحرارة وحيوية، وتلاميذه في كل مكان يواصلون رسالته، ويحملون علمه، ويعلمون كلمة الحقّ، وفكرة الإيمان التي عاش العمر كلّها يجاهد في سبيل غرس ثمراتها، والذود عنها ضد الحاقدين، والمتغطرسين، ومَن في آذانهم وقرّ، والمصغرين خدودهم، وما يساوون - لو علموا - إلا قبض الريح.

لقد كان محمد مصطفى هدارة ظاهرة بالمعنى الكامل للأبعاد، و((مؤسسة))  
أسست على التقوى والورع والعلم والإيمان، فلا غرابة - بعد هدارة أن وجفت  
لرحيله القلوب، وحزنت لفراقه نفوس عارفيه ومحبيه في الشرق والغرب، وإنا لله  
وإنا إليه راجعون، وإنما تفتى الأجساد وتبقى الأعمال، وتنطوي الدهور والأيام،  
ولا تتوارى مآثر الرجال..



obeikandi.com

## الدكتور هدارة بين التراث والحداثة

بقلم الأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي\*

الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة ظاهرة متميزة في تاريخ الحياة الجامعية والعلمية المعاصرة في مصر والعالم العربي، فهو يحمل في وعيه ولا وعيه تراث الحضارة العربيّة والإسلاميّة، يدرك مسؤوليته تجاه هذا التراث، ويعرف مكانته وقدره، لم يتنكب عن فهم الظروف التي أحاطت بعهود تراثنا القديم في فتراته المتعاقبة، بل هو يشعر دائماً بوطأة ذلك التراث حين يتكلم أو يعمل، كما كان يعي في ذات الوقت ما تضيفه الحضارة الغربية والفكر المعاصر من دفعات حية، تواكب حركة التطور المعاصرة والمصاحبة لنهضتنا الحديثة، في شتى مجالاتها المختلفة.

وكان يصدر في هذين المجالين عن تفكير هادئ ذي بعدين أساسيين: الشمول والعمق، ويدفعه دائماً طموح وثاب، لا يركن به إلى اليأس، بل يدفعه إلى النجاح المتصل، وما كان ذلك ليتحقق لولا ما يتحلى به من درجة عالية من التوازن المتناغم بين ممارسته العملية للحياة، سواء على المستوى الخاصّ والعامّ أو على المستوى الريادي والقيادي، كما يتجلى ذلك في تحكيمه للعقل، وتخطيطه النابع عن ذهنية سوية ومنظمة، تجمع بين التنظير والتطبيق، بين الخيال (الديناميكي) والواقع الحركي.

---

\* أستاذ متفرغ بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

أضف إلى هذا أنه ينطلق في أقواله وأعماله من إيمانه العميق بالله خالق السموات والأرض، ثم من ركنين إذا توازنا فلا ثالث لهما في هذا الكون، الأخلاق والحرية، فلا إنسان بدون أخلاق، ولا حياة بدون حرية، إنهما عنده حبتا قمع في سنبله واحدة، أو هما جنينان في رحم واحد، فإذا انتَهكت الأخلاق وانعدمت الحرية فلا مكان للإنسان على الأرض، كما أن المبدأ الأخلاقي والرأي المستقل الحر هما عنده الأساس في تقويمه للشخصية والحكم عليها.

أيديولوجية الدكتور هدارة ذات رؤيا عميقة وشاملة، لكنها تنطلق من الواقع وتصبّ فيه، إنها بسيطة ومركبة في آن واحد.

وتظهر هذه الإيديولوجية بوضوح في نهجه العلمي، سواء على مستوى التدريس في قاعات المحاضرات، أو على مستوى التأليف والبحث العلمي في دراساته وأبحاثه، إنه النهج العلمي الذي يعتمد على أساليب البحث الحديث، في محاولة تبغي الشمول والدقة في فهم زوايا الموضوع الذي يطرح، وأطر التفكير التي تحتويه وتتضمنه، مع احترام للآراء السابقة دون خضوع لها، أو استسلام لما تفرضه، ومع الحرية في المناقشة وإبداء الرأي المبني على المنطق، والصادر عن منهجية في النظر، وموضوعية في الأحكام.

خذ، على سبيل المثال، دراسته الرصينة لاتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، وهي دراسة تتناول مرحلة من أهم مراحل التطور في تاريخ أدبنا العربي، فلم يظفر أدبنا العربي في تاريخه القديم كله بحركة تغيير وتحول جذرية، تهزّ أصوله هزاً عميقاً كما حدث في القرن الثاني، فقد ظفر الشعر في هذا القرن بطفرة حولته عن مساره، وخلقت منه وجهاً جديداً كلّ الجدة في قسماته، وإيقاعه،

وموقفه في الحياة، ورؤيته للوجود، وتناوله لقضايا الإنسان وفكره، وفلسفاته، ومذاهبه على نحو يهز الأصول الثابتة للشعر الجاهلي هزاً عنيفاً.

وقد استطاع الدكتور هدارة بدراسته العلمية لهذا القرن أن يقترب اقتراباً دقيقاً من موضوعات التجارب الشعرية ولغتها، وطرائق تعبيرها، وشخصية شعرائها، ومواقفهم من الحياة، كما كشفت الدراسة عن كثير من جوانب التحول في قيم الشعر ومفاهيمه، وأبرزت - بشكل خاص - علامات التطور والجدّة، التي لم تكن معروفة في شعرنا العربي قبل هذه المرحلة، وقد كشف الكتاب عن حقائق هامة أهمها:

أولاً: أن الشعر في القرن الثاني قد بدأ يخرج من دائرة الاستسلام والرضا والولاء للجماعة والتقاليد والأنماط التقليدية المعروفة، إلى دائرة الرفض والتمرد والسخرية من العادات والتقاليد الثابتة والرضوخ للنمطية، وقد ظهرت علامات هذا كله على المستويين الإبداعي والاجتماعي على السواء، ومن هنا أخذت الحياة وظروف المجتمع الجديد يعمقان إحساس العزلة والشعور بالوحدة والقلق والغربة، الأمر الذي دفع بالشاعر إلى ضرورة البحث عن مخرج، فكان السبيل هو طريق الذات، ومحاولة الكشف من خلالها عن التوازن الداخلي، باتخاذ موقف ينبع من تصوره وإرادته الحرة، بعيداً عن أي تأثير.

من هنا كان التحوّل من الحضور الجماعي إلى الحضور الذاتي، أو بمعنى آخر ظهور العمل الإبداعي، يرضي حاجة الذات، ويعبر عن خلاصها وتعزيتها، قبل أن يعبر عن اهتمامات الجماعة وإرضاء قيمها.

ثانياً: لم تكن هذه التجارب الذاتية الجديدة عند كبار شعراء تلك المرحلة، مجرد تجربة تكشف عن مكنون النفس، أو مشاعرها الداخلية فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى اتخاذ موقف فكري من الحياة والوجود، أي أن الشعر قد صار رؤية وموقفاً، وصار حلماً وفكراً، في ذات الوقت يتوجه فيه الشاعر إلى الإنسان يتأمل موقفه من الزمن والكون والمصير، ويتجاوز الحدود المكانية والرؤية الجزئية، إلى حدود كلية ومطلقة، كما هو الحال في بعض تجارب أبي نواس، ومن بعده المتنبي وأبي العلاء.

ثالثاً: التحول في شكل الشعر وصياغته فلم يعدّ هَمّ الشاعر التعبير، بقدر ما صار من همومه التفكير في كيفية التعبير كما صرح بذلك بشار بن برد، فبدأنا نرى معماراً شعرياً جديداً وتركيباً مختلفاً.

رابعاً: تحررت القصيدة العربية القديمة من بعض التزاماتها المفروضة عليها في الشكل والمضمون، ولم يظهر هذا في إيقاع الشعر، وتطور أوزانه، واقترب لغته من لغة الحياة فحسب، بل تغير البناء الفني أحياناً، فتحققت التجارب التي تجسد لحظة شعورية واحدة، ورؤية واحدة، تنتشر فيها منذ بدايتها إلى نهايتها.

خامساً: وإلى جانب التحول في الصياغة والشكل والبناء الفني للقصيدة، فقد كان ثمة تحوّل ظاهر في طبيعة التجربة البشرية، أو ما يُسمّى بمضمون الشعر، وما يطرحه من قضايا، ولعل أبرز ملامح التحول في هذه الناحية، موقف الشعر من المجتمع والناس، وظهور نوع من الصراع بين الشاعر والمجتمع، نتيجة لظروف التغير الذي أصاب الحياة، وشكّل وجه المجتمع، نتيجة لما

نشأ من صراعات سياسية وشعرية، واضطرابات في الحياة الاجتماعية، فضلاً عما أصاب الحياة الفكرية والعقلية من تطور.

سادساً: ظهور موضوعات شعرية جديدة لم تكن معهودة، مثل شعر الزهد، والشعر التعليمي، وقد عاجلها الباحث بما عرف عنه من دقة وشمول.

فهذا قليل من كثير مما حققه الباحث في كتابه ((اتجاهات الشعر في القرن الثاني)) وهو كتاب يعد من أهم المصادر في تلك المرحلة لا يستغني عنه باحث أو دارس، فسرى تناولاً عملياً يكشف عن خُطى هذه الظاهرة، ويتعقبها عند النقاد، مستعيناً بنظراته الثاقبة، وثقافته الحديثة التي أعانتته على تفسير كثير من مشكلات هذه الظاهرة، التي لقيت اهتماماً كبيراً من نقادنا القدماء، فحققها الباحث تحقيق المتمكن الذي يرد كل شيء إلى مكانه الصحيح.

وهكذا كان نهج الدكتور الذي يتسم بالدقة والشمول والمنهجية، والذي يتضح كذلك في دراسته للشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام.

فإذا انتقلنا من القديم إلى الحديث، واجهتنا دراسته الرائعة للشعراء العرب المحدثين، التي ظهرت في عام ١٩٩٤ في جزأين، أتبعها بجزء ثالث تحت عنوان ((كتابات وكتّاب))، تناول في هذا الجزء أعلام النثر العربي الحديث، وفي هذه الدراسات تستطيع أن تدرك منهج الكاتب في دراسته للشخصية الأدبية، التي يقف فيها عند أبرز الملامح الدالة والناطقة بقسمات الشاعر أو الكاتب، مهتماً بتحديد عناصر الصورة الفنية والإنسانية التي تكشف عن كل شخصية، بحيث تظهر أمام القارئ، حتى وكأنه يعاينها ويميزها عن سائر الشخصيات التي يعرفها، وهو منهج يعتمد على ذكاء الكاتب وفطنته، وقدرته على سبر أغوار

الشخصيات، واكتشاف أعماقها، ورسم ملامحها على المستويين النفسي والإبداعي.

ويهمنا بشكل خاص أن نقف في المرحلة الحديثة عند كتابه عن النقد الأدبي الحديث، وما جاد به من فصول قيمة تستوقفنا، فيها أربعة فصول درس فيها موضوع الحداثة في عناية ودقة، بذل في ذلك جهداً علمياً مكثفاً، رجع فيه إلى العديد من المراجع والمصادر التي تناولت موضوع الحداثة عند الأوروبين، في محاولة لتحديد المصطلحات والمفاهيم، ثم الكشف عما يسمّى بالحداثة العربية، والفرق بينها وبين مذهب الحداثة عند الغربيين، المسمى Modernism، أي الفرق بين الحداثة بمعنى مظاهر التجديد والتطور وسماتها في أدبنا العربي، وهو ما يطلق عليه لفظ Modernism، وقد يطلق عليه البعض اسم المعاصرة ومنهم الدكتور هدارة، وبين المذهب الذي ظهر في أوروبا في أوائل هذا القرن وغير الكثير من ملامح التعبير الفني في فنون كثيرة مختلفة.

قرأت هذه الفصول الأربعة باهتمام، غير أن الذي استوقفني حقيقة، هو قلق الكاتب من خطورة ((الحداثة)). بمعناها الغربي على حياتنا وفكرنا وحضارتنا وتراثنا، ومن هنا جاء هجومه على بعض الحداثيين من شعرائنا الذين يحاولون تقليد هذا الاتجاه، وقد يكون للدكتور هدارة عذره في الهجوم على هؤلاء إلا أنني لمست أن حجم الهجوم أكبر بكثير من حجم الخطورة التي يخشاها الدكتور هدارة على تراثنا وأدبنا المعاصرين.

وأعتقد أن المبدئين اللذين يرجع إليهما الفزع من الحداثة هما:

أولاً: أن تكون الحداثة نفيًا للماضي، وهدماً للتراث، وبدءاً من الآن، وزلزلة عنيفة، وانقلاباً ثقافياً شاملاً يقطع الحاضر عن الماضي، وثورة في مجال النشاط الإبداعي تجعل الإنسان يشك في حضارته وتراثه بأكمله، ويرفض حتى أرسخ معتقداته المتوارثة.

ثانياً: الخوف من إقحام فكر غريب أو بعيد عن قيمنا وتقاليدنا، فينتهي إلى تقليد الغربيين في أفكارهم، وأحوال معيشتهم، دون تبصر من كتابنا أو شعرائنا، فلا يستنيرون ببحث، ولا يتبصرون بحسن نظر، ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تنافر في الطباع، وتباين في الأذواق، واختلاف في العادات، فتكون النتيجة إصابة المجتمع بالخلل، فسينهدم الأساس، وينقض البنيان.

لعل هذين هما المبدآن اللذان يثيران التخوف والقلق من تيار الحداثة بمفهومها المذهبي الأوروبي.

والذي أراه -وقد اختلف فيه مع الدكتور هدارة- أن الخوف من هذين المبدأين على مصيرنا الفني، وتراثنا الأدبي، وموقعنا الحضاري والاجتماعي، يبدو أكبر بكثير من حجم الواقع وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: قد يكون الخوف على المستوى النظري أمراً وارداً، وشيئاً طبيعياً، لكنه على مستوى الواقع والمستوى التطبيقي لا يدعو إلى الخوف، فليس في واقعنا الأدبي المعاصر حداثة المودرنزم بالدرجة التي تهدم التراث، أو تمحو حضارة بأكملها، أو تحدث انقلاباً شاملاً.

فحداثة أوروبا كانت تهدف إلى تقويض صرح الواقعية أو الرومانسية، وتزعج إلى التجريدية، مثل التأثيرية والتعبيرية والمستقبلية والرمزية والسيرالية،

وحتى هذه التيارات ليست جميعها صنفاً واحداً، بل إن بعضها قد يناقض بعضها الآخر، فالمودرنزم ليست أسلوباً بقدر ما هي بحث عن أسلوب بمعنى فردي موغل في الفردية.

إنه فن ينهض على أنقاض الحقائق العامة المشتركة، وعلى الأفكار التقليدية، واندثار الآراء المتوارثة، إنه فن تحول المجتمع الأوروبي إلى مجتمع اليوم.

تلك هي حداثة المودرنزم فأين نحن العرب من هذه الأشياء؟

متى كانت الواقعية والعقلانية، والتصنيع الشامل والتكنولوجيا الحديثة هي السمات الغالبة على مجتمعاتنا؟!

إن الواقعية لم تبدأ عندنا إلا في الأربعينيات والخمسينيات، أي في الوقت الذي بدأت فيه الدعوة عندنا إلى الحداثة في الشعر، ولم يمض ربع قرن حتى انتهت دعوة الحداثة نفسها.

كل الذي حدث عندنا أن موقفنا المعاصر يتميز في بعض صفاته بأسلوب الأدب الحديث: أعني أزمة الإنسان المعاصر.. مأساته، انهيار القيم التقليدية، ضياع الفرد في جهاز الدولة، فقدانه لفرديته لا لغلبة الآلة والتكنولوجيا الحديثة على حياته، ولكن لاعتبارات سياسية واجتماعية واقتصادية قهرية.

ومع ذلك فإن الأديب العربي لم يفقد ثقته بنفسه وثقافته وأصالته، والقليوبون جداً هم الذين ركضوا لاهئين وراء آخر البدع أو (الموضات) ليقلدوها - سواء أكان ذلك عن معرفة أم عن جهل.

إن الحداثة العربية الحقّة هي أن تكون صادقاً مع نفسك، وأنت تصاحب حركة التطور الحضاري، وتعبر عنه أصدق تعبير، والحديث الحق هو الذي يعبر عن الحساسية الحديثة.

ثانياً: إن حداثة أدونيس ورفاقه -على المستويين النظري والتطبيقي- أي من خلال التجارب النقدية والإبداعية التي تطرحها، ليست لها القوة الكاسحة أو الجارفة والقادرة على التغيير المخيف، الذي يخشاه الدكتور هدارة، فلم يستطع أدونيس ورفاقه أن يغيروا ملامح وتقاليد وحضارة تراثنا، وعاش على مدى قرون وما يزال يتنفس فينا وفي أعمال أدونيس نفسه.

ثم إن إطلاق صفة الفن الحديث بالمعنى الذي عرفناه على هذه التجارب أمر يبدو بعيداً.

والغريب الذي يستحق التسجيل أن إطلاق لفظة الحداثة عند الأوروبيين، جاء مصاحباً أو لاحقاً لهذه الظاهرة، أما عندنا فقد جاء سابقاً حتى أصبح لكلمة الحداثة عندنا دلالة (تقويمية) بدلاً من أن تكون مجرد نعت أو مصطلح وصفي.

ثالثاً: إن الحداثة - أيّاً كان نوعها - عندنا نحن العرب، أو عند الأوروبيين، أو في أي زمان ومكان، تعني التغيير والتجديد - سواء أكان إبداعاً، أم دراسة نقدية - إنما يهدف إلى تغيير المجتمع بقيمه الحضارية والروحية، وبمقولاته الفكرية بدرجات متفاوتة، فهناك على سبيل المثال حداثة مناسبة كالتي رأيناها في كتاب الدكتور هدارة ((اتجاهات الشعر في القرن الثاني)) وهناك حداثة معاصرة.

فطه حسين مثلاً يرى أن مسألة تغيير المناهج القديمة في دراسة الأدب، ليست مسألة تتعلق بالأدب وحده، وإنما هي مسألة ترتبط بمصير الثقافة العربية الحديثة، ومصير المجتمع العربي بأسره، وهكذا يوحد طه حسين بين ذاته وقضيته من جهة، وبين مجتمعه وعصره من ناحية أخرى.

هذه بعض ما أثارته الفصول الأربعة التي كتبها الدكتور هدارة عن الحداثة، وهي فصول مثيرة وباعثة على المناقشة والحوار، سبق أن ناقشناها معاً على موجات البرنامج الثاني عقب صدور كتابه.

وبعد، فهذه خواطر قليلة من كثيرة تثيرها أعمال الدكتور هدارة العلمية الفنية بقضاياها المتنوعة والرحبة، وجميعها يتسم بالشمول والعمق والدقة.

هذا، فضلاً عما لشخصية الدكتور هدارة من غنى وخصوبة وتأثير واسع، فينتشر في شتى أنحاء العالم العربي، مما يؤكد ما للصديق العزيز من فضل، فهو بحق ثروة شاركت في صنع الحياة الأدبية والفكرية في عصرنا الحديث، في مصر والعالم العربي.



## الدكتور محمد مصطفى هدارة

### الفارس الذي ودّعناه

بقلم: د. سعد أبو الرضا\*

في يوم الخميس ٢٧ من شوال سنة ١٤١٧هـ الموافق ٤ آذار (مارس) سنة ١٩٩٧م، رحل عن عالمنا الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة، وهو من أبرز نقادنا الإسلاميين، ومن أشهر فرسان ثقافتنا العربية الأصيلة.

عرفته قويّ الشكيمة، يناضل من أجل الحق، لا يجيد عن هدفه قيد أنملة، طويل الباع، واضح الحجة، منطقي التفكير، يؤمن فيدافع، وينظر فينفذ.

آمن بفكرة الأدب الإسلامي، فكان حجة في الحديث عنه، بل لقد كان من أوائل المؤصلين لمذهب الأدب الإسلامي، وتصدى لمن لم يفهموا الفكرة، حيثما كانوا، وفي الوقت الذي كانت سهام الحداثيين تناوشه، معتصمة بسيطرتها على مختلف وسائل الإعلام، كان يتصدى لها على أعلى المستويات، كاشفاً عن انحرافاتها وفسادها ليس فقط بالمقالات، ولكن أيضاً بالأبحاث والدراسات الفنية التطبيقية على نصوص الأدب المختلفة<sup>(١)</sup>.

---

(\* الأستاذ بكلية الآداب بجامعة بنها - مصر، ونائب رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي.

(١) انظر على سبيل المثال: د. محمد مصطفى هدارة. دراسات في الشعر العربي. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٣م، ص ١٢٠ وما بعدها، وكذلك انظر له أيضاً دراسات في الأدب الحديث، دار العلوم العربية، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ص ١٣١، وكذلك له أيضاً مقالات في النقد الأدبي. دار العلوم، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص ١٨.

ولقد كشفت جهوده العلمية في مؤتمرات الأدب الإسلامي عن إخلاصه الشديد لهذا المذهب، وإيمانه العميق به، سواء في الرياض أو الإسكندرية أو القاهرة أو وجدة بالمغرب، وذلك بما قدم من بحوث للتأصيل للأدب الإسلامي، والكشف عن أسسه، وبمناقشاته التي أثرت هذه اللقاءات، بل لقد كانت ندوة الأدب الإسلامي في الإسكندرية، التي بذل د. هدارة جهداً ملحوظاً لعقدتها، أول لقاء يهتم بهذا الأدب على أرض الكنانة، وقد أعطى هذا اللقاء للمذهب ذيوعاً وانتشاراً، أسهم في تدعيمه، وقوة انطلاقه بعد ذلك.

ولقد كان هذا التوجه الإسلامي ديدنه في كل ما يكتب، من مقالات وبحوث، ودراسات وكتب<sup>(١)</sup>.

مثل هذا الرجل بأصالته واتساع ثقافته، وغزارة نتاجه قد يصعب الإحاطة بأهم محاور فكره، والكشف عن قسماته.

وإذا كانت هضات الأمم مردها إلى عنايتها بتراثها، وحرصها على الاتصال بالمتغيرات، فلقد كان هذان العاملان هما اللذان شكّلا فكر هذا الفارس وشخصيته الثقافية، حتى يمكننا أن نرى فيه صورة لأمتنا في هضتها.

فكيف تجلّي اهتمامه بالتراث؟

(١) انظر على سبيل المثال. دراسات في الأدب العربي الحديث. (مصدر سابق)، نزار قباني وقصته مع الشعر ص ١٣١، التزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث ص ٢١١، التراث الإسلامي في أدب توفيق الحكيم ص ٢٨٧.. وكذلك مثل مقالات في النقد الأدبي (مصدر سابق)، الشعر والنقد الأخلاقي ص ٤١، الإسلام والعقل في ضوء القرآن الكريم والحديث النبوي ص ٨٩.

هنا يجب أن نشير بداية إلى أنه من هؤلاء الأساتذة الذين خرجوا من عباءة الأستاذ محمود شاكر، واستفادوا من فكره ومنهجه ومكتبته، وهم يؤسسون أنفسهم. ولذلك فقد كان التحقيق لكتب التراث من أهم المجالات التي شغلت الدكتور هدارة، للكشف عن قيمة تراثنا، وإضاءة جوانبه المختلفة، للتأصيل لفكرنا المعاصر، وذلك بتحقيق النصوص، وعرض كثير من قضايا النقد القديم، وتحليلها تحليلاً فنياً مقارناً، بحيث يكشف عن العوامل الفاعلة فيها، وأهم أسسها، ومقارنتها بغيرها، سواء على مستوى نقدنا العربي، أم جهود الأجانب في لغاتهم وآدابهم بالنسبة لهذه القضايا النقدية. وهذه المقارنات مما يميز جهود د. هدارة في تعامله مع التراث.

ولقد كان كتاب ((مشكلة السرقات الأدبية في النقد العربي))<sup>(١)</sup> وهو من تأليفه، بجانب ما فيه من نصوص قد حققها، من خير ما يوضح ذلك تحقيقاً واستشهاداً بالنصوص وعرضاً ومناقشة وتحليلاً ومقارنة لها بغيرها.

كما كان تحقيقه لكتاب ((سرقات أبي نواس لمهل بن يَموت بن المرزّع))<sup>(٢)</sup> وتعليقاته عليه تجسيدا آخر لهذا الاتجاه في عنايته بالتراث، خاصة وهو يستعرض جهود السابقين واللاحقين في مجال السرقات الأدبية، كاشفاً عن إيجابياتها وسلبياتها، بعين بصيرة، وفكر ثاقب، وتمرس شديد بالتراث النقدي وقضاياها، سواء في هذا الكتاب المشار إليه آنفاً، أم في بحوثه التي تلت ذلك في

(١) د. محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد العربي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٢) مهلهل بن يموت بن المرزّع. سرقات أبي نواس، تحقيق محمد مصطفى هدارة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٧م.

المجال نفسه، كما في كتبه مثل: ((مقالات في النقد الأدبي))<sup>(١)</sup>، أم ما نشر في الصحف والمجلات المتخصصة، كبثته في ((السرقا الأدبية)) الذي نشرته له مجلة ((فصول)) المصرية. وهو بذلك يضع مشكلة السرقا الأدبية في إطارها الصحيح، كما يكشف عن صلتها الوثيقة بكثير من قضايا النقد الأدبي العربي كعمود الشعر، واللفظ والمعنى، وبناء القصيدة، والخصومة بين المحدثين والقدماء، ويقوم جهود السابقين واللاحقين في هذا المجال.

وهو لا يكتفي بالتحقيق لنصوص التراث بنفسه، بل يشارك الآخرين في هذا المجال، وليست مشاركته للأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام في تحقيق كتاب ((ضرائر الشعر أو ما يجوز للشاعر في الضرورة)) لأبي عبد الله محمد بن جعفر التميمي القزاز إلا تأكيداً وشاهداً على اتساع جهود الدكتور هدارة في مجال تحقيق نصوص تراثنا، واهتمامه بالكشف عن قيمتها الفنية، خاصة والقزاز في هذا الكتاب يولي اهتمامه للغة النظم والنثر، مبيّناً ما يسوغ للشاعر دون الناثر، من وجهة نظر علماء اللغة والنحو. وقد ارتبط ذلك في عصر القزاز ببحث مشكلة التغير والتحول في دلالات الألفاظ أو بنائها، على أساس استخدامات الشعراء، بناء على ما يجوز لهم ((عند الضرورة من الزيادة، أو النقصان، والاتساع، وسائر المعاني من التقديم والتأخير، والقلب والإبدال، وما يتصل بذلك من الحجج عليه، وتبين ما عسر من معانيه))<sup>(٢)</sup>، فيرده إلى أصوله، وقيسه على نظائره.

(١) انظر: مقالات في النقد الأدبي، (مصدر سابق) ص ٢٥٧ حيث ينقد كتاب السرقا الأدبية للأستاذ الدكتور بدوي طبانة.

(٢) د. محمد زغلول سلام، ود. محمد مصطفى هدارة. ضرائر الشعر أو كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة لأبي عبد الله محمد بن جعفر التميمي القزاز القيرواني. منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٧٣م، ص ١٧.

وهو لا يكتفي بذلك، بل يشجع تلاميذه على أن يصرفوا جانباً من اهتماماتهم العلمية في مجال تحقيق النصوص العربية التي تخدم أهداف أمة العرب والإسلام، فيكشفوا عما توارى من هذا التراث العظيم، وكنوزه، ويكتب لهم في تصديرها ما يحمسهم، على المضي في هذا الطريق الوعر، خدمة للغتنا وعروبتنا وإسلامنا، كما في تحقيق ((كتاب العصا)) لأسامة بن منقذ<sup>(١)</sup>.

وتضاعف عنايته بالتراث في متابعته بالتقويم بعض المخطوطات التي يحققها غيره، من المهتمين بالتراث والمتخصصين في دراسته، كما في تعليقاته على تحقيق الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام لكتاب ((المتع في صنعة الشعر)) لعبد الكريم النهشلي<sup>(٢)</sup>، كاشفاً عن سلبيات وإيجابيات التحقيق، مسدداً كثيراً من التجاوزات التي يمكن أن توجد في مثل هذه التحقيقات لمخطوطات التراث.

كما يتجلى اهتمامه بالتراث فيما تكشف عنه مؤلفاته الأخرى -غير التحقيق- من وجهات نظر تميزت بالدقة والمنهجية في البحث، والتحليل والعرض والمناقشة لنصوص هذا التراث، ثم استنتاج النتائج، مما شكّل منهجاً يفيد منه كثير من الباحثين، بالإضافة إلى إفادتهم من المادة العلمية نفسها التي تشكلها هذه المؤلفات، مثل: ((اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري)) وبحوثه في ((الإسلام والشعر)). وكذلك ((دراسات في الشعر العربي)) الذي سبقت الإشارة إليه.

(١) انظر أسامة بن منقذ ((كتاب العصا)) تحقيق حسن عباس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع

الإسكندرية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م صفحات التصدير أ، ب، ج، د.

(٢) انظر د. محمد مصطفى هدارة، مقالات في النقد الأدبي، دار العلوم، الرياض،

أما العامل الآخر الذي شكّل ثقافته وفكره:

فقد كشفت عنه كتاباته في مجال المتغيرات، وأعني بها بحوثه ودراساته التي ألفها في الأدب والنقد، سواء القديم أو الحديث، ثم مترجماته عن اللغة الإنجليزية، وهو بكل ذلك يحاول الاتصال بالجديد، في مجال النقد والأدب وفنونهما. وتتضح هذه السمة فيما يعقد من مقارنات بين جهود الأجناب في تراثهم، وفي نقدهم الأدبي الحديث، وجهودنا في مجال تراثنا، ونقدنا الحديث. وذلك بغية إثراء تراثنا، والكشف عن فاعليته، وأوجه الإشراق فيه، وبيان الجوانب الإيجابية في نقدنا الحديث، ومحاولة ترشيدها، وتقويم السليبات، وهنا أشير إلى جهده في كتابه ((مشكلة السرقات في النقد العربي: دراسة تحليلية مقارنة)) الذي سبقت الإشارة إليه، وبحوثه: ((الشعر والنقد الأخلاقي))<sup>(١)</sup> ودراسته وتعليقاته على: ديوان الدكتور عبد القادر القط: ((ذكريات شباب والشعر الجديد))<sup>(٢)</sup>، و((الإنسان في شعر نازك الملائكة))<sup>(٣)</sup>، و((اتجاهات جديدة في القصة الإسكندرية القصيرة المعاصرة))<sup>(٤)</sup>، وغيرها من بحوثه الكثيرة في هذا المجال، والتي تكشف عن محاولاته الجادة الدؤوبة في الاتصال بالمتغيرات والجديد من حولنا اتصالاً واعياً. ولقد كانت ثقافته العربية الأصيلة، وإجادته للغة الإنجليزية من العوامل التي هيأتها لذلك.

وهذا الاهتمام الجديد والمتغيرات ملمح لازمه منذ بدء حياته الفكرية، فقد صدر له سنة ١٩٥٧م كتاب ((التجديد في شعر المهجر)) الذي دعا فيه إلى

(١) انظر المرجع السابق ص ٤١-٧٤.

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٧٥ وما بعدها.

(٣) انظر: دراسات في الأدب العربي الحديث (مصدر سابق)، ص ٧١ وما بعدها.

(٤) انظر المرجع السابق نفسه ص ٣١٣ وما بعدها.

الاهتمام بالجديد في شعر المهجر، لأن ما عدا ذلك -في نظره- في هذا الشعر إن هو إلا تقليد وتكرير للشعر العربي في مصر أو الشام في العصر الحديث، ثم أشار إلى فترات الضعف بالنسبة للشعر العربي، كما عرض لمظاهر النهضة، والعوامل الفاعلة فيها، ومن بينها هجرة الشاميين إلى أمريكا، التي أشار إلى أهدافها السياسية والمعرفية، والدينية والاقتصادية، وتصوير شعر المهجر لهذه الأهداف.

وهكذا بدأ يعرض لمظاهر حركة التجديد في شعر المهجر، كالثورة على القديم، بالرغم من رصده لرواسب القديم في شعر بعض المهجرين، وقد أشار إلى مفهوم الشعر الجديد عندهم، كما فصل مظاهر هذا التجديد في شعرهم إلى تجديد من حيث الموضوع، وآخر من حيث الشكل.

أما من حيث الموضوع: فلعل من أهم ما لاحظته هو إعلاؤهم للتوجه المثالي الأخلاقي، وهم يثورون على الأدب البغي الداعر، مما قد نجد له شواهد في أدبنا القديم، وكذلك في أدبنا الحديث، في بعض البلاد العربية<sup>(١)</sup>. وهذا مما يؤكد توجهه الإسلامي، كما يشير إلى ما يتميز به شعرهم من حنين وألم وتسامح، وامتزاج بالطبيعة.

أما من حيث الشكل، فهناك لديهم القصص الشعري، وثورتهم على الأوزان القديمة والقوافي، وإقبالهم على شعر الموشحات والأوزان القصيرة، وكتابة بعضهم للشعر المنثور، ووضوح الهمس لديهم. وقد نبه إلى ذلك د. محمد مندور<sup>(٢)</sup>. كما

(١) انظر محمد مصطفى هدارة. التجديد في شعر المهجر ط ١ سنة ١٩٥٧م دار الفكر العربي

القاهرة ص ٨٨-٨٩.

(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٨٧، وانظر د. محمد مندور في الميزان الجديد.

أشار د. هدارة إلى ما يتميز به شعرهم من تجديد في الألفاظ، وتساهل في اللغة، وتجديد في الصور، واهتمامهم بتوليد المعاني، وغير ذلك مما أثروا به في الشعر العربي في جميع البلاد العربية - في رأيه-. وقد ختم هذا الكتاب بفهرس للمصادر وثانٍ للأعلام، وثالث للموضوعات.

وهو بالإضافة إلى تجلي اهتمامه المعتدل بالجديد، يتميز ((بالدقة والشمول))، في رصد أدبنا وثقافتنا، وقد وضع ذلك في بحثه لمراحل تطور الشعر العربي الحديث، عندما يرصد هذه الظاهرة، ليس في مصر فحسب، بل في الشام والسودان والعراق والجزيرة والمغرب العربي بكل أقطاره، راصداً أهم سماته ومتغيراته، وليس على مستوى البلدان فحسب، ولكنه يبرز ما يتميز به كل شاعر عما سواه، بالرغم من انتمائهم جميعاً مثلاً لمدرسة الإحياء والتقليد. ثم يصدر عن التتبع والرصد نفسيهما للشعراء الرومانسيين العرب، وكذلك الواقعيين وغير ذلك من المدارس والاتجاهات، مع ضرب الأمثلة الكاشفة المقرونة بتحليلاته النقدية<sup>(١)</sup>.

وقد تتجلى الدقة والشمول في صورة أخرى عندما يفرد كتاباً بعينه، أو شاعراً بعينه بالبحث والدرس، خلال قضية فكرية أو فنية معينة محددة، يرصد في ضوئها النتائج الفكري أو الأدبي لذلك الكاتب أو الشاعر، وبالرغم من خصوصية هذا التوجه ودقته، فإنه يحاول الإحاطة بكل نتاج هذه الشخصية، لكي يبرز أبعاد هذه القضية المعالجة كاشفاً عن قيمتها الفنية والموضوعية، وصلة ذلك بالفكر الإنساني عامة. كما في: ((الإنسان في شعر نازك الملائكة))، و((صلاح عبد

(١) انظر دراسات في الأدب العربي الحديث من ص ١١-٧٠.

الصبور بين التراث والمعاصرة))، و((طه حسين والتراث اليوناني))<sup>(١)</sup>، و((توفيق الحكيم بين أهل الكهف ورحلة إلى الغد))<sup>(٢)</sup>.

وقد أولى الدكتور هدارة النقد والأدب اهتمامه، على المستويات الإسلامية والإنسانية والقومية، فيما أشرت إليه سابقاً، وفيما لم أشر إليه من مئات المقالات في الصحف العربية والرسائل الجامعية للماجستير والدكتوراه، مشرفاً أو مناقشاً، لكنه في الوقت نفسه قد خصّ الأدب في الإسكندرية مسقط رأسه بالعديد من بحوثه ودراساته، كما في ((اتجاهات جديدة في القصة الإسكندرية القصيرة المعاصرة))<sup>(٣)</sup> حيث يلمح أهم إيقاعات العصر في مجال فن القصة، في بعض نماذج كتاب القصة القصيرة في الإسكندرية، وكذلك ((أثر الهجرة في الرواية المصرية)). وقد تتبع في هذا البحث بعض كتاب الرواية الإسكندرانيين، وهم يرصدون أثر الهجرة من الصعيد إلى الإسكندرية، رصداً إنسانياً فنياً يشكل بناء رواياتهم<sup>(٤)</sup>.

وفي هذا المجال لا ينسى الراصد لجهود هذا الرجل ما بذله من جهد في تقويم النشاط الأدبي بالإسكندرية، خلال النصف الأخير من القرن العشرين، خاصة وقد كلله قبل موته برئاسته لمؤتمر الإبداع الروائي في إقليم غرب ووسط الدلتا،

(١) انظر المرجع السابق نفسه ص ٧١، ص ١٤٩، ص ٢٥٣. وكذلك انظر كتابه مقالات في النقد الأدبي ص ١٧٩.

(٢) انظر كتابه دراسات في الشعر العربي ج ١ دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية سنة ١٩٨١ م ص ٥٤، ٨٦.

(٣) انظر كتابه دراسات في الأدب العربي الحديث ص ٣١٣.

(٤) انظر أبحاث مؤتمر الإبداع الروائي في إقليم غرب ووسط الدلتا، الشكل والمضمون سنة ١٩٩٤ م، الهيئة العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة، مصر، ص ١١ وما بعدها.

كانون الثاني (يناير) ١٩٩٤م الذي قال عنه الأستاذ حسين مهراڤ رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة بجمهورية مصر العربية:

((وقد أحسنت هيئة الإعداد للمؤتمرات برئاسة الأستاذ الجليل الدكتور محمد مصطفى هدارة الذي لم ييخل بما لديه من علم وخبرة في التخطيط له، ووضع المحاور الكفيلة بجلاء اتجاهات الرواية وعناصرها الفنية والقضايا التي عبر عنها))<sup>(١)</sup>.

ومما يجسد دقته في البحث، وحرصه على مواكبة جديد العصر الفاعل، ليس في مجال الأدب والنقد فحسب، ولكن في المجال الإنساني المعرفي العام، بحثه عن النموذج والقدوة فيمن يكتب عنهم، ليقدم الشخصية التاريخية التي لم تواجه فقط مشكلات عصرها السياسية والحربية، ولكن ((تصرف همها الأكبر لدفع الحركة العلمية بما وهبها الله من حرية الفكر، واتساع الأفق والمجبة والتقدير للعلم والعلماء))<sup>(٢)</sup>. وذلك في كتابه عن ((المأمون: الخليفة العالم))، وبذلك يقدم لشبابنا وعلمائنا وحكامنا القدوة الحسنة، التي تعلي من شأن العلم والعلماء.

ولا يستطيع الإنسان أن ينسى متابعتة لكثير مما ينشر بالصحف والمجلات العربية من مقالات، وما يذاع من أحاديث، وحرصه على التعليق والتقويم والتسديد<sup>(٣)</sup>.

(١) المرجع السابق نفسه ص ٤.

(٢) انظر: د. محمد مصطفى هدارة. المأمون: الخليفة العالم، سلسلة أعلام العرب ١١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م ص ٣.

(٣) انظر على سبيل المثال: مقالات في النقد الأدبي ص ٢١، ٢٩، ٣٣.

وإذا استعرضنا مترجماته، فسوف نجد أنها تؤكد كل التوجهات السابقة التي أشرنا إليها، خاصة وأن تواريخ إصدارها، تكشف عن مؤازرتها لهذه التوجهات؛ فسيطرة الاتجاه الإسلامي على كتاباته، يؤكد ويؤازره ترجمته لكتاب ((الإسلام)) لألفريد جيوم<sup>(١)</sup> الذي ترجمه في مطالع حياته الثقافية بالاشتراك مع الدكتور شوقي السكري خاصة، وهما يقومان بعض آرائه في تعليقاتهما عليه، لتوضيح وجهة نظر الإسلام السوية المشرقة.

وأما مترجماته: ((قاهر القطب الجنوبي)) لرتشار بيرد<sup>(٢)</sup>، و((ملفل الملاح الصغير)) لجين جولد<sup>(٣)</sup>، و((عالم القصة)) لبرنارد ديفوتو<sup>(٤)</sup>، فهي جميعاً تؤكد توجهاته الفنية في مجال الأدب ونقده، خاصة القصة التي أولاهها جانباً مهماً من كتاباته، ظهر فيما أشرنا سابقاً إليه من بحوثه في هذا المجال.

ثم تأتي ترجمته ((ليوميات هيروشيما))<sup>(٥)</sup> بالاشتراك مع د. محمد عبد الفتاح هدارة، كاشفة عن توجهه المعرفي الإنساني العام، وهو لا ينفصل عن مجمل اهتماماته، بل يتصل بها ويدعمها.

(١) انظر: الإسلام. ألفريد جيوم، ترجمة د. محمد مصطفى هدارة ود. شوقي السكري، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨ م.

(٢) انظر: قاهر القطب الجنوبي لرتشارد بيرد، ترجمة د. محمد مصطفى هدارة. نشر مكتبة الخانجي القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

(٣) انظر ملفل الملاح الصغير لجين جولد. ترجمة د. محمد مصطفى هدارة. نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٢ م.

(٤) انظر: عالم القصة لبرنارد ديفوتو ترجمة د. محمد مصطفى هدارة. نشر عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٩ م.

(٥) انظر: يوميات هيروشيما تأليف هاشيا، نشر المركز الطبي بدسوق سنة ١٩٥٨ م.

بل إن تواريخ نشر هذه المترجمات وتتابعها الزمني، ليؤكد بدايته الثقافية والفكرية القوية، الداعمة لنشاطاته الفنية والمعرفية، التي تجلت فيما تلاها من مراحل حياته العلمية.

ومما سبق يتضح أن الاتصال بالتراث، والاهتمام بالمتغيرات، قد شكلا فكر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة، مما جعلني أرى فيه صورة للأمم في هضتها.

ويصبح من تحصيل الحاصل بعد ما عرضناه، أن نشير إلى أن بحوثه شملت كل فنون الأدب: الشعر والقصة والمسرحية والسيرة والمقالة، وغيرها، وكل عصور الأدب المختلفة، لكن اللافت للنظر خلال ذلك حقاً، هو تجلي التوجهات الإنسانية والقومية والمحلية فيما يعالج من قضايا، دون تعصب، لأن هذه الدوائر المعرفية متكامل وتتصل وتتواصل في فكره وثقافته، بما يكشف عن عالم مفكر ناقد على مستوى من أرقى المستويات المعرفية، في عصر أصبحت فيه المعرفة معيار عظمة التقدم الإنساني. ولعل إحدى الجهات الواعية التي تهتم بالعلم والعلماء، وهي ترصد الجوائز الملائمة، تقدر فكر هذا الرجل فتمنحه إحدى جوائزها، خاصة وقد حال بينه وبينها في حياته أنه كان عضواً عاملاً في كثير من هذه الجهات التي تمنح الجوائز تقديراً للعلم والعلماء، فرحمة الله عليك يا أستاذنا الدكتور هدارة، وسلام منه تعالى وبركات: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿١١﴾

[النساء: ٦٩/٤].



## معارج حياة

بقلم: د. محمود توفيق محمد سعيد\*

على شاطئ البحر الهادر بموجه المتلاحق، نبتت نبتة امتدت أصولها الأولى إلى ذلك الوطن السليب، أرض الفتوح: الأندلس الخصب، وأصولها الأخرى إلى تونس الخضراء، فاستقرت تلك الأصول على شاطئ الإسكندرية.

ذلك السفر البعيد الذي منيت به تلك الأصول الأولى، وذلك الاستقرار الخالد على شاطئ البحر الهادر، قد التقيا في تلك النبتة التي ظهرت في مفتتح آخر العقد الثالث من القرن العشرين، في العاشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ثلاثين وتسع مئة وألف من ميلاد المسيح عليه السلام.

في ذلك المناخ الماطر شأبيب الرحمة، على ذلك الشاطئ كان الميلاد الجامع في ذلك القادم عطاء أندلس الشعر وتونس العلم<sup>(١)</sup>.

ألقت خيرة هدأرة (الوالد) التجارية في قلبه حين قدم الوليد ((محمد)) أن هذا أئمن صفقة يعقدها، وأخلد تجارة يزاوها، يتاجر بها مع ربّه -عزّ وجلّ- ليربح ذكراً ماجداً، يتردد بوليد (محمد) على كل لسان، بل على أظهر الألسنة وأكرمها عطاء: ألسنة أهل العلم وطلابه، فألقى بفليذة كبدة (محمد) في محراب العلم.

\* كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة.

(١) مجلة الهلال: عدد أغسطس (آب) ١٩٩٤، ص ١٧٤.

أيقن هدارة (الأب) أن تجارة أبيه قد اجتاحتها عوادي الحرب العالمية الأولى، فلم تبق لهم إلا اضطرابه التخلي عن مواصلة الأسفار في بحار العلم للأسفار في عالم التجارة، فكان حسن الاعتبار هادياً أن يتاجر بوليدته (محمد) في أسواق الذكر الخالد، فأقامه على طريق العلم يغدو فيه ويروح، فكان مفتتح أبواب هذا الطريق ترتيل الوليد (محمد) الذكر الحكيم، فحفظ منه قدراً كبيراً، فكان لمحمد منه نصيب موفور، منحه من طلاقة اللسان والقلم وجرأة القلب وعزيمته، ونافذ العقل، وهياًه لأن يكون على النحو الذي جعله صاحب قصب السبق ما عاش في الناس.

تدرج عالمنا (هدارة) في مدارج العلم، متصاعداً في مدارس التعليم، وشاء الله عزّ وجلّ أن يعاصر (هدارة) الوالد الحرب العالمية الثانية، وهو يتاجر بولده (محمد) في عالم العلم، مثلما عاصر هدارة الجد الحرب العالمية الأولى وهو يتاجر بدرهمه وديناره.

ويا بُعد ما بين عقبي التجاريتين!!!

وكان لزاماً أن يصون الوالد فلذة كبده وكثر تجارته: ولده محمداً من عادات الحرب العالمية الثانية، من بعد ما أغار الألمان على الإسكندرية، وكان فطرة الأب قد هدته أن يكون المستقر في هجرته من الإسكندرية على مقربة من معقل من معاقل العلم، ومدار من مدارات التجارة: مدينة ((طنطا))، الزاخرة بالحركة العلمية في المسجد الأحمدى ومدارسها وبالحركة التجارية في أسواقها، ليتحقق لمحمد وإخوته غداء الأرواح والأشباح معاً، فكان قرار الأسرة في ((طنطا)).

وبقى (محمد) يغدو ويروح فيها متعلماً، حتى وضعت الحرب العالمية أوزارها، فحنت الأسرة إلى معدنها الرحيب الحبيب على شاطئ البحر الهادر موجّه، الكريم عطاؤه، العليل نسيّمه، ومحمد ما يزال طالباً في المرحلة الثانوية، فكان له أن يحوز شهادتي الثانوية والتوجيهية من موطنه الحبيب: ((الإسكندرية))<sup>(١)</sup>.

وبرغم من أن عشق العربية والعلوم الإنسانية أخذ بنفس عالمنا (هدّارة) وهو في تلك الحقبة، إلا أنه يختار في الشهادة التوجيهية (شهادة إتمام الدراسة الثانوية) شعبة العلوم لا شعبة الآداب ليتخصص بها، وهو الذي كان محمداً هدفه في الدرس الجامعي، ومقيماً له في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب.

كأني بفطرة عالمنا (هدّارة) قد هديت إلى أنه القديرُ الجديرُ بأن يجمع الحُنين من المنهج العلمي في الدرس بالتحاقه بشعبة العلوم في الشهادة التوجيهية، فيكتب سمة الموضوعية في التفكير، ونفذ التحليل، وسبر الأغوار، والرغبة عن السطحية، بالتحاقه بشعبة اللغة وآدابها في كلية الآداب، فيكتب سمة الإنسانية ورهافة الحسّ، فالتقى فيه رافدان: موضوعية التفكير العلمي، وذاتية الحسّ الإنساني، وذلك ما كان الغالب على عالمنا (هدّارة) في حياته العلمية والشخصية، فكان الأصيل المعاصر.

وفي كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، كان مضمار التسابق العلمي، وكان عالمنا (هدّارة) صاحب قصب السبق، مما حدا به أن يصطفي نظام ((الامتياز)) في تعلمه فيها، القاضي بأن يتخذ الطالب التفوق سنناً يعدو على لاجبه، فكان له

(١) المصدر السابق ص ١٧٦.

القدح المعلى، وجاز درجة ((الليسانس)) عام (١٩٥٢م) بتقدير ((ممتاز))، وكان المأمول تعيينه ((معيداً)) في قسم اللغة العربية، غير أن ذلك الجواد الراجح في مضمار التسابق العلمي، لم يك يحسن التنافس في الانضواء تحت سلطان أحد، فلم يملك ما يكون له وسيطاً لينال حقه الذي اكتسبه بجهده وتميزه، فكان قانون القرب من ذي السلطان غالباً، فلم يعين ((معيداً))، ولم تشأ أصوله ومنهاج تربيته أن تبيح له انتزاع حقه بسفح ماء عزته وكرامته<sup>(١)</sup>.

وكان تعيينه معلماً في مدرسة إعدادية بالإسكندرية، فرضي بذلك عملاً ممزوجاً بعزّة نفسه وكرامته، ولكن لم يكن ذلك حاجزاً له عن الالتحاق بالدراسات العليا، فسجّل بحثه لنيل درجة الماجستير في الأدب العربيّ ونقده، مباشرة دون درس تمهيديّ من أنه من طلاب ((الليسانس)) الممتازة القاضية بدخول الحائز بها مضمار البحث مباشرة، وكان اختياره (تحقيق ديوان أبي نواس) مجال عمله. ومضى الفتى يُعلّم في مدرسته أبناء مدينته، يقومُ ألسنتهم وعقولهم، ويحقق ديوان أبي نواس.

ومضى وفي عقله ما مُني به من ظلامه، ولكنّ عدلَ ربّه -عزّ وعلا- لم يتركه فريسة ظلم أعراف عصره، فقدّر له أن تمتد رحلته العلمية خارج أسوار جامعة الإسكندرية قليلاً، فتعلن جامعة إبراهيم باشا (عين شمس) بالقاهرة عن وظيفة ((معيد)) وتقدم الفتى وتسابق مع أقرانه، فكان الحائز على الصدارة التي لم يرتض بها بديلاً في أيّ مضمار، وعيّن معيداً بكلية الآداب في جامعة عين شمس.

(١) المصدر السابق ص ١٧٧.

وتأتي الحجر الثانية من حبه المكين: الإسكندرية إلى القاهرة حيث الحياة الصاخبة، والغربة والاعتراب عن الأهل والأحباب.

والتقى الفتى (محمد) مع أقرانٍ في ((جامعة عين شمس)) تحت سلطان رئيس قسم اللغة العربية ((مهدي علام)) وهو ما يزال يعمل في بحثه الذي سجله في كليته بجامعة الإسكندرية (تحقيق ديوان أبي نواس) ولكن ((مهدي علام)) لم يرض أن يعمل الفتى ((محمد)) في جامعة، ويتعلم في أخرى، ففضى أن يترك ((محمد)) بحثه المسجل في جامعة الإسكندرية، وأن يعمد إلى العمل تحت إشرافه هو في جامعة ((عين شمس))، ونحا به نحواً آخر أقامه في دائرة البحث اللغوي، وصارفاً له عن عالم ((النقد الأدبي))، وفرض عليه العمل في بحث موضوعه: ((حروف الجرّ في القرآن الكريم))<sup>(١)</sup>.

وكان بين اختيار موضوع ((حروف الجر)) وبين موقف الفتى ((محمد هدارة)) وموقف أستاذه ((مهدي علام)) منه مشاكلة لطيفة: فحروف الجر معانيها قائمة بغيرها لا بذاتها، والفتى ((محمد)) يأبى أن يكون وجوده قائماً بغيره. ولم يكن بُدّ من أن يخضع الفتى ((محمد هدارة)) - في أول الأمر - لمعاد رئيسه، ولكنه لم يخضع لمنهاجه في التعامل مع الآخرين، لتنافره مع ما طُبع عليه من اعتزاز بالنفس في غير ما استكبار، ومن تواضع في غير ما استصغار، وأدرك رئيسه ((مهدي علام)) استعصاء الفتى ((محمد هدارة)) على أن يسير على دربه، فنبتت شجرة الخلاف بينهما، فعنى بعض الأقران بسقيها بالنميمة والفتنة، فتأجج صدر الرئيس بالضيق من تلميذه ((محمد هدارة))، وما أن اعتلى كرسيّ عمادة

(١) المصدر السابق ص ١٧٧-١٧٨.

كلية الآداب في جامعة ((عين شمس)) حتى عمل على فصل الفتى ((محمد)) من وظيفته، وكاد الفتى يهوي، فقيض الله -عزّـ وعلا- له الأستاذ ((محمد سعيد العريان)) فأوصله إلى وزير التعليم، فقص عليه ما كان، فجعل الوزير قرار الفصل قرار نقل، وأذن له في أن يسعى إلى كلية ينقل إليها، فلم يقدر له ذلك، فنقل إلى ديوان وزارة التعليم بالقاهرة، ولكنه رغب عن أن يكون موظفاً مكتيباً، فعين مدرساً في مدرسة ((الخدوي إسماعيل)) الثانوية بالقاهرة، ثم نقل إلى مدرسة ((الرملة)) الثانوية بالإسكندرية، وعاد إلى الإسكندرية مخلفاً من ورائه في القاهرة بحث ((حروف الجر في القرآن الكريم)) ولكنه لم يجد في نفسه شوقاً إلى بحثه الأول ((تحقيق ديوان أبي نواس)) فانصرف عنهما معاً.

وكان فطرته هُديت إلى موضوع يشاكل حاله مع الحياة، فاصطفى موضوع ((مشكلة السرقات في النقد العربي)). وكان فيه إيجاء من طرف خفي إلى مشكلة سرقة حقه، ومحاولة اغتصاب عزته، وإبائه في الحياة الجامعية، ومضى يسير غور بحثه، غير ناسٍ أنه المسروق حقه في جامعة الإسكندرية، وجامعة عين شمس، فكان له ما أراد فحصل على درجة الماجستير سنة (١٩٥٧) بتقدير ((ممتاز))، وكان له أيضاً من بعد هذا إتمام بحثه للدكتوراه ((اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري)) عام (١٩٦٠م) حائزاً به درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى.

وكان في حقبة غوصه على هاتين الدرتين قد ترك العمل في وزارة التعليم بالمرحلة الثانوية، ليعمل مستشاراً ثقافياً في جامعة الدول العربية، طوّف خلالها في بلدان عربية وغيرها كثيراً، والتقى بكثير من أعلام الثقافة العرب وعلمائهم.

ولما كان مبرزاً ببحثيه للماجستير والدكتوراه استحثة العارفون قدره في جامعة الإسكندرية، أن يلتحق بالعمل بعضو هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، فعاد إليها من بعد هجرة، حمل عليها حملاً، لولا أن قومها أخرجه منها ما خرج.

خرج منها صغيراً ينشد العلم، وعاد إليها معلماً طلابها العلم القائم على أصول راسخة في فكرنا العربي الإسلامي، والسابق إلى آفاق المعاصرة المتسامية على التحلف والتطفل.

ومضى علمنا هدّارة يُعلم وينقب، باحثاً عن المعرفة، ويترقى في مدارج الترقى العلمي، فيرتقي درجة أستاذ مساعد عام (١٩٦٧م) ثم يتسلم ذروة شرف السلم أستاذاً عام (١٩٧٢م).

كذلك أضحى ناقدنا (هدّارة) علماً يقتعد ذروة طبقات النقاد في جامعته، ولم يك هذا مغرباً له أن تستعذب لذة الإخلاد إلى ما بلغه، بل أغراه ذلك بأن يبحث عن الحقيقة في كل مجال عاش فيه، ولم يرتض لنفسه أن يكون حبيس جامعة الإسكندرية، وكأنه تعلم من موج البحر الذي نبت وأزهر وأثمر على شاطئه حب السفر بالخير إلى بلدان كثيرة، فشارك وهو مدرس بكلية الآداب عام (١٩٦٦) في تأسيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة ((أم درمان الإسلامية)) يقول: ((وقد أفدت من إقامتي بالسودان، فعكفت على دراسة أدبها وأخرجت كتابي (تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان) كما أعددت دراسة كاملة عن تطور القصة السودانية لم أنشرها إلى الآن، وكانت لي مقالة نقدية

أسبوعية في جريدة (الصحافة) كانت تثير مناقشات واسعة لما تتسم به من صراحة وبعد عن المحاملة والسلبية<sup>(١)</sup>.

وكأنه بذلك كان يقضي بعض حق الأخوة الوثقى لأشقائنا في السودان، ولم يكفه هذا، بل أقام في ((الرياض)) أستاذاً في جامعتها، يقول:

((وطلبتني جامعة ((الرياض)) مع الزميل العزيز الأثير إلى نفسي: الدكتور ((شكري عياد)) في عام (١٩٧٢)، وأمضينا في التدريس بها خمس سنوات متصلة، ووضعنا مناهج الدراسات العليا بقسم اللغة العربية، وبدأنا التدريس لأول دفعة من طلاب وطالبات الدراسات العليا، واشتركتنا معاً ضمن زملاء آخرين في تأليف كتب طلاب المرحلة الثانوية في فروع اللغة العربية وآدابها، وكانت لي مناقشات نقدية في صحيفة (الرياض) على وجه الخصوص، وفي مجلات وصحف مختلفة<sup>(٢)</sup>.

ويعود ناقدنا من الرياض إلى جامعة الإسكندرية ليحمل مسؤولية قيادته في كليته، فيعين وكيلاً لكلية الآداب لشؤون الدراسات العليا والبحوث، من بعد أن خاض منافسة قيادية ليتولى عمادة الكلية، ولكنه لم يكن له -لأول مرة- قصب السبق، فلم يكن يملك ما يقتنص به العدد الأعلى في انتخابات العمادة. فإنّ الفوز في مثل تلك المنافسة لا يعتمد على المكانة العلمية والإدارية، بقدر ما يعتمد على مقومات أخرى هي أبعد ما تكون عما طبع عليه علمنا (هدارة)، ولعل صرامته العلمية، وصراحته في الجهر بآرائه، كانت الحاجز المنيع بينه وبين فوزه في مثل تلك المنافسات الإدارية.

(١) المصدر السابق ص ١٨٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٣.

وإذا لم يكن عميداً لكلية الآداب بالإسكندرية التي نبت فيها، فإنه قد حُمِلَ على أن يتولى عمادة آداب جامعة ((طنطا)) انتداباً، فلم ينكص، وكأنه يقضي بهذا بعض حق لطنطا عليه، فقد غدا وراح إلى مدارسها حين هاجر به أبوه إليها في أثناء الحرب العالمية الثانية، يقول: ((وأعتقد -برغم قصر المدة- أنني تركت في الكلية آثاراً لا يزال يذكرها أعضاء هيئة التدريس والعاملون بالكلية))<sup>(١)</sup>.

ويطوف عالمنا بلداناً عديدة عربية وغير عربية، فعمل أستاذاً زائراً في السعودية، والسودان، والأردن، والكويت، ولبنان مرات عديدة، وزار جميع البلاد العربية الأخرى زيارات علمية، وعمل أستاذاً زائراً بمعهد اللغات الأجنبية بشنغهاي في الصين، فطوف في أنحائها مدة ثلاثة أشهر، فاتصل بمسلمي الصين، وزار ((اليابان)) فاطلع على مراكز الدراسات العربية في جامعاتها، وزار الولايات المتحدة الأمريكية، وكثيراً من بلدان أوروبا، فاتصل بكثير من أساتذتها ومستشرقها من أمثال ((ستيفان فيلد)) و((إيفالد فاجنر)) و((فؤاد سزكين)). وألقى عديداً من المحاضرات والبحوث في جامعات ومنتديات عديدة مختلفة.

وحاز كثيراً من الجوائز منذ كان طالباً في المرحلة الثانوية، فقد حصل على جائزة التفوق الأدبي في اللغة العربية عام (١٩٤٨) وهو في الثامنة عشرة من عمره، غير أنه كما يقول عن نفسه: (لا بُدُّ أن أعترف بأنني لست من القادرين على حصد الجوائز التي تتدخل في منحها عوامل مختلفة، إذا نحى المعيار العلمي الأكاديمي البحث، أو الأساس الموضوعي أياً كان، فشخصيتي غير المهادنة أو المدججة، التي تصادم في الحق وفي شجاعة رأي لا يتمتع بها كثيرون، ربما أبعدتني

(١) المصدر السابق ص ١٨٣.

عن بعض الجوائز، أو بعض المناصب، التي يُحسِن تصيدها ذوو الملوك والمداهنة، والذين يفرضون أسماءهم على وسائل الإعلام، فيما يشبه أن يكون تحالفاً سرياً خفياً<sup>(١)</sup>.

لا يتأتى لنا رصد كل أسفاره العلمية ومشاركاته الثقافية وما كرم به، فذلك أمر مديد مجيد.

ويبقى لنا منه الكثير والكثير، وأتمن ما يبقى بعد منهجه في تربية وإعداد طلاب العلم في رحاب الجامعة، ما أودعه خزائن قلوبنا وعقولنا من البحوث والمؤلفات والمقالات العلمية والثقافية، ومن ينظر في مؤلفاته العلمية التي تجاوزت ثلاثة عشر مؤلفاً، يلحظ أن نصفها تتجلى فيه الأصالة العلمية التراثية في متجهاته التأليفية.

فه من بعد رسالتيه للماجستير والدكتوراة كتاب في الشعر العربي في العصر الجاهلي، وآخر في القرن الأول الهجري، وكتاب عن الخليفة المأمون، وكأنه وجد فيه صورة من نهجه الجامع بين أصالة العلم ومعاصرة الثقافة. فقد كان المأمون راغباً في أن يجمع إلى قومه أصالة العلوم الإسلامية، ومعاصرة الثقافة الأعجمية، فكانت حركة الترجمة على يديه، وهذا، ما جعل عالمنا هدارة يعنى منذ كان طالباً في المرحلة الثانوية بالترجمة، فترجم رواية (إيفاهو) التي كانت مقررة عليه، وقدم لنا من بعد عدة كتب ترجمها منها: (قاهر القطب الجنوبي) لرتشارد بيرد، و(ملفل الملاح الصغير) سيرة حياة الروائي الأمريكي ((هرمن ملفن)) التي كتبتها ((جين جولد)) و((الإسلام)) لألفريد جيوم.

وإذا ما كانت نصف مؤلفاته في مجال الموضوعات التراثية، فإن نصفها الآخر كانت موضوعات معاصرة متعددة الاتجاهات، في النثر والشعر في مصر وغيرها، من نحو كتابه (تيارات الشعر المعاصر في السودان) و(الشعر العربي المعاصر إلى أين).

وكذلك كانت له عناية بتحقيق التراث، ولعل رغبته التي ظهرت في اختياره أول موضوع لينال به الماجستير (تحقيق ديوان أبي نواس) دون أن يتمه تكشف عن عنايته بهذا العمل، وإذا كان بعض المشتغلين بتحقيق التراث الآن لا يعدو أحدهم أن يكون ناسخاً أو وراقاً، ولا يعرف من أصول التحقيق وآدابه أدناها، بل إن بعض دور النشر التجارية لتسند مثل هذه الأعمال الجليلة إلى صغار طلاب الجامعة، ثم تعلن أن الكتاب حققته لجنة من العلماء، إذا كان هذا، فإن عالمنا ((هدارة)) ليعرف للتحقيق قدره، فقدم لنا تحقيق كتاب (سرقات أبي نواس) لمهلل بن يموت، وكتاب (ضرائر الشعر) للقزاز القيرواني، وكتاب (نهاية الإيجاز) للرازي.

أما بحوثه المنشورة فهي جدّ كثيرة تتجاوز الخمسة والعشرين بحثاً، يغلب عليها المعاصرة، فشأن المؤتمرات والندوات أن تكون موضوعات بحوثها كذلك.

وقد كان للأدب الإسلامي نصيب موفور من بحوثه منها:

- معالم الأدب الإسلامي.
- الأدب الإسلامي بين جمال الفن وحدود الالتزام.
- موقف الأدب الإسلامي من المذاهب الأدبية المعاصرة.
- الالتزام في الأدب الإسلامي.

وهذا يكشف شيئاً من منهج عالمنا (هدارة) في الجمع بين أصالة العلم، ومعاصرة الثقافة الإنسانية.

وكذلك كانت حاله في البحوث العلمية التي أشرف عليها في مرحلتي الدكتوراه والماجستير بالدراسات العليا.

وقد كان للموضوعات التراثية النصيب الأوفر، ولا سيما ما يتعلق بأدب ونقد القرن الثاني الهجري، والأدب الجاهلي كذلك.

وقد كانت موضوعات هذه البحوث من التنوع ما يدل دلالة باهرة على عظيم اتساع آفاق المعرفة والخبرة العلمية في إعداد البحوث والإشراف عليها. وقد غدا كثير من الباحثين الذين أشرف على دراساتهم أساتذة في الجامعات العربية، يربون أجيالاً أخرى على مثل ما رباهم عليه عالمنا (هدارة).



## أ.د. هدارة: رؤية سكندرية

بقلم أ.د محمد زكريا عناني\*

إذا كان اسم محمد مصطفى هدارة قد ارتبط بصورة أساسية بمجموعة من المؤلفات الكبرى، مثل: مشكلة السرقات في النقد العربي، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، وتيارات الشعر العربي المعاصر في السودان؛ فإنه -من ناحية أخرى- ارتبط بشكل عضوي بالإسكندرية، حتى أصبح من أبرز ركائزها الثقافية في الجامعة، وفي قصور الثقافة، وفي البرامج الثقافية بالقناة الخامسة، وفي أنشطة الجمعيات الثقافية بها، وعلى رأسها هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ومن خلال الاتصال المباشر بأدبائها وفنانيها ومثقفوها.

وهذه الكلمة تحاول أن تسجل جانباً من إسهامات ((الأستاذ)) في خدمة الحياة الثقافية بالإسكندرية، وهي من الكثرة والغزارة والتنوع بحيث يحتاج تحليلها إلى مدى أرحب مما نحن فيه بكثير.

### الشعر والشعراء

ففي مجال الشعر نشير إلى ما كتبه عن ديوان ((أنشودة الطريق لكمال نشأت))<sup>(١)</sup>، وإلى دراسة حول ((شعر عبد المنعم الأنصاري بين التراث

\* كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

(١) دراسات في الشعراء العرب المحدثين ٢/٣٥-٥٧، الإسكندرية ١٩٧٤.

والمعاصرة..))<sup>(١)</sup>، وإلى حديثه عن كل من عبد العليم القباني<sup>(٢)</sup>، وعلي الباز<sup>(٣)</sup>، وأحمد السمرة<sup>(٤)</sup>، ومحمد برهان<sup>(٥)</sup>، وإسماعيل عقاب<sup>(٦)</sup>، وحميدة عبد الله حميدة<sup>(٧)</sup>، وحامد نفاذي<sup>(٨)</sup>، وربيعة عبد العزيز<sup>(٩)</sup> إلخ..

وتستطيع أن تلمح في يسر، أن منطلق الرؤية عند ((الأستاذ))، يكمن في المعيشة العميقة لحركة الإبداع الشعري، بغض النظر عن انتماءات أصحابه، فالذي يعنيه في المقام الأول هو الطاقة الفنية للشعراء، ثم تأتي بعد ذلك اعتبارات أن يكون تقليدي الديباجة مثل محمد برهان، أو صاحب نبرة متمردة حارة كالأنصاري، وهو يتابع جهود الشعراء الذين ارتبطوا بالشكل الشعري المؤلف، من أمثال القباني والباز والسمرة وإسماعيل عقاب، ولكنه يحتفي أيضاً بأصحاب تجارب الشعر الحر مثل نفاذي ومثل حميدة الذي يكتب عنه:

(١) السابق ١٢٦-٩٥/٢، والبحث منشور قبلاً في الكتاب التذكري عن عبد المنعم الأنصاري الذي نشرته هيئة قصور الثقافة - وشارك فيه كل من د. هدارة وعبد العال القباني ود. محمد زكريا عناني، القاهرة ١٩٩١.

(٢) دراسات في الشعراء العرب المحدثين ٣٢٩/٢-٣٤٨.

(٣) حلقة تلفزيونية عن شعر د. علي الباز.

(٤) دراسات في الشعراء العرب المحدثين ٢١٩/٢-٢٣٦.

(٥) مقال عن الطبيعة في شعر محمد برهان، سيأخذ طريقه للنشر في مجلة الكلمة المعاصرة بالعدد الرابع.

(٦) دراسات في الشعراء العرب المحدثين ٣٤٩/٢-٣٥٤.

(٧) دراسات في النقد الأدبي، بين النظرية والتطبيق، الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٣٠٩/٣٢٢.

(٨) راجع حامد نفاذي: امرأة في حنة بمقدمة د. هدارة، الإسكندرية ١٩٨٥.

(٩) مقال بجريدة الأهرام عن التجربة الشعرية عند ربيعة عبد العزيز.

((ولغة الشاعر تدفعني للحديث عن موسيقى شعره، فهو قد آثر شعر التفعيلة، واستخدم ألواناً مختلفة منها، تتناغم مع تجربته صعوداً وهبوطاً وحدة ورخاوة، ونجده في بعض قصائده يمزج بين تفعيلات متداخلة، في محاولة تجريبية، لكي لا تكون التفعيلة الواحدة إيقاعاً ثابتاً نمطياً، ولكن الحق الذي ينبغي أن يقال: إن الشاعر في قصائده التي التزم فيها التفعيلة الواحدة، قد ارتفع بالقيمة التعبيرية والإيقاعية، بحيث تميزت هذه القصائد على التجارب المشتركة التفعيلات، كما نحسّ أن القوافي قد تسابقت إليه في إيقاع جميل في تلك القصائد ذاتها، بينما توارت في معظم تجاربه الأخرى، و((الأستاذ)) يعجب بالتفاعل الحميم بين الإنسان والطبيعة عند حميدة في قصائده، التي كتبها عن قريته (مرزا) -وتقع في شرق الإسكندرية-، ويستهو به أن الصور عنده ((ليست حلية بلاغية يخلع بها على الكلام رونقاً، كأنها رداء مليء بالتهاويل والنقوش، بل هي جزء من نسيج التجربة الشعرية، تنبع من فكر الشاعر ومن أعماق نفسه))<sup>(١)</sup>.

ما الذي جعل ((الأستاذ)) يكرس كل هذه العناية، كل هذا الفيض من التأمل والتحليل للديوان الأول لشاعر شاب ليس له شيء من الشهرة؟ الإجابة يجب أن ينظر إليها في ظل هذا الفيض من الشواغل التي كان يخوضها، مما كان من البديهي أن يصرفه عن أمر حميدة، ومن هم على شاكلته، فضلاً عن أن عوامل كثيرة كان من المنطقي أن تجعله يقصر اهتمامه على الأشكال الشعرية ((العريقة))، لكن حسّ الناقد المؤمن برسالة الفن كانت له الغلبة، ومن ثم كانت هذه الوقفة أمام شعراء الإسكندرية بصورة عامة، وأمام الشعراء الناشئين أو الذين

(١) دراسات في النقد الأدبي، ص ٣٤٩.

عاشوا بعيداً عن الضوء بصورة خاصّة، وهذا الذي قلناه عن حميدة، ينطبق إلى حدّ ما على ما كتبه عن حامد نفاذي -الذي رحل عن دنيانا مؤخراً-، كما ينطبق على ربيع عبد العزيز صاحب دواوين خمائل الريم، وسريرة المحداف، وسؤال في زمن السامري إلخ..

### القصة والرواية

ولم يكن نصيب القصة والرواية بأقل من نصيب الشعر. ومما كتبه الأستاذ في هذا الصدد، دراسة هامة عن ((الاتجاهات الجديدة في القصة المكندرية القصيرة المعاصرة))<sup>(١)</sup>، وعن مجموعة سعيد سالم ((قبلة الملكة))<sup>(٢)</sup>، وكذلك مجموعة سعيد بكر ((أحزان الرجل القديم))<sup>(٣)</sup> و((طيور بلا وطن)) لمجدي عبد النبي<sup>(٤)</sup>، كما تناول بالدراسة رواية د. علي البارودي ((حدث في رحلة الخريف))<sup>(٥)</sup>، ورواية محمد الجمل ((من كفر الأكرم إلى بارليف))<sup>(٦)</sup>، فضلاً عن أنه كتب دراسة لرواية مصطفى نصر ((الجهيني))<sup>(٧)</sup>، التي صدرت عن سلسلة ((المواهب)). والطريف أن الطبعة الأولى منها حملت على غلافها -بدلاً من اسم المؤلف- أنها تأليف محمد

(١) دراسات في النثر العربي الحديث، الإسكندرية ١٩٩٢، ص ٢٨١-٢٩٨.

(٢) السابق، ص ٣١١-٣١٥.

(٣) السابق، ص ٣١٦-٣٢١.

(٤) من سلسلة ((إشراقات أدبية)) العدد ١٤٣ وراجع شهادة ((الدكتور مصطفى عبد الشافي عن

رعاية د. هدارة لمحاولاته القصصية)) (لم تنشر بعد).

(٥) دراسات في النثر العربي الحديث ص ٢٦١-٢٧٠.

(٦) السابق، ٢٥٨-٢٦٢.

(٧) مقدمة رواية الجهيني، نشر المركز القومي للفنون والآداب (سلسلة المواهب) القاهرة ١٩٨٤م.

مصطفى هدارة، مما أدى إلى رواج مفاجئ لهذا العمل<sup>(١)</sup>، إلى أن تمّ تدارك الخطأ، وسحبت النسخ المتبقية من هذه الطبعة، وتمّ تعديل اسم المؤلف على غلافها.

وقد كان ((الأستاذ)) من أوائل مَنْ كشفوا عن كتابات ((تيار الوعي))<sup>(٢)</sup> عند كلٍّ من محمود عوض عبد العال، ومحمد حافظ رجب، والعيد الورقي، وإدوار خراط، وحلل ما ارتكزوا عليه من رموز وإحالات، وتقطيع فكري وأسلوبى، وسقوط للحواجز بين الحلم واليقظة الشعورية، وبين الوعي واللاوعي، والظاهر والباطن، وما يؤدي إليه ذلك من تعدد الدلالات للعمل الأدبي الواحد<sup>(٣)</sup>.

ومن الضروري التنويه بما كرسه ((الأستاذ)) من وقت للكتابة، حتى عن أعمال بعض الأدباء الناشئين، ولم يكن صنيعه مجرد تشجيع روتيني، كما يحدث في معظم الأحيان، وإنما جاءت كتاباته غوصاً عميقاً في صميم محاولاتهم، ولعل أوضح مثال على ذلك، ما قدمه من مجموعة ((أحزان الرجل القديم))، التي يعرض لإحدى أقاصيصها بقوله: وفي الأقصوصة (الإرث) آخذ على القاص موضوع التفسير. القاص ليس مطلوباً منه التفسير أبداً، نحن معه في الإيحاء والدلالة الشاعرية للكلمة في الرسم بالصورة، لكن التفسير يخرج الأقصوصة عن جمالها الفني.. ثم يحدد عناصر الجودة في هذه المجموعة، والتي تتمثل في أن واقعية هذا القاص ((ليست الواقعية التسجيلية، لكن الواقعية الإنسانية، إذ يلتقط مشاهد من

(١) من مقال لمصطفى نصر عن أثر د. هدارة في تكوينه الروائي (لم ينشر بعد).

(٢) راجع مقالة: اتجاهات جديدة في القصة السكندرية المعاصرة، وأيضاً كتاب د. محمود الحسيني:

تيار الوعي في الرواية المصرية المعاصرة، القاهرة سنة ١٩٩٧م.

(٣) من مقالة اتجاهات جديدة، ضمن كتابه: دراسات في النثر العربي الحديث ٢٩١.

الحياة من مواقف درامية حية، يلتقطها بذكاء، وكما نقول: إن القصة القصيرة عبارة عن شريط صغير ضيق، لقطة واحدة، وهذه اللقطة يركز عليها القاص، وقد نجح سعيد بكر إلى حد كبير في هذه اللقطات، في معظم قصصه، كما أن شخصياته قليلة جداً، فهو يهتم بالحدث أكثر من اهتمامه بالشخصيات، وهذا أسلوب جيد في القصة القصيرة<sup>(١)</sup>، يكشف عن فهمه الصحيح لاتجاهاتها الجديدة.

وتبين دراسات د. هدارة عن الرواية السكندرية، مدى عمق استاذيته وقدرته الكاشفة عن الأعمال ذات المغزى، مثل حديثه المستفيض عن رواية محمد قاسم ((أشياء لا تملكها المرأة)) وتنويهه بإجادة الكاتب المراوحة بين الماضي والحاضر، في تداخل وتشابك يبعد بنا عن السرد النمطي، مع نقده للترعة التقريرية عنده، ومثل وقوفه المتأني أمام رواية ((الفيافي)) الصغيرة الرائعة لسعيد بكر (والتي استحق عليها جائزة الدولة التشجيعية في الرواية)، والإشادة ببراعته في استخدام الرمز استخداماً بارعاً في التعبير عن حركته النفسية، ومشاعره الداخلية، ومن ذلك الجمل القتل الذي ظل يتابع التغيرات التي طرأت على هذا الحيوان الهائل الذي صدمته سيارة، وانتهى إلى أن صار كومة مجهولة الهوية، وهو يرمز لنفسه التي قتلها الخواء والوحشة، وملأها الخوف من المستقبل، والوصول إلى تلك النهاية الحزينة أو الكومة المجهولة الهوية.

### من آفاق العطاء

لقد اعتنت الندوات والكتابات المختلفة عن د. هدارة، مما ظهر عقيب رحيله المباغت، بما قدم من كتب، وما كان له من تلاميذ ومعارك أدبية، ولا

(١) دراسات في النثر العربي الحديث، ص ٣٢٠.

شك أن الشخصيات الثرية بعطائها تتعدى جوانبها، بحيث يوجد على السدوم جديد يمكن أن يقال.

والشيء الذي ينبغي أن يسجل للأستاذ، أنه كان على وعي عميق بمدى مسؤوليته تجاه الواقع الأدبي الذي يعيش فيه، وكان لذلك حريصاً على أن يعيش الحياة الثقافية بالإسكندرية، بما يسمح بالجزم بأنه كان من أكثر أساتذة الجامعة فاعلية، أو على حدّ الكلمات التي جاءت في كتيب ((رواد غرب الدلتا)) - سلسلة رواد معاصرون، الصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة<sup>(١)</sup>.

((لا ريب في أن للإسكندرية موقعاً أثيراً في مكتب الدكتور هدارة، فهي مهد الطفولة، ومدارج الصبا، ومسارح الشباب، لذلك لم يكن غريباً أن يحتضن الدكتور هدارة الحركة الأدبية والثقافية بها، ويقدم الرعاية لأدبائها ومبديها شباباً وكهولاً وشيوخاً.. ويمضي بها قدماً مسدداً خطى الناشئة، ومضيئاً الطريق أمام الكبار بالنقد البناء والرعاية الحانية)).

ولعل مما ينبغي أن يوضع في هذا الاعتبار رئاسته لنادي القصة بالإسكندرية، وإشرافه أو مشاركاته في العديد من المؤتمرات الأدبية، التي تتصل بالإسكندرية وأعلامها، مثل مؤتمر محمود بيرم التونسي، الذي عقد بالإسكندرية وقدم فيه دراسات موسيقية حول مقامات بيرم التونسي<sup>(٢)</sup>، كما كانت له مشاركة فعالة

(١) انظر من منشورات الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة رواد معاصرون) رقم ١: رواد غرب الدلتا ص ٤٣-٥٣، وراجع أيضاً كتاب الرافي (العدد ١١): الدكتور محمد مصطفى هدارة، الأصيل معاصراً.

(٢) راجع: بيرم التونسي في ذكراه المتوية (الهيئة العامة لقصور الثقافة) القاهرة سنة ١٩٩٣ م.

في المهرجان الذي أقيم حول عبد الله النديم<sup>(١)</sup>، وحول الرواية في إقليم غرب الدلتا<sup>(٢)</sup>، والذي اعتبر من أهم الأحداث الثقافية بالمدينة، وطبعت أعمال هذا المؤتمر في كتاب ضم مجموعة من الدراسات الهامة، ولعل آخر إسهاماته أنه أشرف على الاحتفالية الكبرى التي تم فيها تكريم د. محمد زكي العشماوي<sup>(٣)</sup> -أمداً الله في عمره- وطبعت أعمال هذا الملتقى ضمن سلسلة ((الكتاب التذكري)).

وهكذا، فإن سجل العطاء زاخر، وقد أعطى الرجل للإسكندرية الكثير، ومن ثم فإننا نتوقع منها، وهي المدينة المعطاء، أن تصون اسمه، وتشمله بما هو جدير به من تكريم ووفاء، وتحافظ على تراثه الأدبي الغزير المتنوع، والذي لا تضم الكتب المطبوعة إلا جانباً محدوداً منه، بينما يبقى الجانب الأكبر مبعوثاً هنا وهناك، ما بين مقالات ولقاءات، وأحاديث إذاعية وتلفزيونية، وتقارير لم تنشر، مما ينبغي جمعه والحرص على حفظه من الضياع.



(١) راجع: عبد الله نديم: قراءات وأبحاث (الكتاب التذكري)، إصدار هيئة قصور الثقافة سنة ١٩٩٦م.

(٢) راجع أبحاث مؤتمر الإبداع الروائي في إقليم غرب الدلتا - إصدار هيئة قصور الثقافة كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٩٣م، بإشراف د. هدارة.

(٣) راجع: الكتاب التذكري الصادر عن هيئة قصور الثقافة سنة ١٩٩٧ بإشراف د. هدارة.

## دراسة في فكر الدكتور محمد مصطفى هدارة

للأستاذ الدكتور بدر أحمد ضيف\*

ليست هذه السطور ترجمة حياة، وليست هي كذلك تاريخاً لمسيرة علمية، لكنها دراسة في فكر عظيم ظل على عطائه المتجدد، حتى أصبح يشكل مدرسة في النقد والتحليل، نابعة من قيمنا وتراثنا، يستلهم فيها مسيرة الأدب على مختلف عصوره، ليعود إلينا وقد أحاط بالاتجاهات القديمة والحديثة في الفكر الإنساني.

عادة ما ترتبط المعرفة برؤى دقيقة منظمة، حتى إذا تفحصنا هذه الرؤى، تبين لنا إلى أي مدى تتصف بالشمولية فتحيط علماً بالبنية الداخلية للفكر الإنساني. ولا بد - ما دمنا نريد أن نصل إلى هذه النتيجة المسبقة- أن نتلمس بالتحليل كيف تكون هذه المقدمات التي تسلم إلى نتائجها.

### قضية الالتزام

من أخطر القضايا التي عاجلها، وقد أخذت طريق الشمول مؤكداً فيها وبها (الأدب الإسلامي) مصطلحاً إسلامياً ومذهباً أدبياً، يعبر عن شخصيتنا العربية الإسلامية، وتراثنا العريق، وقاعدتنا الفكرية التي لا تتعارض مع حدود الالتزام، وتدلل على أن الإسلام أرقى وأشمل في نظره للإنسان والكون من كل الفلسفات المثالية والعقلية والمادية.

---

\* كلية الآداب - جامعة طنطا، مصر.

إن دعوى الأدب الملتزم اضطرت بها أقلام الكتاب والمفكرين، وانساق إلى الترددي فيها من روج لسموم الغرب وأفكاره، (فرأوا في الأصالة تخلفاً، وفي الاستمساك بالعقيدة جموداً). لقد غرس أستاذنا حب التراث في نفوسنا، محذراً من حركة التغريب التي استهدفت الأدب العربي - وسوف أتعرض لها خلال دراستي لفكره المنهجي، ومن ثم كان لا بد له أن يبين (ما قد يكون هناك من مفارقة بين ما تدعو إليه العقيدة من التزام ديني، وما يدعو إليه الفن من انطلاق وتحرر لتحقيق الجمال ومتعة التذوق).

إن الهدف الأسمى الذي يسعى إليه هو (النظرة إلى الشعر في ضوء الالتزام الأخلاقي، أو في ضوء جمال الإبداع الفني، لتقييم أساساً واضحاً لمفهوم الأدب الإسلامي بوصفه مذهباً أدبياً).

وهذه النظرة لا تفصل بين الشكل والمضمون، وعلى أساسها توجه قلمه إلى الرؤية الشمولية للفكر الإنساني غربه وشرقه، سلبياته وإيجابياته، واتجه إلى مناقشة خمس قضايا أثرت في ربط الشعر بالالتزام الأخلاقي. ففي وظيفة الشعر وما له من غاية نفعية، أو تعليمية، أو تهذيبية، اخترق حجب الفلاسفات المعاصرة، فأوضح ما فيها من ثغرات ودعاوى مسمومة، لاستقلال الفن وذاتية الفنان، ومن ثم تتبع هذه الإيديولوجيات الفكرية، وكشف النقاب عما تضرره للتراث العربي العريق، فمذهب (الفن للفن) عزل الأدب عن الدين والقيم والأخلاق، واتجهت المدرسة التعبيرية والتأثيرية إلى فصل الأدب عن أية دعوة أخلاقية اجتماعية، وقام المذهب الروماتيك متأثراً بالفلسفة المثالية، لفصل الشكل عن المضمون، واستهدفت الفلسفة المادية الجدلية الأديب، فلم تلزمه بشيء خارج نفسه،

واستبعد المذهب السريالي المنطق، وعادى الواقع في غيبة الضابط العقلي، وأبعد كل اهتمام أخلاقي أو جمالي.

هذا ما قصدت إليه من أن أستاذنا العالم أوسع قلمه، فأحاط بالبنية الداخلية للفكر الإنساني، وكشف عن نيات أصحاب هذه المذاهب من تصويب أسهمهم المسمومة.

ويصم الذين يدعون إلى حرية الإبداع في الفن حين يدعون أن القرآن الكريم قد وضع قيوداً على الشعر كبلته، فلم ينطلق إلى آفاق رحبية، بل ظل مقيداً إلى قاعدته الخلقية التي رسمها له. فيقول: ((وليس بعجيب أن يضع القرآن حدوداً أخلاقية للشعر والشعراء، بل العجيب ألا يفعل، فغاية الدين الحرية في كل مجالاتها، ولكن ليست على إطلاقها، كما يدعو بعض المتحللين الذين ينادون بأن يكون الفن طليقاً من كل قيد، فينقاد لأحط غرائز الإنسان ونزعاته بدعوى الواقعية، ولكن الحقيقة التي ينبغي أن تدرك جيداً هي أن الفن اختيار، وليس من الضروري أن نضاهي كل حركات الواقع لتأكيد معنى حرية الفن)).

وقد حاول النقاد والمفكرون المسلمون المواءمة بين الالتزام الأخلاقي في الشعر وتحقيق عنصر الجمال الفني، فرأى بعضهم أن الالتزام قيد على الإلهام ولا يحقق الجمال، وقاس آخرون جودة الشعر بدلالته على معنى أخلاقي، وتردد الفريق الثالث بين حدود الالتزام وجمال الإبداع.

وإذا كان الأصمعي قد حكم على الشعر الإسلامي بالوهن الفني، لالتزامه بمبادئ الدين أو الأخلاق، فقد ردَّ عليه في مقاله (الإسلام والشعر) مبيناً ((أن دعوى وهن الشعر بعد الإسلام قائمة على غير دليل، وأن الإسلام لم يرفض

الشعر، وإنما دعا إلى التزام قواعد فنية فيه)). ثم كشف النقاب عن حطل هذه الدعوة في مقاله (الأدب الإسلامي بين جمال الفن وحدود الالتزام) فبين أن هذه المقولة ((غير صحيحة لأنها تقوم على معادلة خاطئة، فكيف يمكن أن يقوى الشعر على الشرّ والرذيلة، ويضعف على الخير والفضيلة، وكأن الفنون تقتصر على تصوير الجانب المظلم من النفس الإنسانية، ثم إن الموضوعات التي أجمع المفسرون على منافاتها للالتزام الإسلامي كالهجاء والغزل الفاحش مثلاً، لم تكن قمة في الشعر الجاهلي، حتى في المختارات التي انتقاها الأصمعي نفسه، فكيف يضعف الشعر في الإسلام إذا غابت؟ أما توجيه الأغراض الأخرى كالمديح مثلاً إلى الصدق الواقعي، فلم ينتج عنه شعر تقريبي تسجيلي كما قد يظن بعض الواهين، بل نرى على النقيض من ذلك شعراً تخلّى عن نمطية الأوصاف المحددة في الشعر الجاهلي، وانطلق إلى آفاق جديدة من التعبير)).

ثم فحّر أستاذنا العالم قضية من أكثر القضايا ارتباطاً بالالتزام الأخلاقي وجمال الفن، وهي قضية (الصدق والكذب)، قضية وثيقة الصلة في النقد العربي بالفكر الفلسفي، تبين ما يمكن أن يكون صدقاً، وما يرفض لتجاوزه الواقع فيصير كذباً، وخلال مناقشته لهذه النظرية تفتح جوانبها عن مقولتين: الأولى (أعذب الشعر أكذبه) والثانية (خير الشعر أصدقه) وكلتاهما تتصلان بالالتزام الأخلاقي.

انقسم الدارسون حول قضية الصدق والكذب، فرفض شعر الحكم والمواعظ ومديح الرسول ﷺ، لأن هذه الأغراض صادقة وتتناقى مع المقولة (أعذب الشعر أكذبه)، ولهذا رفضوا الشعر الذي يقوم على مبدأ الصدق. وعلى هذا المنهج الفكري الذي يتبعه أستاذ الأجيال في أبحاثه، وضّح صورتين متقابلتين لهذا الرأي،

رأي يقول: يكفي في الشعر التخيل والتعليل، فإذا كان صادقاً ترك المبالغة والإغراق فيها، واستند إلى العقل في إخراج صورته وفنه، وإذا كان كاذباً فإن الصنعة هي التي وسعت من ميدان التخيل.

ومن القضايا النقدية المهمة التي اتصلت بالالتزام الأخلاقي الإسلامي وجمال الإبداع، قضية (اللفظ والمعنى)، استعرضها أستاذنا العالم خلال المنهج التحليلي، حين أبان ما في النظرية من اختلاف وجهات النظر بين أصحاب الألفاظ وأصحاب المعاني، ثم توقف عند الذي نظروا إلى اللفظ مرتبطاً بالمضمون، فهم الذين عبروا باللفظ عن الإبداع الفني في تشكيل الشعر وصياغته، ولفت أنظار الدارسين إلى موقف عبد القاهر الجرجاني من قضية النظم، واتصالها بمفهوم الالتزام حين قال: (يفسر الجمال الفني للشعر بما يحدثه في النفس من هزة وافتتان، فالاحتفال والصنعة في التصديرات التي تروق السامعين وتروعهم، والتخيلات التي تهز المدوحين وتحركهم، وتفعل شيئاً شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التّساوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش).

وهكذا تبين للدارسين أن مقال ((الأدب الإسلامي بين جمال الفن وحدود الالتزام)) ومقالاته الأخرى في الأدب والإسلام والشعر، فتح بها الباب على مصراعيه أمام النظرة النقدية للفكر الإنساني عامة، مبيناً أن ((من خصائص هذا المذهب - أي الأدب الإسلامي - التعبير عن النظرية الإسلامية الشاملة للكون والوجود، فلا يتصادم بها أو يخالفها في أية جزئية من جزئياتها ودقائقها. وهذا التعبير نابع من التزام داخلي في نفس الشاعر المسلم، الذي تشرب عقله وروحه

الفكرَ الإنساني الإسلامي، فلا ينظر إلى الحياة والكون إلا من خلال رؤية هذا الفكر)).

إن مصطلح الأدب الإسلامي لا يلزم الشاعر بموضوعات محددة، فالشعر في النظرة النقدية الحديثة لم يعد مقيداً بموضوعات، ولكنه يضم تجارب عديدة، وتنفعل بها نفوس الشعراء فيعبرون عنها، إن النقد الذي لا يتخذ الاتجاه الأخلاقي مبدأً مبتوراً الفائدة، بل إن للنقد فضيلة حضارية تصور بوضوح ما ينبغي أن يكون عليه الأدب. إن مهمة الناقد لا تقل خطورة عن مهمة الشاعر، والشاعر مسؤول أمام ضميره، أي (عمله المشترك بين المعرفة والحكمة)، مسؤول عن الفضيلة التي تناسبه شاعراً، والناقد في النهاية يحاول التطهير - كتطهير أرسطو - من نوازع الشرّ والذوبان في تيارات بعيدة عن تراثنا وواقعنا.

ولقد أثبت (أيكن) و(ريتشاردز) أن التجارب الجمالية ليست شيئاً جديداً، ولا مختلفاً - بأية حال - عن سائر التجارب الإنسانية.

هذا الاتجاه الأخلاقي التراثي الذي عبرت عنه صفحات كتب أستاذنا العالم ومقالاته، حرك ضده مجموعة من القائمين على الإيديولوجية الفكرية الاشتراكية، وفرق كبير بين الاتجاهين؛ اتجاه إلى أدب موجّه أخلاقياً، وآخر انغمس في تيار الحداثة بما فيها من سقوط في هاوية الغربية، متخلين عن الجانب التراثي. وهذا ما سوف أعالجه في القسم الثاني من الدراسة.

### حركة التغريب

ومن أجل الحفاظ على المكونات الثقافية لتراثنا العربي، كان لا بد من كشف الغطاء الكثيف الذي ارتداه (الحداثيون)، وأصحاب الميول الغربية. إنهما

أزمة حقيقية ينبغي أن يتصدى لها كل القائمين على التراث العربي العريق، وكل من أشفق على الفكر العربي أن يتردى في هاوية (الغريبة)، فلقد حدث على ساحة الفكر العربي والأوروبي على السواء وجود مجموعة واهمة في انتفاضها، جارفة معها في تيارها من تميعت شخصيته، ونامت عروبتة، ولان دينه، فكان لا بد من وقفة تعيد التوازن، تتناول المقدمات التي تسلم إلى نتائجها عن طريق النظر العقلي والاستدلال والحوار الهادئ، لا بد من موقف يضع المفاهيم الصحيحة للتغريب، ومنها مصطلح حديث يسمونه الآن (الحداثة)، ولعل في تناول أستاذنا العالم لهذه القضية الهامة ما يدل على أن العقل العربي والأدب العربي والتراث العربي ما يزال يجد من ينافح دونه، في كل الحقول المعرفية، وليس ثمة بديل. إن الطريق الوحيد، والنهج الصريح، والمنهج الحق هو التمسك بالتراث، هو أمر يحتاج إلى جهود العلماء، لكنه توفر في عالم واحد يعيد الحق إلى نصابه، ويهدي الضالين إلى طريق الصواب والحق، خلال المعايير الإسلامية التي رفض بها التردي في هاوية التغريب. وهذا ما سوف أعرضه من جهوده في مقالاته التي تناقلها الشرق والغرب.

ومنذ سنوات بعيدة بدأ أستاذنا العالم يدق ناقوس الخطر أمام ظاهرة (الحداثة) التي بدأت تعصف بتراثنا وقيمنا وإسلامنا، ولم يخل له مقال من التحذير والتنبيه إلى خطرها الداهم، مشيراً إلى روادها في الشرق والغرب، ففي مقاله (ظاهرة الغموض في القصيدة العربية المعاصرة: ص ١٣٦) يقول: ((أما وجود هذه الظاهرة -ظاهرة الغموض- في القصيدة العربية المعاصرة، فهو لا يمت بصلة إلى تراثنا القديم إلا من حيث التزعة الباطنية الصوفية. وفيما عدا ذلك يمت بأوثق الأسباب إلى الفكر الغربي الذي بدأ يتسلل إلينا منذ عهد الحملة الفرنسية على

مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. وأخذ يفرض سلطانه شيئاً فشيئاً على عقول بعض مفكرينا وأدبائنا، الذين بهرهم النموذج الغربي بخيره وشره، فشبوا على عتباته، وطعموا على فتاته، واستطاعت الفلسفات الغربية وما تفرع عنها من مذاهب أدبية - كانت إفرزاً طبيعياً لهذه الفلسفات من جهة، وللتطور الذي حدث في أوروبا في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية من جهة أخرى - أن تسود حياتنا الفكرية، وتفرض نفسها على عقول أدبائنا ونقادنا، فتبعوها في تسليم، دون أن يتمعنوا في مراميها، أو يوجدوا لها صفة تلاؤمية مع ظروف مجتمعهم، بل مع انتمائهم للإسلام والعروبة)).

ولم يفت أستاذنا العالم أن ينوه بخطور هذا الاتجاه الهدام، الذي استهدف التراث العربي، حين وضع للدارسين هذه القضية، وقدمها في مقاله (موقف مرجليوث من الشعر العربي. نشرته له المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ص ٣٩٦) فيبين أن موقف مرجليوث يمثل سوء المنهج العلمي خضوعاً للتعصب المقيت ضد العروبة والإسلام، وأشار إلى بحوث مرجليوث الأخرى التي تتصل بالإسلام وتتسم بالتعصب المقيت، والبعد عن المنهج العلمي، والجهالة الفاضحة (يتضح لنا ذلك في كتابه ((محمد: نشأة الإسلام)) الذي نشر عام ١٩٠٥، وكتابه ((الإسلام)) الذي نشر في عام ١٩١١، وبحثه عن العلاقات بين العرب واليهود حتى ظهور الإسلام الذي نشر عام ١٩٢٤)). واستهدف مرجليوث في كل كتبه السابقة التشكيك في الإسلام بإثارة الشكوك حول الشعر الجاهلي. وهذا المقال الذي نشره مرجليوث في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٩٢٥، لم يكن إلا سلسلة من الأفكار الهدامة، التي استهدفت التراث العربي واللغة العربية والإسلام.

كذلك من مظاهر التحذير من التغريب - حين بدأت ظاهرة التغريب تسري بين مفكرينا وأدبائنا- مقاله: (الأصالة والمعاصرة وثام لا خصام - ص ٤٠) أثبت فيها أن رياح التغريب لم تنقطع: ((ويجد أعداء التراث ممن يجعلون المعاصرة بداية - لا تطوراً ولا اتصالاً- الفرصة سانحة لإطلاق سهامهم، وبث سمومهم، مع الاختلاف الشديد في أجناسهم ومعتقداتهم وأفكارهم، والغايات التي يرمون إليها، فمنهم من استهدف الإسلام بإعلان حربه على التراث. وادّعى أصحاب هذه الغاية وجود سلطة دينية متحكمة، تشبه سلطة الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى، ولهذا نادوا بما أسموه: التحرر الديني ضمن ألوان أخرى من الحريات، تستهدف الإطاحة بالأخلاق والفضائل الإسلامية، التي هي سمة شخصيتنا واثمنا إلى عقيدتنا وأصولنا العربية. وكان من وسائلهم لإدراك غايتهم الهجوم على اللغة الفصحى بمجمها وقواعدها وبلاغتها، ومنهم من كان يكشف عن غاياته بالتهجم عليها - بوصفها لغة القرآن- فيسميها (اللغة الدينية)، وكأنه بذلك لا يقر استخدامها لغة للتواصل بين الناس، حديثاً وفكراً، أو يصفها بالتراثية والكلاسيكية، ليقرّها بماضٍ يرفض امتداده أو اتصاله بالحاضر، فيجعلها بذلك لغة تاريخية منبثة. وانطلقت الدعوات إلى استخدام اللهجات العامية في بلادنا العربية استخداماً مطلقاً في الأدب ووسائل الإعلام، أو استخداماً واسعاً إن لم يكن مطلقاً، واشترك مستشرقون في هذه الحملة الضارية، من أمثال: سبيتا، وفولزر، وولمور، وويلكوكس في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، ولا يزالون مشتركين فيها حتى اليوم عن طريق توجيه مبعوثينا إلى بلادهم؛ لدراسة تأصيل هذه اللهجات دون اللغة الفصحى. ودعا آخرون إلى اتخاذ حروف لاتينية لكتابة العربية، وإلغاء قواعدها، والسخرية من بلاغتها)).

ولا بد من وقفة لإيضاح المنهج الفكري الذي ارتضاه أستاذنا العالم في مناقشته هذه الحركة، وكشف نوايا الذين اجتذبتهم إليها من أصحاب الأفكار الهدامة.

ففرق أستاذنا العالم بين اصطلاحين أجنيين (اضطربت فيهما المفاهيم، أما الأول فهو Modernity الذي يعني إحداث تجديد وتغيير في المفاهيم السائدة، والمتراكمة عبر الأجيال، نتيجة وجود تغير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن. أما الاصطلاح الثاني فهو Modernism وهو يعني مذهباً فكرياً يستهدف الحركة الإبداعية، ويدعو إلى التمرد على الواقع. أما الأول فيحسن أن نسميه (المعاصرة)؛ لأنه يعني التجديد بوجه عام دون ارتباط بنظرية ترتبط بمفاهيم وفلسفات، ومما يؤكد هذا المفهوم أن مروجي الحداثة في أدبنا العربي يرفضون المعاصرة شكلاً ومضموناً).

أمام هذه الظاهرة وما تحمله من رياح الخطر، لا بد من تحديد الأطر التي انحصرت فيها حركة التغريب، وكيف نظر الحداثيون إلى الأخلاق والدين؟ وما المعايير التي رفض بها أستاذنا العالم الحداثة شكلاً ومضموناً؟

من يقرأ ما كتبه أستاذنا العالم يدرك أنه أحاط بالبنية الداخلية للحداثة، في شرقها وغربها، وما فيها من ظاهر براق وباطن مسموم، وانكب قلمه يهدمها حجراً حجراً، وفكرة فكرة، ويتبعها في مهدها وفي مهجرها إلى المشرق، يكشف عن الوجه الآخر للحداثيين، ويبين عن الأطر التي انحصرت فيها هذه الحركة، ونحن نسجل بكل إعزاز هذه الإضاءات التي كشفت بها الوجه المظلم الذي يخفيه أصحاب هذه الحركة، ووضح الأطر التي قامت عليها.

فمن مبادئها (النفور من كل ما هو متواصل، وأنها في امتدادها الزمني أو الجغرافي لا تزال تمتلك القدرة على الاستفزاز وإثارة الجدل، وأدبها غير واقعي، وخال من المضامين الإنسانية، يركز على القضايا الأسلوبية والشكلية بدعوى النفاذ إلى أعماق الحياة، وأنها من تحطيم الأطر التقليدية والشخصية الفردية، وتبني رغبات الإنسان الفوضوية التي لا يحدها حد).

وخلال الكشف عن مبادئها الأساسية من العبث الفكري، والغموض، والألغاز، والتلاحم، وغياب الإدراك العقلي، وصراعها مع المعتقدات والقيم، يتضح للدارس موقف الحداثة من القيم الدينية ومن التراث العربي.

أما القيم الدينية فقد أثبت أستاذنا العالم أن الأصل الذي ترجمه أصحاب الحداثة العربية يدعو إلى الثورة على الماضي والحاضر، أي: (هي انقطاع تام عن الماضي، وثورة على الحاضر) وتدعو إلى (تدمير القداسة ومقارفة الخطيئة) فقد جاء على لسان أحد دعاة (هي تحاور الواقع أو اللاعقلانية، أي الثورة على قوانين المعرفة العقلية، وعلى المنطق، وعلى الشريعة من حيث هي أحكام تقليدية تعنى بالظاهر، هذه الثورة تعنى بالتوكيد على الباطن، وتعنى بالخلاص من المقدس والمحرم وإباحة كل شيء للحرية).

هذا هو مفهوم الحداثة الذي يحاول أن يعصف بالشريعة، ويتحلل من المقدسات، ليبیح الفوضى والانحلال من خلال اللاعقلانية. ص ٨.

وتطبيقاً للمنهج الفكري الذي اتبعه أستاذنا العالم في مقاله القيم ((الأصالة والمعاصرة وثام لا خصام)) أظهر الخلاف الشديد في مفهوم الحداثيين بين الأصالة والمعاصرة، وأوضح لأصحاب هذه الحركة ورؤوسها المدبرة، أن المعاصرة ليست

انقطاعاً عن التراث، واستهدفت الحركة الإطاحة بكل القيم والأخلاق والفضائل الإسلامية والمقدسات، تحت شعار التحرر الديني، كما مرّ فيما نقلناه عنه من (ص ٤٠) من مقاله: (الأصالة والمعاصرة وثام لا خصام) الذي يكشف أن الثورة أساس من الأسس التي قام عليها الفكر الحدائثي، ثورة على الواقع الاجتماعي، والأنظمة السائدة، ثورة على المنطق والعقل، ثورة على كل قيمة ثابتة في كياننا وأهمها العقيدة، ثورة على كل نظام إلهي أو وضعي، لأن هدفهم كما قال أستاذنا العالم: (إشاعة الفوضى باسم حرية الإنسان وفرديته المطلقة).

أما الثورة على التراث، فهو الهدف من وراء هذه الحركة الشاذة، وأساس هذا الجانب كما أوضح وجلي أستاذنا العالم، هو رفض لسلطة النموذج، فهم (يرون في اللغة شبحاً للسلطة، فهي قوى للفكر المتخلف، فلغة الحداثة هي اللغة النقيض لهذه اللغة الموروثة) ولقد وضح أستاذنا العالم معالم الثورة على التراث الأدبي شكله ومضمونه، فهم يؤمنون بخضوع الشعر للأشكال لا للمشاعر بتأثير الرمزية (ومن اتجاهات الرمزية التخلص من قيود الوزن والقافية، والدعوة إلى الشعر الحر، والاهتمام بالتأنيق الزائد في الصورة، والتحكم على اللغة، وبث الشك في إيماننا بها، وعدّها وسيلة سطحية، ومحض ألفاظ خالية من المعنى، وعدم استخدام الأفعال لخلق سلسلة من الأزمنة التي لا تسير متعاقبة، وأعلنوا أن شعرهم يقوم على التفكك وليس على الترابط) ص ٨٣.

إن موقف الحداثة من اللغة أخطر مما يتصور الباحثون والعارفون ببواطن الأمور، وكما عودنا في منهجية مدروسة بعناية، كيف وقف هؤلاء الحدائثيون أمام الشكل. يقول في كتابه ص ١٢٠:

(إن موقف الحداثة من اللغة لا يقتصر على رمزية الألفاظ وتغيير مدلولاتها، بل يتعدى ذلك إلى تدمير التراكيب اللغوية، وإهمال عناصر الربط في الجملة)، أي التخلص من جزئيات اللغة بإسقاط حروف العطف والظروف والصفات طلباً للحداثة، كما فسره أستاذنا العالم (أضف إلى ذلك بعثرة الأفكار وتقطيعها، بحيث يحتاج القارئ إلى إعادة تشكيلها. وإسقاط الغرض أو الموضوع، وفيضان الدلالة، وتوالي الصور الغربية البعيدة عن الوعي والمنطق: كالقار الأبيض، أو الجرح في ركبة الشمس، أو زهرة الكيمياء في الشفاه اليتيمة، أو في غابة الأشياء تقرأ صخرة. كل ذلك يوقع القارئ ضحية الألفاظ والفكر المشوش، أو اللافكر الناتج عن اللاوعي).

هذه المنهجية التفصيلية التي تتناول منهج فكر حديث، تحدد البنية الداخلية للتفكير الحداثي وتقدمه وتحذر منه. ومن خلال دراسته لعناصر الشكل قدم لنا قاعدتهم المعروفة: أن الشعر لا يكون شعراً إلا إذا تباعدت لغته عن اللغة القاموسية والتراثية، واستعملاتها المألوفة (ولذا رفضوا النموذج التراثي في موسيقاه، وشكله الفني، وقلدوا النموذج الغربي فيما أطلقوا عليه (الشعر الحر)، مدفوعين إلى قول القائل: (إن الالقاعدة في الشعر هي القاعدة الذهبية، فحطموا النظام المعروف للبحور الشعرية).

وأطلعنا على رؤيتهم الداخلية للنموذج الحداثي (أما النماذج التي تخضع للحداثة فيستحيل أن تتخذ بناءً واحداً، وهم يقولون: إن الحداثة تحول من النص المتشكل - النموذج) إلى اللامتشكل، ولكنهم في ذلك واهمون، ذلك أن تشكيل القصيدة مهما اختلف بناؤها يظل خاضعاً لتيار واحد متشكل من أفكار الحداثة

في المضمون والصورة ولغة الشعر، بحيث تتحول القصيدة التراثية إلى نموذج متكرر) ص ٢٨.

وهذا الاتجاه إلى الغرب قطع أصحاب الحداثة عن التراث العربي، وانطبق عليهم قول الشاعر:

فإن الدرهم المضروب باسمي أحب إليّ من دينار غيري  
ومن هنا وقف أستاذنا العالم أمام نتائج هذا الانحراف موقف المدافع عن  
تراث أمته العربية، وتراث آبائه وأجداده ولغته، فبين ما في هذا النتاج المنحرف  
من زيف فقال: (كان من نتائج وجود هذا التيار في أدبنا الحديث ما نعانیه في  
الشعر من الضعف المزري في صورته الفنية وفي خياله شعرائه، وتفاهة لغتهم،  
وافتقار قصائدهم إلى حرارة الواقع وصدق الإحساس، وانعزالهم عن قضايا  
أمتهم، وغياب الرؤية المنفردة لكل منهم، بحيث صارت قصائدهم نموذجاً حديثاً،  
تتكرر فيه كل سخافات الحداثة بطغيانها التجريدي البارد اللاعقلاني، وانقطاعها  
التواصلية مع القارئ بما فيها من غموض).

وكان لا بد من وقفة أمام هذه الثورة، ورأي جاد ناصح، ومعايير لرفض  
هذا التيار، فما هذه المعايير التي أصلها في كتاباته، وأبرزها واضحة في مقالاته،  
يحدوه في هذا الإيمان بأصالة التراث العربي، وقدرته على مساندة تيارات التجديد  
دون انحراف، متمسكاً بما فيه من أخلاقيات ومبادئ، ومثل وقيم، وغيره على  
الفصحى، تستشفها لا من إسقاطه التيار الحدائثي فحسب، ولكن كذلك من  
خلال معايير التي وضعها في مواجهة تيار اللاأخلاق المنفصل عن بيئته، المنبت  
عن مجتمعه؟؟.

ولنرجع إلى نتائج أبحاثه قبل البدء في تحديد المعايير، يقول في مقاله: ((الحدائثة والحساسية الجديدة هل انفض سامرها؟)) ص ١٠٤ (وغاية ما يقال: إن الشعر الحدائثي صار بضاعة من لا يملك من الشعر موهبة، ومن هو خارج على اللغة والتراث، مُغَيَّب عن العقل والوعي، ويجري وراء سراب تجديد، وما هو ببالغه، فإذا قلنا: إن الحدائثة انفض سامرها لم يكن ذلك تفاقلاً، بل إيماناً بقُدرة أدبنا على تجاوز هذه التروة، وتمثله معنى المعاصرة، وتحقيقه البعد الحضاري لأمتنا العربية).

وأول هذه المعايير التي اختطها معيار الدين والخلق، تتمثل في دعوته إلى الوفاق بين التراث والمعاصرة، يقول (ص ٥٧): ((الدين بقرآنه وسنته وأصوله وفروعه قمة التراث وذروته، وهو شامخ بثباته، لا يجري عليه ما يجري على عناصر التراث الأخرى من الأخذ والترك، والانتقاء والاصطفاء، والتطور والتحول، وهو ديباجتنا وطابع شخصيتنا وانتمائنا، وسيلنا إلى فهم تراثنا. وليس هناك أمة معاصرة لها مثل هذا القدر من تراثنا.. فليس الاهتمام بالتراث معناه التوقف عنده، أو الجمود عليه، أو رفض المعاصرة في أساليب حياتنا الاجتماعية والعلمية والفكرية، ولكن ما نعنيه أن تقوم بين التراث والمعاصرة علاقة جدلية تقوم على الأخذ والعطاء، ولا بأس من محاولة دراسة عناصر هذا التراث - في ضوء هذه العلاقة - دراسة تاريخية نقدية للانطلاق منه، والبناء عليه، وإحيائه وتجديده)).

ومن خلال هذا المعيار وغيرته على الدين والأخلاق، كشف عن حركة المستقبلين الغربية، ومعاداتها للدين، ونتج عنها (ثورة على الشريعة من حيث هي

أحكام تقليدية تعنى بالظاهر)، وأنها (تعني الخلاص من المقدس والمحرم وإباحة كل شيء للحرية)، وفضح نوايا أدونيس في (الثابت) حين يهدف إلى تدميره ما دام مرتبطاً بالعقيدة الثابتة، وبالماضي وبالسلطة الشرعية، وأن (التحول) هو كل ابتداء يتمثل في التمرد على العقيدة والخروج على السلطة الشرعية.

وقد أطلعنا أستاذنا العالم على نظرات رواد الحداثة السقيمة، حين أوضح ما في رأي الأب بولس نويا من مهاترات، وآراء مهترئة تدعو إلى العجب، وهو أستاذ أدونيس، ومقولته هذه يرسم بها الطريق المعوج للحداثة فيقول: (فهذا الأب بولس نويا أستاذ أدونيس يرسم له الطريق المعوج للحداثة فيقول: ((الرؤيا الدينية هي السبب الأصلي في تغلب المنحى الثبوتي على المنحى التحولي في الشعر، أو بعبارة أخرى: إن النظام الشامل الذي خلقه الدين، كان العامل الأساسي الذي جعل المجتمع العربي في القرون الثلاثة الأولى يفضل القديم على الحديث)). ولم أر جهلاً بالتراث، وتجنياً على الواقع أخطر من هذه المقولة، لرجل يفترض أنه قبل أن يكون مسيحياً متعصباً ضد الإسلام. وكيف يمكن أن ينظر إلى التراث نظرة موضوعية صحيحة وهو يقول: ((إن التراث هو بمثابة الأب، ونحن نعلم منذ فرويد أن الابن لا يستطيع أن يكتسب حرته، ويحقق شخصيته إلا إذا قتل أباه))، على الإنسان العربي أن يُميت تراث الماضي في صورة الأب، لكي يستعيده في صورة الابن).

ولم تكن العقيدة الإسلامية الصحيحة في أي وقت في تاريخها الطويل عقبة في طريق التقدم والتجدد، كما يروج المبطلون من أصحاب الانتماءات الشاذة، ولم يدع الإسلام للانعزال والانغلاق، بل شارك المسلمون أمم الأرض حضارتها

وثقافتها، دون أن يفقدوا انتماءهم الإسلامي والعربي، فهذا الانتماء وحده هو الذي يعصمنا من فتنة الارتواء على عتبات الغرب، ومحاكاة نزعاته المنحرفة، فالدين كما يقول د. محمد محمد حسين -رحمه الله-: ليس قيماً في حقيقة الأمر، لأنه لا يعطل العقل، ولكنه يحفظه من الضلال.

وأستاذنا العالم الرائد الحفّاز على الشخصية العربية المسلمة التي أرادت الحدائث اجتثاث انتمائها. والانتماء معيار رائد، وضع به حلولاً للحدائث، ودعا به إلى ثوابت تحقق وجودنا العربي، وانتماءنا إلى ديننا وقوميتنا، كما يدعو إلى التوازن الذي يقوم على الامتزاج بين الأصل والفرع، وهذا كله في إطار الجانب الأخلاقي، والاتزان العقلي، وعدم إنكار الماضي، والنظر إلى المستقبل ص ٣٥، وأعطى معنى كبيراً للانتماء لأنه يتعلق بالذات، أي ثقة الإنسان بنفسه، والانتماء أصل الإبداع الحقيقي، وبغيره تفقد الثقة، وتشيع الفوضى، يقول: (لكي يكون الأديب العربي حديثاً، يكفيه أن يكون صادقاً مخلصاً لنفسه، متعمقاً في تأمل لذاته، بوصفه فرداً يعيش في مجتمع بعينه، وفي نقطة معينة من الزمن. أما أن يفقد الأديب العربي ثقته بنفسه، وبثقافته وأصالته، ويهرع لاهثاً في مختلف الاتجاهات ليقنفي أثر آخر البدع.. فلا يجعله ذلك أديباً حديثاً في شيء، وأقول: إن الإبداع الحقيقي الذي يسعى إليه الأديب الأصيل، ليس نقلاً لتجارب الآخرين مهما تكن قيمة هذه التجارب، فكيف بها وهي تجارب شواذ خارجين على مجتمعاتهم، لا يقصدون منها غير الهدم وإشاعة الفوضى، وتدمير عقل الإنسان، واستقراره الاجتماعي، وأمنه النفسي. إن أخطر ما يواجهه الفكر العربي فقدانه الثقة في انتمائه فهو يمثل دائماً دور المتلقي وليس دور المبدع). ص ٥٨.

إن الانتماء الذي أشار أستاذنا العالم إليه، دلالة على معايشة الأديب لمجتمعه وقضايا وثقافته، ولا شك أنه أساس بل سرّ الإبداع الحقيقي، فكيف أكون مبدعاً وأنا أنقل أدب قوم ليس بيني وبينهم انتماء، إن نقل الأفكار والمذاهب والفلسفات البعيدة عن انتمائنا، ووجودنا، وعقيدتنا، وشخصيتنا، ومجتمعنا، وفكرنا، إلى اللغة العربية، لا ينتج من ورائه إلا أدب سقيم كسحيح.

(ولا شك أن فصل الفكر عن دوافعه وعن سياقه التاريخي، ونقله إلى بيئة غريبة عليه، ومجتمع له تراثه وأصالته الفكرية، وقيمه وعقيدته الدينية، وهذه الثوابت جميعاً ترفض أن تخضع لرياح التغيير الغربية الواحدة، أمر يدل على الرغبة الجارحة لدى الفئات المستغربة لترسيخ النموذج الغربي في حياتنا وفكرنا - الحداثة والتراث ص ١١).

ويحدو أستاذنا العالم الغيرة على الفصحى كميّار أصيل، يثبت به النوايا الفاسدة لهذه الفئة الضالة المضلة، يقول: (وكان من وسائلهم لإدراك غايتهم الهجوم على اللغة الفصحى بمعجمها وقواعدها وبلاغتها، ومنهم من كان يكشف عن غايته بالتهجم عليها بوصفها لغة القرآن.. أو يصفها بالتراثية... وانطلقت الدعوات لاستخدام اللهجات العامية) ص ٤١.

وهؤلاء الحدائثيون متنوعون مختلفو المذاهب والأهواء والانحرافات، منهم النُصيري والنصراني والماركسي والوجودي (تجمعهم دعوة الحركة المستقبلية للإلحاد، وهي دعوة تتفق مع معتقداتهم، فكيف يسوّغ مسلم لنفسه - إن صح إيمانه - الدخول فيها، وهي لا تخصّ مجالات الإبداع أو النقد الأدبي، بل تعم الحياة الإنسانية في عقيدتها وفكرها ونظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية

ص ٥٢، ويرد ذلك ضياع التجارب النقدية التي تصل المتلقي بالنص انفعالاً وتدوقاً، فكيف يستطيع النقد الحديث أن يمارس حقه، (ويأخذ بيده في متاهات النص الحديث، وأصبح المتلقي وهو في حالة وعي مطالباً بقراءة ما لا يفهم إبداعاً ونقداً، بل مطالباً بأن يكون في حالة لا وعي مستمرة؛ ليتمكنه أن يعايش مصطلحات الحدائث إبداعاً ونقداً) ص ٤٥.

هذه هي المعايير النابعة من قلب عالم مفكر استطاع بفكره وقلمه الذي أحاط بالبنية الداخلية للفكر الإنساني، والرؤية الدقيقة الصادقة، أن يكشف عن مخطط قصد أصحابه من ورائه هدم اللغة العربية، وإبعادها عن تراث الأجداد، وهدم حاضرها ومستقبلها. وما أظن أن هذا الداء يبقى لأن حضور الرؤية النقدية لرائد من رواد العالم العربي سيكون مانعاً من امتداد جذورها إلى الأرض العربية. فردّ الحدائث إلى مهدها الغربي إيماناً منه بإسلامنا وعروبتنا.



obeikandi.com

ملاحج وسمات عامة في المنهج النقدي  
في كتابات الدكتور محمد مصطفى هدارة  
في دراستيه مقالات في النقد الأدبي  
ودراسات في النقد الأدبي

د. سعد سليمان همودة

على مدار فترة زمنية تناهز الأربعين عاماً يتواصل العطاء الفكري لأستاذنا الكبير الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة، باحثاً أديباً جاداً وناقداً ثاقب الرؤية شديد التفكير، لا تعوزه أصالة المنهج ولا نزاهة القصد.

يشهد على هذا ما له من أبحاث متواترة في ميدان الدرس الأدبي والنقدي، الذي أخلص له نفسه مجرداً من كل هوى، فقد تخرج في قسم اللغة العربية في الخمسينيات، إلى أن أجاز للتدريس بالقسم المذكور (كلية الآداب بجامعة الإسكندرية) أوائل الستينيات، إلى أن حاز درجة ((الأستاذ)) أوائل السبعينيات.

وخلال هذه الرحلة الطويلة، لم يتوان عن العطاء الفكري الخصب، سواءً في هذه الجامعة العريقة، أو فيما انتدب له أستاذاً معارفاً للتدريس بالجامعات العربية المختلفة، ما بين السودان والسعودية وبيروت والكويت وغيرها، إلى ما له من نشاط محمود في الأندية الثقافية والعلمية المختلفة، وما له من إسهامات حميدة في المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية في مصر وسائر البلاد العربية، ممّا كان له أثره الملموس في توجيه حركة النقد العربي وجهة سليمة، والوقوف سيفاً بتاراً في

وجه دعاء التغريب، ومن على شاكلتهم من أدياء الثقافة، وما نشر من بحوث ومقالات، تكشف زيف دعاواهم، وتبين في جلاء عن ضحالة أفكارهم.

وفي هذا المقال الموجز يحاول الباحث -إجلالاً ووفاءً وتقديراً- أن يلقي الضوء على أهم السمات المميزة للفكر النقدي عند أستاذه، على النحو الذي تعرب عنه مقالاته وأبحاثه المنشورة طی دراستيه: ((مقالات في النقد الأدبي))<sup>(١)</sup> و((دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق))<sup>(٢)</sup> في الحدود التي تسمح بها طبيعة المقال والمقام.

ونستطيع أن نجمل هذه السمات في:

أولاً: الموضوعية.

ثانياً: الأصالة.

ثالثاً: المعاصرة.

رابعاً: الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

خامساً: الشمول والتنوع.

### أولاً: الموضوعية

الموضوعية في البحث العلمي، على اختلاف موضوعاته وقضاياها، صفة لازمة لنجاحه، كونه يبحث عن الحقيقة المجردة، فيصف ظواهرها وصفاً يتسم بالجرد، والبعد عن الهوى، أو يصفها كما هي، وذلك أمرٌ لا يكون إلا بعد

(١) نشرت ((مقالات في النقد الأدبي)) لأول مرة سنة ١٩٦٥م دار القلم - ثم أعادت نشره دار

العلوم - الرياض سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م بعد أن أضيف إليه بعض الموضوعات.

(٢) نشره مركز الشهابي للتوزيع والنشر بالإسكندرية - بدون تاريخ.

طول ممارسة للقراءة والدرس والتحصيل، إلى ما يجب أن يكون عليه الباحث من التزام أصول المنهج العلمي السديد؛ نزاهة وموضوعية ليتسنى له إصدار الأحكام الصائبة السليمة على الظاهرة المراد وصفها، أو نقلها، ومن ثم الحكم عليها.

وإذا كان النقد القديم - صدد تقديمه الأعمال الإبداعية للأدباء من الكتاب والشعراء، ما يفتأ يشير إلى ضرورة التلازم الواجب بين عنصري النظرة الموهوبة، والدربة المكسوبة، فمما لا شك فيه أن المتصدي لدراسة الأدب - إبداعاً ونقداً - أحوج ما يكون إلى التزام حدود هذه النصيحة، إذ يجب أن يجمع بين العلم والذوق، وهما أمران لازمان متلازمان لنجاح كل نقد أصيل.

فماذا في الفكر النقدي لأستاذنا التزاماً بهذه الأصول المعلومة؟

المطالع للبحوث والمقالات موضوع الدراساتين يستطيع أن يلم - إجمالاً - بهذه الملاحظات:

١- وضوح الرؤية النقدية في الكتابين جميعاً - على اختلاف وتعدد الموضوعات والمباحث النقدية التي عالجها، وصدور الباحث فيها عن روح واحد، هو الإخلاص للعلم، والبعد والتجرد من الهوى والغرض.

فلا شك أن الكتابين يمثلان وجهة نظر واحدة، يصدر صاحبها عن إيمان عميق بصدق القضية التي ينافح من أجلها، على تعدد المستويات النقدية التي أدلى فيها دلوه، سواء كانت نقداً لبعض مظاهر القصور التي تعتور حياتنا الثقافية<sup>(١)</sup>، أو الوقوف سيفاً بتاراً صارماً في وجه الدعوات الهدامة

(١) انظر مقال: حياتنا الأدبية الثقافية إلى أين تتجه؟

مقالات في النقد الأدبي: ص ١٣، ٢٠ وما جاء فيه من نقد لبعض مظاهر النشاط الثقافي للجماعات العربية وخاصة المترجمات.

التي تستهدف فكر وتراث هذه الأمة التليد<sup>(١)</sup>، أم كانت غير هذه وتلك، كتلك المقالات التي تتناول بعض مظاهر النشاط الفكري والإبداعي للعاملين في ساحة الدراسات الأدبية<sup>(٢)</sup>. إذ يصدر الناقد عن روح عربي أصيل لا تعوزه في كل الأحوال المذكورة روح العالم ولا رهافة حسّ الأديب.

٢- وتبدو هذه الموضوعية على صورة جلية في المنهج العلمي الذي ألزم به نفسه، صدد تناوله بالنقد الموضوعي بعض الأعمال الإبداعية والفكرية لبعض الباحثين في ميدان الدرس الأدبي، وكانت تربطه بكثيرٍ منهم روابط الود والصدّاقة والزمالة، بيد أنه أثر روح العلم ونزاهة القصد على ما قد يجرّه إليه مثل هذا النقد من عواقب، وهو أمر تعرب عنه أصدق الإعراب مقالات القسمين الثاني والثالث من ((مقالات في النقد الأدبي))، حيث تناول بالنقد في القسم الثاني منه بعض الفنون الأدبية، وفي القسم الثالث تناول بالنقد المنصف البناء بعض الدراسات الإسلامية والأدبية والنقدية.

وفي هذه وتلك نجد الالتزام الواضح بأصول المنهج العلمي: موضوعية، ونزاهة قصد، وتجرداً عن كلّ هوى وغرض، إذ كان لا يحفزّه إلاّ نيتّه

(١) انظر مجموع المقالات في نقد الحداثة في: دراسات في النقد الأدبي: ص ١٠٤، ٧، ومقال الرد على مرجليوث في مقاله عن أصول الشعر العربي من الكتاب نفسه ص ١٧٧-٢١٩. وجميعها تصدر عن رؤية نقدية واحدة دفاعاً عن التراث العربي الأصيل، وتقنيداً لحجج وادعاءات المغرضين من المستشرقين، ومن لفّ لفهم من الباحثين والأدباء العرب.

(٢) انظر مجموع مقالات القسمين الثاني والثالث من: مقالات في النقد الأدبي: فالقسم الثاني منه في نقد بعض الفنون الأدبية: ص ٧٥ إلى ١٨٥، أما الثالث ففي نقد بعض الدراسات الإسلامية والأدبية والنقدية: ص ١٨٩ إلى ٢٦٩.

الصادقة المخلصة في إقامة صروح نقد يتسم بنبل القصد، ونزاهة الغرض، وتلك روح الناقد الأمين، تجمع بين موضوعية العلم، ونبل المقصد، وسمو الغاية إلى ما يتميز به من رصانة حس وذوق في تعامله مع نصوص الأدب.

٣- وهي ملاحظة متممة للملاحظتين السالفتين ولا غنى لإحدهما أو كليهما عنها، وهي أن هذه الروح النقدية التي تتميز بالأصالة والموضوعية، ما كان لها أن تكون على هذا النحو، لولا هذا الاطلاع الوفور من الناقد في شتى مناحي المعرفة المتصلة بميدان درسه، على النحو الذي تعرب وتبين عنه في جلاء ووضوح جميع مقالات وموضوعات الدارسين، حيث غدا ينافح عن قضاياها لا تعوزه حجة للدفاع إتقاناً لوسائله، وتمرساً جيداً وصبوراً بشتى فنونه، بما زود به نفسه من زاد ثقافي موفور، ما هياً له التبريز في ميدانه.

### ثانياً: الأصالة

آثرت هذا العنوان على عنوان آخر ربّما كان معبراً - إلى حد ما - عن طبيعة الموضوع، وهو ((التراث)) أو ((القضايا التراثية في النقد))، لأن التراث ربما أوحى إيماء ما إلى الزمن بنوع من الانفصام بين قضايا التراث وقضايا العصر ومشاكله، ولذلك آثرت العنوان المذكور، كونه يمثل زاداً فكرياً يسري في دماء هذه الأمة ويقوم على التعايش الحي المستمر المتلازم بين التراث العتيق الموروث، وموضوعات العصر وقضاياها ومشاكله.

ولا شك أن الأدب - إبداعاً - ميدان خصب، يحاول أعداء الأمة العربية والإسلامية النفوذ منه إلى أغراضهم الخبيثة بما ينشرون من دعاوى وأفكار، يروجُ

لها مفتوناً بها بعض الباحثين والأدباء العرب، ممن يستهويهم بريق حضارة الغرب، ويتغافلون، أو يدركون ويغفلون خبث النوايا، وسوء القصد الذي يضمه لحضارة العرب وميراثهم الثقافي التليد بعض المستشرقين.

ومن هنا كان الدفاع عن كُـلِّ ما يتصل بهذا التراث العربي الأصيل على هذه الدرجة من الأهمية والخطورة، خطورة وأهمية تلك القضية: الالتزام والأصالة مع المعاشة والمعاصرة.

ومعنى هذا أن يلتزم الباحث المعاصر الأطر الثقافية المرعية التي تقوم على الإتقان الجيد، والفهم الواعي بقضايا التراث، والإتقان الجيد لمناهج الدرس الحديث في شتى مناحيه الفكرية المعاصرة، وخاصة ما كان منه متصلاً بموضوع درسه.

وقد بدت هذه السمة واضحة في المقال الذي أفرد للردّ على المستشرق مرجليوث في مقاله عن: أصول الشعر العربي *The Origins of Arabic Poetry* المنشور في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية<sup>(١)</sup>.

(١) نشر المقال بالمجلة المذكورة سنة ١٩٢٥م، وقد فتن بالمقال وما تضمن من آراء بعض الباحثين العرب على رأسهم الدكتور طه حسين في كتابه في ((الشعر الجاهلي)) الذي صدر سنة ١٩٢٦، وقد تصدى للرد عليه بعض الباحثين من أمثال محمد لطفي جمعة، ومصطفى صادق الرافعي وغيرهما، وقد ترجم المقال أخيراً حيث قام بترجمته يحيى الجبوري تحت عنوان: ((أصول الشعر العربي)) أصدرته مؤسسة الرسالة - بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٩م، كما ظهر مقال مرجليوث مترجماً مرة أخرى ضمن كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي بعنوان ((دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي))، ونشرته دار العلم للملايين - بيروت

ويحاول مرجليوث في مقاله المذكور أن يثبت أن الكثرة الغالبة من نصوص وأشعار الأدب الجاهلي ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام<sup>(١)</sup>.

مصدر الخطر في هذه الفكرة يكمن في محاولة نفي أن يكون للعرب أدب ((ما قبل الإسلام)) ومن ثم الطعن في القرآن وهو نحو من البحث يصادم عقيدة المسلمين، ويحاول في خبث هدم كل ما يكون للعرب من أدب راق، أبت سليقة هذا المستشرق أن تقرّ به، فضلاً عن أن تذوقه وتفعل به، وانساق وراءه نفر من الباحثين العرب كطه حسين في (الشعر الجاهلي) وعبد الرحمن بدوي في (دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي)<sup>(٢)</sup>.

وقد تنكّب مرجليوث جادة البحث، فراح يلتمس أوهى الأسباب ليقيم على أساسها الواهي نظريته المزعومة، فراح يستدل بالقرآن الكريم على وجود شعراء جاهليين، كما راح يجمع من غير فهم بين الشاعر والكاهن والمجنون لا لشيء إلا لكونها وردت في سياق واحد من النسق القرآني<sup>(٣)</sup>.

كما أخطأ خطأً فاحشاً في فهم آيات سورة الشعراء، وغير هذه وتلك من أمور تجلّى فيها خطره البين، ونيتة الخبيثة التي يضمورها للقرآن وأهله، بما حاول جاهداً أن يصل إليه من الشك في الشعر الجاهلي وإنكار أن يكون للعرب شعراء

(١) وهي الفكرة ذاتها التي تبناها طه حسين في الشعر الجاهلي انظر: دراسات في النقد الأدبي: ص

١٧٨ وما بعدها.

(٢) دراسات في النقد الأدبي: ١٨، ١٨١.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٨١.

كشعراء اليونان، وذلك حتى يصل إلى غرضه، وهو أن يكون النبي ﷺ قد اخترع هذا القرآن، أو على أقل الفروض أن يثير الشك في الأدب الجاهلي — شعراً ونثراً — وهو أصل أصيل اعتمد عليه المفسرون في تفسير القرآن.

ومن هنا انبرى أستاذنا للدفاع عن القرآن ولغته وأدبه، بما ساقه من حجج متواترة نقض بها مزاعم مرجليوث على النحو الذي يبين عنه المقال بما لا يسعف المقام بذكره.

ومن الموضوعات الأخرى التي تتصل اتصالاً وشيخاً بهذا الموضوع، مجموعة المقالات التي تناولت موضوع ((الحدائث))<sup>(١)</sup>.

ونعتقد أن الفكر الحدائثي ما هو إلا تطور خبيث لأمثال فكر مرجليوث في مقاله آنف الذكر، بيد أنها تحمل قدراً غير قليل من الخطورة، بما وجدت لها من تربة مهيأة غير صالحة عند نفر من الباحثين والأدباء العرب، وبما تحمل من جرائم أشد تُكرأ، تبتغي الفتك بكل ما هو قيم وأصيل للعرب والمسلمين.

ومكمن الخطورة في هذه الدعوة أنها تحاول هدم القيم الأصيلة في الأدب فكراً وإبداعاً، ثم إنها دعوة تبدو منظمة تنظيمياً جيداً من قبل نفر من المستشرقين وتلاميذهم في البلاد العربية، الذين يكونون للتراث كل مظاهر الحقد والبغض الدفين.

تبدأ مقالات الحدائث بمقال عن الحدائث والتراث، كشف الناقد فيه اللثام عمّا يعثور مفهوم هذا المصطلح من لبسٍ وغموض في أذهان كثير من الباحثين المعاصرين، إذ ارتبط في أذهان بعضهم ببعض مظاهر التجديد في الأنماط الأدبية

(١) انظر بالتفصيل القسم الأول من: دراسات في النقد الأدبي: ص ٧-١٠٤.

المختلفة في الشعر والمسرح والقصة، بينما هو أوغل من ذلك بكثير إذ يتعدى تأثيره نطاق الدرس الأدبي -إبداعاً وفكراً ونقداً- ليعم جميع مظاهر النشاط الفكري للإنسان العربي المسلم في الشريعة والأدب والعقيدة والسياسة والدين.

كما ميّز في دقة بين مفهوم هذ المصطلح ومصطلح العصرية التي تعني إحداث تجديد وتغيير في المفاهيم السائدة المتراكمة عبر الأجيال، نتيجة وجود تغير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن<sup>(١)</sup>.

بينما تعني الحداثة في بعض تعريفاتها الانفجار المعرفي الذي لم يتوصل الإنسان المعاصر بعد إلى السيطرة عليه<sup>(٢)</sup>، أو الثورة على كل الأشكال والمواريث المألوفة في الدين واللغة والأدب، أو على حد عبارة أدونيس - تجاوز الواقع أو اللاعقلانية، أي الثورة على قوانين المعرفة العقلية وعلى المنطق وعلى الشريعة<sup>(٣)</sup>.

وتوضيح معنى المصطلح على هذا النحو من الدقة، يشهد لصاحبه بالأصالة في البحث إذ إنه الخطوة الأولى التي يخطوها الباحث لترتيب قضايا موضوعه ترتيباً موضوعياً سليماً، بناء على ما يستقر عليه الباحث من فهم سليم بعد طول درس وتمحيص للمفاهيم المتعددة للمصطلح الواحد، وما قد يعتوره من لبس أو غموض في الأذهان<sup>(٤)</sup>.

ولذلك ارتبطت الحداثة بكثير من الدعوات والمذاهب الهدامة، كالماركسية والعلمانية والليبرالية، وقد بدا ذلك واضحاً في فكر الحداثيين العرب، الذين عرض

(١) دراسات في النقد الأدبي: ص ٨.

(٢) دراسات في النقد: ص ٩.

(٣) المصدر نفسه ص ١٣.

(٤) انظر ذلك تفصيلاً في الصفحات من ٩-١٣.

البحث لكثير من أخطارهم وإبداعاتهم الأدبية، التي ضمنوها أصول المذهب وأفكاره، كما يتضح جلياً في أعمال عليّ أحمد سعيد (أدونيس)، وخالدة سعيد، وكمال أبي ديب، وقد حاول هؤلاء الاحتفاء بكلّ خروج على السلطة الشرعية، بوصفه نوعاً من الثورة على تلك السلطة، وتجاوز حدود العقل والمنطق، ولهذا فقد اعتبروا حركات الخوارج والزنج والقرامطة أمثاطاً من الثورات (الحدائثية) - إن جاز التعبير - كونها تحاول الاحتجاج أو الثورة على السلطة الشرعية، كما احتفوا احتفاءً خاصاً ببعض الشعراء الذين عبروا عن ضيقهم بهذه السلطة، كاحتفائهم بأبي نواس لأنه - كما يذكر أدونيس - فصل الشعر عن الأخلاق والدين، رافضاً حلول عصره، معلناً أخلاقاً هي أخلاق الفعل الحر والنظر الحر، أخلاق الخطيئة<sup>(١)</sup>.

وعلى هذه الوتيرة تصدر إبداعاتهم كالذي نجد في قصيدة لغة الخطيئة لأدونيس الذي يريد أن يعبر بخطيئته فوق الله والشيطان<sup>(٢)</sup>.

وإذا تجاوزنا هذا الجانب من الفكر الحدائثي، نجد الحدائثيين في تعاملهم مع اللغة يصدرون عن هذه النظرة الرافضة لكل ما هو أصيل متوارث، فهم يرون أن اللغة شبح السلطة التي يكرهون وجودها، أو يروها لغة مكدسة محشوة بالسلطة، قوة ضخمة من قوى الفكر المتخلف التراكمي السلطوي<sup>(٣)</sup>.

ولذلك يحاولون تدمير قواعدها، وذلك عن طريق تدمير بنية الجملة الدالة بما هي نسق ((واضح))، وتحويل الجملة إلى ما يسمونه سلسلةً من الإمكانيات

(١) دراسات في النقد الأدبي: ص ١٦.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٣.

والتداخلات، أو بعبارة أخرى تدمير اللغة بقواعدها المتوارثة، والتبشير بما يسمونه لغة المستقبل، وهي لغة تعتمد اللغز والإشارة: لغة باطنية سرية لا قوام لها<sup>(١)</sup>.

أي أنها تعتمد إلى تدمير العلاقة التقليدية الإشارية بين الكلمات والأشياء، فلا تعود الكلمة إشارة إلى الشيء أو تسمية له بل تصبح استشارة لأنواع مختلفة من السياق<sup>(٢)</sup>.

ويعرض الناقد لنماذج مختارة من أشعار الحدائين، تعبر عن رؤيتهم للغة على النحو الذي ذكرنا، كما يبدو في قصائد أدونيس، وعفيفي مطر، وعلي الخليل، مما يطول المقام بذكره<sup>(٣)</sup>.

كما يعرض لإنتاجهم في القصة، ويشير إلى انتشار أفكارهم بين مجموعة لا بأس بها من الأدباء، وخاصة في بلاد الشام، حتى انتشر الوباء بين بعض أدباء فلسطين الذين ينبغي أن يكون أدهم بوجه عام شديد التواصل بالشعب العربي وضوح رؤية، وصدق لهجة وتعبير، ومحافظة على التراث بمنأى عن أسر هذه الضبابية في اللغة والتعبير، التي يتسم بها أدب وفكر الحدائين، وبعيداً عن هذه المفاهيم الهدامة التي لا تبغي الخير للعرب والمسلمين، ولولا خشية الإطالة لأطنب المقال في الاستشهاد لما يقول بما تقتضي ضرورة الاستشهاد، ولكن المقام والمقال لا يعينان على مثل ذلك، فبحسبنا الإشارة واللمحة الدالة.

(١) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٤.

(٣) المصدر السابق: الصفحات من ٢٣-٢٩.

وحسبنا أن نذكر أن أستاذنا قد ألمَّ بأطراف القضية من جميع جوانبها، وأبان في جلاء ووضوح عن مفهوم الحداثة، وفكر الحداثيين، وأورد نماذج متعددة من الأدبين الغربي والعربي صدد دفاعه عن هذا التراث التليد في صفحات طوال من دراسته: ((دراسات في النقد الأدبي)). بما يشهد له بنبل الغاية، ونزاهة الغرض، والبعد عن الهوى، بالإضافة إلى المعلومات الوفيرة التي قدمها للقارئ العربي في هذا المضمار، وهو أمر لا يكاد الباحث يعثر على مثل له عند غيره من باحثي الأدب ونقاده، إخلاصاً للفكرة، وخدمة للموضوع، بهذا الاطلاع الواسع الموفور في مصادره، التي عيّنت به في الغرب، وفي بلادنا العربية على وجه السواء.

### ثالثاً: المعاصرة

تبدو هذه السمة ملحوظة في ثلاثة أنماط من المقالات النقدية موضوع الدراساتين:

**أولها:** مجموعة المقالات التي تناولت قضايا فكرية ووجدانية حيوية، كتلك التي أشرنا إليها آنفاً، وهي قضايا يتعدى نطاق تأثيرها ميدان الدراسة الأدبية، ليشمل مجموعة المظاهر الفكرية لهذه الأمة، ذات التراث العريق الأصيل في العقيدة والدين والأدب والسياسة والفكر، وتجعل من الأدب -إبداعاً وفكراً- محور ارتكاز تتسلل منه في خبث، للنيل من معتقد هذه الأمة، وتراثها التليد، أو تحاول -على أضعف الإيمان- زعزعة إيمان عامة المؤمنين بالأصول العامة لشريعتهم وأديهم ودينهم.

ولا شك أن الحديث الذي يتناول الحداثة مصطلحاً فكرياً، له مراميه التي لا تخفى على المدققين المنصفين من أبناء هذه الأمة، ويتناول

فكرها وإبداعاتها بالنقد الجاد، الذي يكشف زيف دعاواها، وضحالة فكر الداعين إليها، المفتونين بها، وكذلك الرد على بذور هذه الدعوة التي بدأت تستشري في القرن الماضي، بسبب ضعف المسلمين، وقوة شوكة المستعمرين، كما أن المعالجة الموضوعية تعتبر معالجة عصرية واعية لموضوعات تجمع بين القديم والجديد، وبين التليد الأصيل الموروث، وبين الجديد الذي لا حياة له بغير أن يستمد وجوده وحياته من هذا القديم الأصيل.

وثانيها: تلك المجموعة من المقالات التي تناولت نقد بعض الأبحاث والدراسات الإسلامية والأدبية والنقدية لمجموعة من الباحثين في ميدان الدراسة الأدبية<sup>(١)</sup>.

وهذا النوع من النقد يسهم إسهاماً إيجابياً في توجيه دفة النقد المعاصر، وهو جانب من النقد قلما يعنى به النقاد المعاصرون. ومثال هذا النوع من النقد على سبيل التمثيل لا الحصر، تلك الدراسة التي تناولت بالنقد تحقيق كتاب ((المتع في صنعة الشعر)) لعبد الكريم النهشلي القيرواني، حيث وقع المحقق في أخطاء منهجية واضحة، أبان عنها المقال، وأظهرها إعراضُ المحقق عن ذكر النشرات السابقة لهذا الاختيار، واصطناعه عنواناً له من عنده<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر القسم الثالث من: مقالات في النقد الأدبي: ص ١٨٩، ص ٣١٨.

(٢) مقالات في النقد: ٢٦٩، ٢٧٠.

كما وضح من نقد التحقيق النقص الشديد في ترجمة صاحب الاختيار إلى جانب الأخطاء اللغوية في نص التحقيق<sup>(١)</sup>.

وقد حصر النقد الأخطاء التي وردت في نص التحقيق في:

- التحريف والتصحيح نتيجة سوء القراءة والفهم، والجهل بالمصادر اللغوية والتاريخية والأدبية وكتب التراجم، ويضرب المقال الأمثلة على ذلك<sup>(٢)</sup>.

- تدخل المحقق في عبارة النص إماً بالتغيير أو إسقاط بعض الألفاظ أو زيادته لها حيث لا موجب للإنقاص أو الزيادة<sup>(٣)</sup>.

- ولا يقتصر الأمر على ذلك إذ يتناول التحريف الشعر، كما يبين ذلك من الأمثلة التي استشهد بها النقد<sup>(٤)</sup>.

- إغفال المحقق تخريج الأشعار من حيث الترجمة لقائلها، وتحقيق نسبة الأبيات الشعرية لمن تنسب إليه، وغير ذلك من أمور يتطلبها التحقيق، إذ إن الشعر مادة هذه الدراسة فكان ينبغي أن يولى من العناية شرحاً وضبطاً وتحقيقاً ما ينبغي أن يكون له، ولا شك أن إغفال مثل هذه الأمور مما يجب أن يؤخذ به صاحب التحقيق<sup>(٥)</sup>.

(١) المصدر السابق: ص ٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧١-٢٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٨٦.

(٤) انظر ذلك تفصيلاً في الصفحات من ٢٨٦ إلى ٣٠١ من: مقالات في النقد الأدبي.

(٥) مقالات في النقد: ص ٣٠١.

وفائدة مثل هذا النقد أنه يسهم في توجيه دفة الدراسة الأدبية وجهة سليمة، إذ المصادر في الدراسة الأدبية أو الدراسات اللغوية بوجه عام هي عماد تلك الدراسة، وعليه فعلى من يتصدى لتحقيق بعض تلك المصادر، أن يبذل جهداً في ضبط النص وشرحه والتعليق عليه، حتى يتحقق وجه الإفادة منه على الوجه المنشود.

**وثالثها:** مجموعة المقالات التي أفردت لنقد فنون الأدب من شعر وقصة ومسرحية، وكلها أنماط أدبية لأدباء معاصرين، وبذلك يشارك في تقويم حركة الإبداع الأدبي المعاصر، ونأخذ مثلاً لهذا النمط من النقد المقال المفرد لنقد ديوان الدكتور عبد القادر القط. وعنوان الديوان: ((ذكريات شباب والشعر الجديد)) قدّم له الشاعر بمقدمة تحدث فيها عن ((شعره بصورة توضيحية مبسطة، ودافع عن بعض ما توهم أن يكون موضع اهتمام من النقاد، فتحدث عن الشعر المعاصر بوجه عام حديثاً مفصلاً، تناول الشكل والمضمون وبعض المذاهب الأدبية..))<sup>(١)</sup>.

وموضوع الديوان يدور حول محور واحد هو قصة حب الشاعر، التي تصور تجربة شعرية حيّة عاشها الشاعر، وانفعلت بها ولها نفسه، فسجلها شعراً يصور معاناته إبان هذه التجربة صدر شبابه، وهي تجربة باءت بالإخفاق، لأنه ضرب حول نفسه سياجاً من المثل والأوهام، فأعرضت عنه صاحبتة، إذ لم تجد عنده إلا الجفاف، ووجدت الري في صحبة غيره.

(١) مقالات في النقد الأدبي: ص ٧٦.

حين يقبل الناقد على نقد عمل شعري، عليه أن يتخلى عن كل المؤثرات (الخارجية) التي يمكن أن تلقي بظلالها على نفسه، ومن ثم على الحكم الذي يقوم به هذا العمل، وهذا ما قام به الناقد هنا، إذ أعرض عن تلك المقدمة التي قدم بها الشاعر لديوانه، أو أقبل عليها حتى إذا فرغ من هذه المهمة أقبل على دراسة الديوان والمقدمة، حيث تبين له بعد قراءة الديوان ومقدمته أنها، أي: المقدمة ((جزء لا يتجزأ منه))<sup>(١)</sup>.

وهنا يأخذ الناقد في معالجة بعض ما ورد بالمقدمة من قضايا نقدية، ومنها قضية القديم والجديد في الشعر، بما هو كائن حي يسري عليه ما يسري على الأحياء، كما يتناول موقف النقاد والأدباء من هذه القضية فهم فريقان: فريق ((محافظ)) شديد المحافظة، يتشبث بالماضي بكل ما أوتي من قوة، وآخر ييهره التطور والجديد فيندفع في تطوره محاولاً التحلل من كل ما يربطه بقدمه أو تراثه<sup>(٢)</sup>.

ويتغافل الفريقان عن حقيقة أن القديم والجديد عنصران هامين من عناصر الحياة، إذ مفهوم التجديد يعني حدوث شيء من حيث الأساس، ولكنه يتضمن في الوقت ذاته ((بقايا شيء قديم)) وعلى هذا فهو يختلف عن التغيير المطلق، ويعني تغيير العناصر المكونة مع بقاء الهيئة الأصلية واستمرار الأساس القديم<sup>(٣)</sup>.

(١) مقالات في النقد: ص ٧٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٧٧.

(٣) مقالات في النقد: ص ٧٧.

وممكن البراعة في مثل هذا النحو من النقد، هو حرص الناقد على تحديد الأطر والأسس التي يُقِيمُ عليها بناءه النقدي، كما يبين هنا في الحرص على تحديد معاني المصطلحات النقدية بصورة واضحة جلية، وهو أمر لاحظ الباحث حرص الناقد عليه في سائر مقالات الدراساتين، وهو من الأمور التي تحمد له.

ولعل أظهر الملاحظات التي أبداه الناقد صدد تقويمه هذه التجربة الشعرية، أن صاحبها عاش تجربة حبه عيشة مثالية جامدة، ويبدو أنه ربط نفسه بهذا الحب العذري، متناسياً أو متغافلاً أن محبوبته كائن بشري يعتوره ما يعتور سائر البشر من أحوال الكمال والنقصان، فكان أن هجرته وتركته، إذ لم تجد عنده غير الجفاف، ووجدت الري عن سواه كما يقرُّ هو بذلك في قوله:

قَدِ أَلْفَتِ الشُّفَاهُ بِالرَّاحِ رِيًّا  
وَأَلْفَتِ الأَكُفَّ بِالِإِثْمِ سَكْرِي  
فاجتويت الجفافَ من شفّيتا  
وسئمتِ المنى بكفّي حيرى<sup>(١)</sup>

ويحاول الدكتور القط تعليل سبب اتجاهه إلى هذا اللون من الشعر الرومانسي بسبب من الظروف الاجتماعية المعلومة، التي عاشها وأبناء جيله أثناء الحرب العالمية الثانية، بيد أن الناقد لا يوافق على ذلك، ويرى أن ذلك راجع إلى تأثيره بجماعة أبوللو التي أثرت تأثيراً وجدانياً بالغ الأثر في شباب ذلك العهد<sup>(٢)</sup>.

(١) المصدر السابق ص: ٨٠.

(٢) نفسه: ص ٨١.

كما يرصد المقال اقتران تجربة الشاعر بالحيرة والإحساس بالحرمان والقلق، إلى غير ذلك من الظواهر التي رصدها من خلال تتبع دقيق وأمين لقصائد الديوان.

#### رابعاً: الجمع بين الأصالة والمعاصرة

قد يبدو هذا العنوان جمعاً تليقياً للسِمَتَيْنِ السالفتين، وقد يبدو الحديث هنا نوعاً من تكرار الحديث هنالك، وما إلى ذلك قصد البحث، إذ بان بما سلف من القول أن ثمة موضوعات قد اجتمع لها قضايا التراث جنباً إلى جنب مع قضايا العصر ومشكلاته، كما برز واضحاً في موضوع الحداثة، وأن ثمة موضوعات أخرى انصرف النقد فيها انصرافاً كلياً لمعالجة موضوعات عصرية، (كالذي ذكرنا آنفاً عن نقد بعض الفنون الأدبية)، ونضيف هنا أن بعضاً ثالثاً أفرد لمعالجة بعض موضوعات النقد القديم، كالذي يبدو واضحاً في مقال ((المحاكاة في الشعر الجاهلي))<sup>(١)</sup> وفي مقال: ((الأدب الإسلامي بين جمال الفن وحدود الالتزام))<sup>(٢)</sup>.

وعلى عادته في التحديد الدقيق لمعنى المصطلح النقدي، يتناول النقد مصطلح الأدب الإسلامي بالشرح والتفسير، فهو في أول عهده، للتمييز بينه وبين أدب الجاهلية، وإن شئت الدقة: الأدب الذي أنتجته فترة صدر الإسلام وعصر الدولة الأموية، تمييزاً له عن الأدب الذي أنتجته الجاهلية<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: دراسات في النقد الأدبي: ص ٢٢٠-٢٤٣.

(٢) انظر: دراسات في النقد: ص ١٥١-١٧٤.

(٣) المصدر السابق: ص ١٥٢.

بيء أن الإطار الزمني وحءه لا يقءم تفسيراً كافياً لمفهوم المصطلح، إذ إن كلُّ أءب عربي كتب بعء الإسلام حتى يومنا هذا، يمكن أن يندرج تحت مفهوم المصطلح، وليس هذا فحسب، بل يمكن القول بأن كلُّ أءب كتبه المسلمون بغير اللغة العربية يُعدُّ أءباً إسلامياً، وعلى هذا يمكن القول بأن الأءب الإسلامي هو: ((الأءب الذي يكتبه أيُّ أءبٍ مسلمٍ آياً كانت لغته))<sup>(١)</sup>.

بيء أن توسيع مفهوم المصطلح على هذا النحو، لا يءءد في ءقة مفهوم هذا الأءب، ويوسع من ءائرته، بحيثُ يغءو مفهومه فضفاضاً واسعاً، وهو أمرٌ يجافي المنهج العلمي الذي ينشء ءقة والموضوعية في قضاياه وموضوعاته ومسائله، وعلى هذا فإنَّ الأءب الموصوف بأنه إسلامي ينبغي أن يعبر عن هذا المضمون، فليس الإطار الزمنيُّ وحءه كافياً في ءءيء مفهوم المصطلح، إذ يتسع الباب معه لءخول ألوان من الأءب لا ءتفق في غاياتها ومراميتها والغايات والمرامي والأخلاق الإسلامية الحميدة، وعلى هذا فالأءب الإسلامي هو ((أءب له خصائصه الفكرية والفنية، التي تعبر عن شخصيتنا الإسلامية وءراثنا، وقاعءته الفكرية التي ينطلق منها هي الإسلام))<sup>(٢)</sup>.

أو هو في عبارة أكثر ءءيءاً ووضوحاً: ((الءعبير عن النظرية الإسلامية الشاملة للكون والوجود، فلا يتصاءم معها، أو يخالفها في أية جزئية من جزئياتها وءقائقها))<sup>(٣)</sup>.

(١) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(٢) ءراسات في النقد: ص ١٥٢.

(٣) المصدر السابق: ص ١٦٧.

وهذا التعريف الأخير تتوصل إليه الدراسة بعد عرض لموقف الإسلام من الشعر، وارتباطه بقضية الصدق والكذب في الشعر، وموقف النقد منها، وآراء النقاد الغربيين والعرب فيها، كما يأخذ البحث في عرض نصوص من الشعر العربي، اجتمع لها جمال الفن وصدق التعبير، بحيث عبر الشاعر العربي المسلم في صدق عن معتقده، في شعر جمع بين جمال الفن وصدق الالتزام<sup>(١)</sup>.

أمّا عن موضوع ((المحاكاة في الشعر الجاهلي)) فقد عرف النقد اليوناني القديم المحاكاة مصطلحاً نقدياً يعتمد فكرة الاحتذاء، بمعنى أن يجتذي الشاعر النماذج الشعرية الجديدة بالاحتذاء أو المحاكاة، وقد أصبحت هذه الفكرة أساساً من الأسس النقدية في عصر النهضة<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان ذلك كذلك، فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة في شعر الجاهلية، بل كيف يمكن تفسير الظاهرة في شعر الشاعر الواحد، دون أن يكون هناك ثمة ما يشعر بالتكرار الذي يبعث على السأم.

ينتهي البحث إلى أن إحساس الشعراء الجاهليين صادق في تكرار المعاني الكلية، وأنهم حين يتعاورون المعنى الواحد في أوصاف محددة، يديرونه في صياغة جديدة أو متقاربة<sup>(٣)</sup>.

ويتناول الناقد بالشرح والتفسير والتعليل أمثلة متعددة من الأشعار الجاهلية، ليدعم بها رأيه، فالنقد في غاية أمره ما هو إلا عملية تفسير دقيق للمثال الأدبي،

(١) انظر ذلك تفصيلاً في الصفحات من ١٦٨، ١٧٣ في دراسات النقد الأدبي.

(٢) دراسات في النقد: ٢٢٠-٢٢١.

(٣) المصدر السابق: ٢٢٢-٢٢٣.

واستيفاء الأحكام النقدية من خلاله، لتأييد حكم ما فيه أو نقضه، وهو ما فعله الناقد هنا، حيث أورد مجموعة وافرة من الأشعار في أغراض متعددة تشابهت فيها الأوصاف، واختلفت الصياغة والتعبير اختلافاً ما، على النحو الذي أبانت عنه الدراسة.

### خامساً: التنوع والشمول

بأن بما عرضنا له من سمات الدرس النقدي، أن هذا الدرس تناول أنماطاً شتى من ميادين الدراسات الأدبية والنقدية، بل تعدى هذا الإطار الأكاديمي المحدود، ليتناول قضايا فكرية عامة تتصل بالفكر الإسلامي في الشريعة والسياسة والدين، وهي أمورٌ تمم جمهرة القراء العرب والمسلمين، ويتعدى نطاقها دائرة المتخصصين في الدراسات الأدبية.

كما رأيناه يفرد جانباً منه لمعالجة بعض مظاهر النقص والقصور التي تعتور حياتنا الثقافية والفكرية، وبذلك يسهم في تقديم وتوجيه دفعة الحركة الثقافية ليس على مستوى مصر فحسب، بل على مستوى البلاد العربية قاطبة<sup>(١)</sup>.

كما لاحظنا أن قسماً كبيراً من المقالات النقدية أفرد لنقد الفنون الأدبية (أو الإبداع الفكري) في الشعر والقصة أو المسرح، وآخر لنقد بعض الأبحاث والدراسات الإسلامية والأدبية والنقدية، بحيث غطى النقد جميع مظاهر النشاط الفكري والإبداعي الذي يجوز للناقد العمل فيه، وبحيث يترك انطباعاً راسخاً في نفس القارئ، أن مجموع هذه المقالات، يعالج كافة الشؤون والقضايا الفكرية

(١) انظر على سبيل المثال: حياتنا الأدبية والثقافية إلى أين تتجه، مقالات في النقد الأدبي: ص ١٣-

والأدبية التي يستشعر هذا القارئ أهميتها، ومن ثمَّ حاجته إلى مَنْ ينير له الطريق، بما يقدِّم له من آراء سديدة إلى ما يرضي به حاجة نفسه وذوقه الفطري بما قدَّم له من نصوص الأدب شعراً ونثراً، مشفوعة بتحليلاتها الأدبية الراقية، مؤيداً بما رؤاه النقدية الصائبة.

وبعد ذلك فتلك لمحة عامة، أحسب أن ثمة قصوراً شديداً يسمها، بيد أن الباحث لا يملك إلا أن يتقدَّم بها -على ما بها- إجلالاً وتقديراً وعرفاناً ووفاءً لأستاذه، داعياً المولى أن يجعله على الدوام قيس نور وخير وهدى، ينهل من عمله عارفو فضله، والله المستعان وله الحمد في الأولى والآخرة.



منهج الدكتور هدارة بين التأصيل والتجديد ونشدان الحقيقة:

رؤية في كتاب دراسات في الشعراء العرب المحدثين

د. صالح حسن اليطي\*

دهش بعض طلاب المعرفة وشدة الأدب، حين وقفوا أخيراً على التنظيم الدقيق الذي يأخذ به الأستاذ نجيب محفوظ حياته اليومية، وربما غلب على ظن أولئك وهؤلاء أن العمل الأدبي - دراسات وإبداعاً - إن هو إلا موهبة خالصة، يستسلم صاحبها لاثيالات الانفعال، أو لتحليلات الأفكار، باسطاً راحتيه في انتظار ما تجود به توهجات الخيال وأحلام اليقظة.

والحقيقة أن العمل الأدبي - خاصة الأكاديمي - أبعد ما يكون عن هذا التصور، وقبل بضع سنين، حاورني زميل بشأن ثالث لنا، فأنبأني - والعهددة على الراوي - بأن العلة فيما انتابه من شطط كامنة في شعوره الزائد بالنفس، وبتقدير الذات المتجاوز لإنتاجه العلمي، ووجدتني آنفذا أردد من فوري لنفسي ومحاورني: إذن فما الذي يتعين على الدكتور هدارة أن يظنه بنفسه، مقيساً كمّاً وكيفاً وشهرة وخبرة وتعدد رؤى، إلى صاحبنا ذاك، وما عهدنا الرجل إلا الأستاذ المعطاء في صمت، خير الرعاية لمريديه وطلابه وعارفي فضله، وهم بالمئين، في حذب وإيثار، ينبع من خيرات الأكاديمية والإبداعية والتنظيمية المتكاملة منهله\*

\* أستاذ الأدب العربي - كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

عذب، يرده من شاء، في تخصصات الأستاذ المتعددة وفي سواها، ليجد الرئي العذب، والهداية الراشدة الثاقبة.

ومن الثابت أن للأستاذ -فضلاً عن ذلك- قدرة باهرة على التنظيم والمتابعة، وجلداً ثابتاً على المواصلة والإنجاز في مهام كثيرة مؤتلفة ومختلفة، ولا نقول سوى ما يقر به الجميع، إذ ننوه بما أفضت إليه مناقب التفوق والتميز تلك في شخصية الأستاذ من تعجب الآخرين البالغ منه، وإعجابهم العميق به في آن معاً.

ولقد اتفق القدر والاختيار المتبصر على تكريس الأستاذ لأداء دوره الريادي هذا، إذ نرصد ابتداء مسيرته الأكاديمية محاوراً جاداً للتراث، بمنظور الناقد مؤرخ الأدب المتكئ في الأساس على النصوص، فينجز على رأس دراساته المخصصة لجوانب خطيرة من التراث دراستيه الرائدتين: مشكلة السرقات في النقد العربي، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، وهو في ذلك الإبان غير منقطع التواصل بالأدب الحديث في العربية وفي الآداب الأوروبية.

ثم نراه -دون انقطاع عن التراث تأصيلاً وتدريساً وإشرافاً- يركز على دراسة الأدب العربي الحديث، شعراً ونثراً، بمختلف فروعها وقضاياها الإبداعية والنقدية، والمؤثرات الضاربة بجذورها في الإبداع، سواء أكانت تراثية أم وافدة، يعضد من تميز هذه المنجزات خبرات ثمينة متصلة بالقديم على ما نوهنا، ونظائر لها بالشعر والنثر الأوربيين، من حيث الأصول والتطور، والمذاهب النقدية والنفسية والإيديولوجية المرتبطة بها، والمؤثرة فيها قديماً وحديثاً.

أضف إلى ذلك قدرات الأستاذ الإبداعية في الرواية والشعر، فمن المتفق عليه أن لتمييز العطاء النقدي وأصالته صلة وتعلقاً بقدرات الناقد الإبداعية إن كان كذلك، وهذا حق لا مرية فيه، إذ من غير الوارد أن يتساوى المجددون وسواهم، في مجال يرتكن التفوق فيه لا إلى الدراسة الأكاديمية المنهجية فحسب، بل بدرجة لا تقل عن ذلك إلى القدرات الفردية في استيحاء المناهج، واستخلاص القضايا، وقراءة النصوص، والاستنتاج منها، والبناء عليها، فضلاً عن الصياغة الجمالية المؤدية في ميدان يعتمد اللغة وسيلة وغاية في الوقت نفسه، والرجوع إلى عشرات الكتب والبحوث المؤصلة والناقدة والمقارنة للتراث العربي، شعره ونثره، من عصره الجاهلي وحتى العصر الحديث. يؤكد تجلّي الركائز آنفة الذكر، من سمات التفوق ومقامات الريادة في عطاء الأستاذ.

أقول قولي هذا، إذ أجدني في رحاب سفر نقدي مهيب من عطاء الأستاذ، يأخذ الآن مكانته المرموقة بين دراسات الشعر العربي الحديث، إنه كتاب ((دراسات في الشعراء العرب المحدثين)) والكتاب يجزأه، وبصفحاته التي تقارب الألف، يعد وثيقة فنية وأدبية بالغة الدلالة على ثراء تناولات الأستاذ لقضايا الشعر العربي الحديث، خاصة أنه اختيارات من أعمال أشمل منه بطبيعة الحال، يقول الدكتور هدارة في المقدمة، كاشفاً عما يتغيها من الكتاب، وعن صلته بإنتاجه أكثر في نقد الشعر الحديث وتقويمه وتوجيهه: ((وقد رأيت أن أتخير في هذا الكتاب عدداً من البحوث، لأيسر الاطلاع عليها للمتخصصين والدارسين، فهي متكاملة في اتجاهاتها، وفي تعبيرها عن القيم المعنوية والفنية، التي يزخر بها أدبنا الحديث في شتى إبداعاته الشعرية، ولا شك في أن هذه البحوث، تتناول ظواهر فنية في إبداع شعراء، أو ملامح فكرية في إنتاجهم، أو ترسم ملامح

للحركة الشعرية في بيئة أخرى، وتنوع البحوث في دراستها لشعراء من أقطار عربية مختلفة، ينتمون إلى مذاهب أدبية متفرقة، ولكنها تعبر في مجموعها عن رؤية موضوعية، تؤكد منهجية البحث الأدبي، وإن التزمت الحدود الفكرية لكتابها)).

والتدقيق في التواريخ دال على اشتغال الأستاذ بقضايا القديم والحديث منذ البداية، ودون انقطاع عن هذا أو ذاك، فقبل نحو أربعين سنة كتب عن (التجديد في شعر المهجر) بما أفاد ووجه إلى غير قليل من قضايا هذا الشعر، ثم كتب عن (تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان)، ثم كتب دراساته في الشعراء العرب المحدثين، تلك التي اختار منها موضوعات الكتاب الذي بين أيدينا، ثم يضيف إلى رصيده الثري في تناول الأدب وقضايا كتابيه: (مقالات في النقد الأدبي) و(دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق)، هذا فضلاً عما نشر له في الدوريات المخصصة، والكتب التذكارية من بحوث في المحدثين من شعراء العرب.

وقد عمد الأستاذ إلى إقامة دراساته التطبيقية للإبداع الشعري العربي الحديث، على مقدماتها النظرية التي وجهتها، وأوحت بخصائصها في الشك والمضمون، فكتب -في إيجاز دال- مدخلاً رصد فيه حركة الشعر العربي الحديث منذ إرهابها الأولى، ومحاولتها التخلص من آثار فترة التراجع، ثم نبه إلى عوامل تطورها التي أثمرت تبلورها في مدارس واتجاهات فنية شتى.

وقد يكون سهماً مشيراً إلى الجهد العلمي الشاق الذي مكّن من هذا الإنجاز الضخم، أن نتأمل موضوعات مجلدي الكتاب وفقاً لترتيب ورودها، فقد عالج الأستاذ في المجلد الأول القضايا والبحوث التالية بعد مقدمته للكتاب.

أولاً: مدخل إلى الشعر العربي الحديث ومراحل تطوره، وفيه ركز القول في الآتي:

- عصر الانحسار.
- بداية الشعر الحديث.
- بين الإحياء والتقليد.
- طلائع الرومانسية.
- الرومانسية العربية في أوجها.
- الاتجاه الواقعي.
- الواقعية والشعر الحر.
- الرومانسية المعاصرة.
- تجارب رمزية وسريالية.
- ظواهر واتجاهات جديدة.

ثانياً: دراسات في الشعراء العرب المحدثين:

- البارودي والذوق الأدبي في مختاراته.
- شوقي والبناء الدرامي في مسرحيته مجنون ليلى.
- محمد سعيد العباسي والفكرة الوطنية في شعره.
- حسين منصور وريادة تحديد في ديوانه (الشاطئ الصخري).
- عاشق النور الثائر على الاستعمار، مصطفى وهبي التل.

- الشابي بين الحقيقة والخيال.
- التيجاني يوسف بشير وتجربة الشك في شعره.
- القوس العذراء لمحمود شاكر، رؤية في الإبداع الفني.
- عبثة الحياة في شعر العدواني.
- ديوان ذكريات شباب للدكتور عبد القادر القط والشعر الجديد.
- نزار قباني وقصته مع الشعر.
- صلاح عبد الصبور، بين التراث والمعاصرة.
- الفيتوري عاشق إفريقية.
- الإنسان في شعر نازك الملائكة.
- محمد المهدي المجدوب بين الرومانسية والواقعية.

### وفي المجلد الثاني عاجل الموضوعات التالية:

- جيلي عبد الرحمن في الجواد والسيف المكسور.
- شعر أحمد السقاف وقضايا النضال القومي.
- شعر عبد المنعم الأنصاري بين التراث والمعاصرة.
- اتجاهات الشعر المعاصر في الخليج العربي.
- صلاح أحمد إبراهيم في (غابة الأبنوس).
- الانتماء في الشعر العربي المعاصر من خلال تجربة فتحي سعيد.

- أحمد السمرة، الشاعر والإنسان.
- رموز الطبيعة في شعر محمد إبراهيم أبي سنة.
- التزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث.
- محمد عثمان صالح، في ((الصمت والرماد)).
- عبد العليم القباني: السيرة والشعر.
- إسماعيل عقاب في ديوانه ((هي والبحر)).
- ظواهر موضوعية وفنية في شعر إبراهيم صبري.
- التخيلية الأدبية وارتباطها بالنص الإبداعي في الشعر العربي الحديث.
- عبد الله شابو. و((أغنية للإنسان)).
- شعر حميدة، رؤية في داخل أعماق الإنسان.
- الشاعر الطيب: الزين عباس عمارة، في ديوانه: ((الضياء والحريق)).
- ظاهرة الغموض في القصيدة العربية المعاصرة.
- عوض مالك وديوانه ((أغنيات في المساء)) بين الرومانتيكية والواقعية.
- شاعر النيل حافظ إبراهيم في ذكراه.

والنظر المتأمل في هذا الجهد النقدي المتميز، لا بد من أن يوقفنا على أن

للأستاذ منهجاً في تناول يتسم بالخصائص الموضوعية التالية:

## ١- الموسوعية الثاقبة المنقبة

ويتجلى ذلك على نحو باهر في:

أولاً: المدى الزمني الذي محصته الدراسات، وهو مدى يكاد يكون القرن العشرين بتمامه.

ثانياً: الشعراء الذين شخّصوا هذا الزمن وتشخص بهم، وهم:

من المصريين: البارودي، وشوقي، ومحمود شاكر، وعبد القادر القط، وصلاح عبد الصبور، وكمال نشأت، وعبد المنعم الأنصاري، وفتحي سعيد، وأحمد السمرة، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وعبد العليم القباني، وإسماعيل عقاب، وإبراهيم صبري، وحميدة عبد الله حميدة، وحافظ إبراهيم.

ومن السودانيين: محمد سعيد العباسي، وحسين منصور، والتيجاني يوسف بشير، ومحمد مفتاح الفيتوري، ومحمد المهدي المجذوب، وجيلي عبد الرحمن، وصلاح أحمد إبراهيم، ومحمد عثمان صالح، وعبد الله شابو، والزين عباس عمارة، وعوض مالك.

ومن التونسيين: أبو القاسم الشابي.

ومن السوريين: نزار قباني، وأدونيس.

ومن العراقيين: نازك الملائكة.

ومن الكويتيين: أحمد مشاري العدواني، وأحمد السقاف.

ومن السعوديين: أحمد قنديل، وماجد الحسيني، وحسن قرشي، ومحمد الفهد العيسى، ومحمد حسن فقي، ومحمد بن علي السنوسي، وسعد البواردي، وحسين سرحان، وإبراهيم الدامغ، وأحمد عبد الجبار، وطاهر زمخشري، وأحمد راشد المبارك، وإبراهيم العلاف.

ومن الخليجيين: حمد أبو شهاب، وسلطان خليفة الحبثور، ومانع سعيد العتيبة، وهاشم الموسوي، وأحمد راشد سعيدان، والشيخ صقر القاسمي، وسلطان بن علي العويس، وسيف بن محمد المري، وعارف الشيخ، وعمر المرزوقي، وعبيد موسى حارب، ومحمد خليفة بن حاضر، وناصر النعيمي، وأمينة عبد العزيز، وحصه عبد الله، ومنى سيف، وميسون صقر، وشهاب غانم، وجمعه الفيروز، وحبیب الصايغ، ورؤى سالم، وابتسام سهيل، وإبراهيم الهاشمي، وأحمد أمين المدني، وعارف الخواجة، وأحمد راشد ثاني، وجعفر الجمري، وخالد بدر عبید، وخالد الراشد، وظبية خميس، وعادل الخزام، وعبد الله صقر أحمد، وفرج يوسف مختار.

ثالثاً: المذاهب والاتجاهات الفنية التي أبدع في هديها الشعراء سالفو الذكر، وقد تناولها الأستاذ بالتدقيق الباحث المحمص، وهي:

الإحياء الكلاسيكي، والرومانسية، والواقعية، والرمزية، والسريالية، وشعر التفعيلة وقصيدة النثر، والحداثة والبناء الدرامي، والترعة الصوفية، والتخييلية الأدبية، وظاهرة الغموض، والانتماء والشك والعبث، والترعة القومية.

وعلى ذلك فإنه يصح لنا اعتبار سفر الدكتور هدارة موسوعة معرفية ذوقية وفنية. يؤصل فيها للإبداع الشعري العربي الحديث بتمامه من خلال بسط القول.

تنظيراً وتطبيقاً في أبرز شعرائه محمولين على التيارات الفنية والمذاهب الأدبية والنقدية، التي ظهرت وتطورت واصطُرعت في ساحة الوطن العربي خلال هذا القرن العشرين.

## ٢- الشرعية النقدية المدعومة بحجة التأصيل والتجديد

فعلى الرغم من استحالة حياد الناقد، وتنحية ذوقه واتجاهاته الفكرية عن مجال نقده، فإن للنقد المنهجي معالم وأسساً تكفل شرعيته وقبه حجته، منها الارتكاز في تحليل الآراء إلى نظريات نقدية لها وجاهتها، والاعتماد على إيراد النصوص لتدعيم التنظيم بالتطبيق، والاستعانة بالتحليل والمقارنات، وبدهي أن عمدة ما أسلفناه تحصيل الناقد نقده بالرجوع إلى المصادر والمراجع ذات الشأن فيما يتعلق بموضوع نقده.

إن التوازن الحميد بين ما قد يبدو للنظرة العجلى، أو للنفوس المغرضة، من المتناقضات، يؤدي - إن دققنا النظر - إلى الاستقامة والانسجام، فضلاً عن استمرارية الحياة نفسها، فهذا هو الكون الفسيح أماننا، شاء له خالقه - جل شأنه - أن يستقيم بين سالب وموجب، وشروق وغروب، وليل ونهار، ومد وجزر، وخير وشر، وجسد وروح، ولا خلاف بين العقلاء على أن شطط أي من المتناقضات آفة الذكر على نقيضه قمين بتدمير الكون واعتوار الحياة الإنسانية بالخلل، حتى في ثنائية الخير والشر، إذ كيف تتضح خيرية الأختيار دون وضعهم على محك الشر واختبارهم بالردائل؟ ولذلك كان للإنسان الخير على الملائكة أنفسهم درجة.

ومردود ذلك في النقد المتبصر، ما ترصده في منهج الأستاذ من الجدل الداعم بين التأصيل والتحديد، وشرعية التأصيل عنده مرتكزة دوماً إلى مرجعيتها التراثية المتفق على حجيتها، لا إلى النوازع الشخصية، ويمثل الدليل على ذلك في رجوع الأستاذ إلى المراجع والدواوين التالية:

- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لابن تَعْرِي بِرْدِي ٦/١.
- فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی ٦/١.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ٦/٢.
- وفيات الأعيان لابن خلکان ٦/٢.
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٨/١.
- ديوان أبي تمام ٧٥/١.
- اللزوميات لأبي العلاء المعري ٧٧/١.
- ديوان مسلم بن الوليد ٧٨/١.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٧٩/١.
- ديوان بشار ٧٩/١.
- مقالات الإسلاميين للأشعري ٣٥٩/١.
- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للفخر الرازي ٣٥٩/١.
- النجاة لابن سينا ٣٥٩/٢.
- الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٢٦٩/٢.

- اليواقيت والجواهر للشعراني ٢/٢٩٨.
- الرسالة القشيرية ٢/٢٩٨.
- الشفاء لابن سينا ٢/٣٧٢.
- الإشارات والتحديدات لابن سينا ٢/٣٧٢.
- رسائل إخوان الصفا ٢/٣٧٢.
- الفتوحات المكية لابن عربي ٢/٣٧٣.
- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ٢/٣٧٣.
- منهاج البلغاء لحازم القرطاجني ٢/٣٧٣.
- ديوان الفرزدق ٢/٤٣٥.
- الموشح للمرزباني ٢/٤٣٥.
- شرح مشكلات شعر أبي الطيب لابن فروجة ٢/٤٣٦.
- البيان والتبيين للجاحظ ٢/٤٣٧.
- العمدة لابن رشيق ٢/٤٣٧.
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ٢/٤٣٧.
- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/٤٣٨.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ٢/٤٣٩.
- التعريفات للجرجاني ١/٣٥٨.

- رسالة أبي إسحاق الصابي ٤٣٨/٢ .

- البرهان في وجوه البيان للحسن بن وهب ٤٣٩/٢ .

والرجوع إلى تلك المصادر الأصول في بحوث عن الشعر الحديث - ليس له من دلالة إلا أن بصر الأستاذ وبصيرته لا يريمان البتة عن فلسفة التأصيل والتواصل، ويشيحان دوماً عن موبقات الانقطاع، وأنه المؤمن بأن بذور الحديث غالباً ما تكون في القديم، وأن إرهاباته بدأت من هناك، ومن المتيسر النظر في بحوث الأدب الحديث شعره ونثره، لنجد كثرتها الكاثرة نادرة التعويل على المصادر التراثية إن لم تكن معدومة.

فحين يتناول الدكتور هدارة التزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث، تقتضيه منهجية البحث أن يحزر المصطلح مما قد يعتريه لدى بعض الدارسين من غموض - بأن يربطوا مطلقاً بين التزعة الصوفية في الشعر، وبين التصوف الإسلامي وحده، فيقول: ((إذا ذكر التصوف بلسان عربي، اتجهت الأفكار بصورة مباشرة إلى التزعة الصوفية في الإسلام بكل تاريخها القديم والحديث، ومبادئها وفرقها وأعلامها، وليس الأمر كذلك فيما أردت الكتابة عنه، فإن ما أعنيه بالتزعة الصوفية التصوف بمعناه العام، من حيث هو استبطان منظم لتجربة روحية، ووجهة نظر خاصة تحدد موقف الإنسان من الوجود ومن نفسه والعالم، وهو بهذه الصورة ظاهرة إنسانية عامة ليست محدودة بدين أو بحدود مادية زمانية أو مكانية)).

ومن ثم يمكن القول بأن التجربة الصوفية قد تنشأ بعيدة عن الدين... إلى أن يقول: ((ولا ينفي المفهوم الإنساني العام للصوفية وجود تأثير المفهوم الإسلامي

الخاص في الشعر العربي الحديث، بل وجوده في الاتجاه الصوفي بصفة عامة))  
٦٥/٢.

ثم يعمد في سياق تحرير المصطلح مما يحتاج عليه به بعض الدارسين، بأن يضيفوا إليه ما ليس منه فيقول: ((ونظراً لنفور أدونيس من المنطقية، وإعجابه بكل تمرد على الأعراف والفكر الديني، يشيد بالحلاج والسهورودي وابن الراوندي الزنديق، ثم يورد عن أدونيس نصاً في سياق التعمية المقصودة نفسها: وغيرهم من المفكرين والفلاسفة الذين ثاروا على التقليدية في الفكر الإسلامي، تردد في كتاباتهم القول بقدوم العالم، خلافاً للتعاليم الدينية، وإنكار الخلق المستقل، والنبوة والوحي، وصار لديهم حب المعرفة للمعرفة ذاتها، وحس البحث والثقة بالعقل الإنساني أنه قادر على اكتشاف الحقيقة بقوته هو، لا تلقيناً ولا إحياء))  
٦٧/٢) يورد الأستاذ هذا النص على أدونيس، لينتهي إلى كشف مادسه في كلام التصوف الإسلامي فيقول: ((و لم يقل واحد من المتصوفة أنه ضد التعاليم الدينية، ولا ينبغي قط أن نفهم التصوف على أنه - في كل اتجاهاته - ثورة على التعاليم الدينية كما قرر أدونيس)) ٢٦٧/٢.

ولما كانت النفس محور التجربة الشعرية الصوفية، نرى الأستاذ يحرص على بسط التصور الإسلامي لها عند المتصوفة والمتكلمين، فيرجع إلى أبي الحسن الأشعري وفخر الدين الرازي وابن حزم بهذا الخصوص فيقول: ((والحقيقة أن النفس كانت موضع خلاف بين المتكلمين والمتصوفة، فالذين اعتمدوا على المذهب المادي أنكروا النفس، ومنهم من قال: إنها جسم أو عرض لجسم، ومنهم من قال: إنها مزاج وتأليف بين الطبائع.

أما الذين نزعوا مترعاً روحياً فقد قالوا: إن النفس ليست جسماً ولا عرضاً لجسم، ولا مكان لها في الحقيقة، وليس لها طول ولا عرض، ولا تماس شيئاً ولا يماسها شيء، ولا يجوز عليها الحركة والسكون والألوان والطعم، ولكن تجوز القدرة والحياة والإرادة، وأنها تحرك البدن بإرادتها ولا يماسها، أما النفس والروح عند المتصوفة فهي جوهر مادي من طبيعة إلهية، وهو لذلك يترع إلى العودة إلى مبدئه يدفعه الشوق والحب)) ٢/٢٦٩.

ثم يورد منحي ابن سينا في هذا الخصوص فيقول: ((وقد ذكر ابن سينا أن كل موجود طبيعي مكون من مادة، وبما أن الإنسان موجود طبيعي، فهو إذن مكون من مادة وصورة، المادة هي البدن، والصورة هي النفس غير مادية)).

وفي بحث الأستاذ عن التخيلية الأدبية، نرصد نهجه الثابت في التأصيل، ونراه يورد اجتهاد المتصوفة في هذا الشأن فيقول: ((وكان للمتصوفة إسهام قوي في بحوث التخيلية، فقد عدها الإشراقيون ضرباً من المعرفة، وتصورها ابن عربي في الإنسان مرآة تعكس ما ينطوي عليه العالم الأكبر من عناصر ودقائق)) ٢/٣٧٢.

ثم يتبع ذلك بما أضافه البلاغيون العرب فيقول: ((ولا شك في أن البحث في التخيلية عند الفلاسفة والمتصوفة، قد تسرب إلى النقاد والبلاغيين الذين كانت تشغلهم من النصوص الإبداعية صورها التي تعد أثراً حياً للقوة التخيلية، ويرى عبد القاهر الجرجاني أن المعنى التخيلي هو الذي لا يمكن أن يقال: إنه صدق، وإن ما أثبتته ثابت دوماً وما نفاه منفي، وهو لا يحيطه تقسيم لأنه كثير المسالك، ويجعله في مقابل المعنى العقلي الذي يتفق العقلاء على الأخذ به والحكم بموجبه، وهو بذلك لا ينظر إلى التخيل إلا في حدود الصدق والكذب، وفي إطار المبدأ

الأخلاقي الذي يفصل بينهما، ويتبع حازم القرطاجني الفلاسفة في حديثه عن التخيل، ويقسمه إلى نوعين: ضروري وغير ضروري، ووقوعه في أربعة أنحاء: من جهة المعنى، ومن جهة الأسلوب، ومن جهة اللفظ، ومن جهة النظم والوزن، وهو لا يجاوز كثيراً بحوث غيره من النقاد والبلاغيين العرب الذين ربطوا بين التخيل والإدراك، والذاكرة والإيهام، وقضايا الصدق والكذب، واللفظ والمعنى، والمبدأ الأخلاقي الذي ينبغي أن يؤول إليه النص الإبداعي)) ٣٧٤/٢.

وفي تناوله لظاهرة الغموض يصنع الصنيع نفسه، بأن يعرض ما ورد بالتراث العربي متصلاً به، فينبه إلى الغموض الذي لفت نظر النقاد في بعض رجز رؤبة، ويورد البيت الشائع نموذجاً للتعقيد، وقد مدح به الفرزدق إبراهيم بن هشام المخزومي خال الخليفة هشام بن عبد الملك:

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمه حي أبوه يقارُبُه  
ليقول: ((شبه الناقد هذا البيت وأمثاله برقى العقارب، وحذرومة العزائم، نظراً لتداخل المعنى نتيجة سوء الصياغة التعبيرية، فالملك هو هشام بن عبد الملك والضمير في أمه يعود على هشام، والضمير في أبوه يعود إلى الممدوح الذي يتصل بالملك لأنه خاله، فالشاعر فصل بين (أبو أمه) وهو مبتدأ، و(أبوه) وهو خبره بأجنبي، وهو (حي) وكذلك فصل بين (حي) و(يقاربه) وهو نعت، بأجنبي وهو (أبوه)، وقدم المستثنى على المستثنى منه، ٤٣٥/٢.

ويورد الأستاذ نظائر هذا في التراث عن المرزباني (٤٣٥/٢، ٤٣٦)، ويشير إلى أن الغموض قد ينشأ من استخدام الكتابة بالرمز استخداماً غير مألوف، يتسع لمعانٍ كثيرة، من ذلك قول إبراهيم بن هرمة:

لا أمتع العوذ بالفصيل ولا أتباع إلا قريصة الأجل  
وقد يكون ناشئاً عن عدم الترابط في الجمل واتساع الدلالة وغرابة الصورة،  
وكان أبو تمام والمنتبي بطلي هذا المضمار، حتى إن أبا العميثل قال لأبي تمام حين  
سمع قوله في بداية إحدى قصائده:

هن عوادي يوسف وصواحه فعزما فقدا أدرك السُّؤْلَ طالِبُه  
لِمَ لا تقول يا أبا تمام من الشعر ما يفهم؟

وينبه إلى أن بعض النقاد الأقدمين قد عزا الغموض عند أبي تمام إلى إيجاز  
شعره الذي يقصر به عن أداء المعنى: أو إلى إثارة من البديع ما يحاول أن يفرغ  
المعنى في صورة بحيث يتعد عن المباشرة.

كما يورد ما نحا إليه ابن فورجة في كتابه (شرح مشكلات ديوان شعر أبي  
الطيب) من إرجاع الغموض في بعض شعره إلى استخدامه الغريب من اللفظ،  
والذي يؤدي جهل القارئ أو السامع معناه إلى البعد عن تصور غرضه، أو إلى  
شعره الذي يعميه إعرابه لمجاز فيه، وحذف في اللفظ أو تقديم وتأخير.

ويورد كذلك تباين مواقف النقاد القدامى من قضية الغموض، وإن كان  
مذهب العرب في الشعر هو الوضوح، ففي البيان والتبيين يعرف الجاحظ البيان  
بأنه (الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي) ويقول: (لا خير في كلام لا يدل على  
معناه، ولا يشير إلى مغزاه، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه  
نزعت) ويؤكد أن المعاني تحيا بالتعبير الذي يُقربها من الفهم ويجليها للعقل، ويجعل  
الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والتعبير قريباً)) ٤٣٧/٢.

ويقول أبو هلال العسكري: (لا خير في غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد) ويطلب ابن رشيق القيرواني الشاعر بأن يلتمس له من الكلام ما يسهل ومن القصد ما عدل، ومن المعنى ما كان واضحاً جلياً يعرف بدياً، فقد قال بعض المتقدمين: شر الشعر ما سئل عن معناه.

وينبه الدكتور هدارة إلى أن الآراء سالفة الذكر في الغموض مستقاة من عمود الشعر العربي الذي نظر للقواعد الفنية المتبعة في أشعار العرب.

وشرط الإيجاز المطلوب عند العرب، ألا يفضي إلى الغموض والتعقيد، ويعرف ابن سنان الخفاجي الإيجاز بأنه اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة، لا أن يكون من التأمل ودقيق الفكر، فإن هذا عيب في الكلام، ٤٣٧/٢.

وقد عقد الآمدي موازنة بين أنصار مذهب الغموض وخصومه، فرأى أن التزام الاستعارة والطباق والتحنيس يستر المعنى ويوقع في الغموض، وأن أحسن ما في الشعر صحة العبارة، وانكشاف المعنى، وقرب المأخذ، كذلك رأى أن المعاني الدقيقة التي تغرب بها الشاعر، والتي استقاها من الفلسفة أو من مبالغته في توليد الأفكار، تؤدي إلى الغموض.

ثم يورد تمييز أبي إسحاق الصابي بين الشعر والنثر، وذهابه إلى أن الترسل هو ما وضع معناه، والشعر ما غمض معناه، ويفسر ابن أبي الحديد ما قصده الصابي بالغموض، فيقول: إنه كلما كانت معاني الكلام أكثر، ومدلولات ألفاظه أتمّ كان أحسن، ولهذا قيل: خير الكلام ما قل ودل، وتحت هذا التفسير ينضوي بيت البحري:

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبته فكأن الغموض الذي حسنه الصابي هو الذي اتجه إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني في (أسرار البلاغة) إذ استحسّن الغموض على أساس دقة الفكرة وعمقها، وهو يرجع هذا الاستحسان إلى طبيعة نفسية، يقول: (من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاستبقاء إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان أحلى، وبالميزة أولى، وكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف) ٤٣٨/٢ أما الغموض الذي يجيء نتيجة تعقيد الأسلوب، وسوء ترتيب العبارة، واختلاف النظم، فهو الغموض المذموم المستهجن عند عبد القاهر، لأنه يكد الذهن فيما لا طائل تحته، (بل ربما قسم فكرك وشعب ظنك، حتى لا تدري من أين تتوصل وكيف تطلب).

ثم ينبه الأستاذ إلى الصلة التي قامت بين الغموض والرمز عند العرب، وأن الإمام الجرجاني عقد لذلك فصلاً في دلائل الإعجاز سماه (فصل في اللفظ يطلق والمراد غير ظاهره)، ويقول: إن لهذا الضرب اتساعاً وتفناً لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين: الكناية والمجاز، ويقول: (وكذلك كانت الكناية عند العرب أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، والمجاز أبلغ من الحقيقة) ٤٣٩/٢.

ويفسر ابن وهب الكاتب الرمز تفسيراً لغوياً بأنه (ما أخفي من الكلام) ثم يتجه به اتجاهاً باطنياً فيقول: (وإنما يستعمل المتكلم الرمز في كلامه فيما يريد طيه عن كافة الناس، والإفصاح به إلى بعضهم).

وأخيراً ينبه الأستاذ إلى صنيع الصوفية في استخدام الرمز، وجنوحهم به إلى مزيد من الغموض، ويورد قول القشيري في رسالته: (إنهم يستعملون فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإخفاء والستر على من بينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها). ثم يضعنا الدكتور هدارة على المحجة حين ينص على ركيزة التأصيل في منهجه، ويربط بين الأسباب والنتائج عنده وعند غيره فيقول: (وإذا كنت قد عرضت ظاهرة الغموض في الشعر في العصور القديمة، سواء أكان ذلك عند الأوروبيين أم العرب (وكان بالفعل قد عرضها عند الأوروبيين من زمن اليونان قبل أن يعرضها العرض الذي أومأنا إليه عند العرب) فما ذلك إلا لتأصيل الظاهرة ومعرفة جذورها ومعالمها القديمة). وأما ما يتغياه الرجل من هذا التأصيل فيتضح تماماً في قوله: ((أما وجود هذه الظاهرة في القصيدة العربية المعاصرة، فهو لا يمت بصلة إلى تراثنا القديم إلا من حيث التزعة الباطنية الصوفية، وفيما عدا ذلك يمت بأوثق الأسباب إلى الفكر الغربي، الذي بدأ يتسلل إلينا منذ الحملة الفرنسية على مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وأخذ يفرض سلطانه شيئاً فشيئاً على عقول بعض مفكرينا وأدبائنا الذين بهرهم النموذج الغربي في الحياة بخيره وشره، فشبوا على عتباته، وطعموا فتاته، واستطاعت الفلسفات الغربية، وما تفرع عنها من مذاهب أدبية، كانت إفراساً طبيعياً لهذه الفلسفات من جهة، وللتطور الذي حدث في أوروبا في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية من جهة أخرى، أن تسود حياتنا الفكرية، وتفرض على عقول أدبائنا، فنبعوها في تسليم، دون أن يتمعنوا في مراميها، أو يوجدوا لها صفة تلاؤمية مع ظروف مجتمعهم، بل مع انتمائهم للإسلام والعروبة)) ٤٤٠/٢.

أما المراجع الحديثة التي أفاءت الشرعية والحجية على أداة الأستاذ النقدية، فهي عدد هائل من دواوين الشعر والدراسات النقدية والبلاغية، والدراسات النفسية والفلسفية والجمالية، بحيث لا يمكن إيرادها في دراستنا هذه، وليس للمرء إلا أن يراجعها بصبر وأناة في حواشي بحوث الكتاب الضخم ودراساته، بيد أننا نورد المراجع الأجنبية التي رجع إليها الدكتور هدارة، في لغاتها الأجنبية، أو في ترجمتها العربية، ومغزى صنيعه هذا عندنا لا يخفى على المتأمل، ودلالته على أن الجدل بين التأصيل والتجديد عند ذاك الأستاذ التزام منهجي لا يجيد عنه، فالحقيقة لديه لم تكن أبداً مرادفة للتعصب، أو سجينة للجهل، والواثق من قضيته لا ينكفي على نفسه، ولا يخشى الآخر، بل يحاوره فيقنعه، أو يقتنع به، لقد رجع الدكتور هدارة في بحوثه وتقويماته النقدية إلى المراجع الأوروبية التالية:

- تكوين العقل الحديث لرائدال.
- التراجيديا الشكسبيرية ترجمة حنا إلياس.
- الإنسان.. ذلك المجهول لألكسيس كارل.
- مغامرات الأفكار لألفريد ثورن هواينهد.
- Sullwon, H.S: Conceptions of modern psychiatry.
- Lovejoy, Arthur, O: The great chain of deing.
- الغرب والعالم، تأليف كيفن ريلي وترجمة، د. عبد الوهاب المسيري وهدي حجازي.
- الحدائة تأليف برادبري وماكفرلين.
- حاضر النقد الأدبي، ترجمة الدكتور محمود الربيعي.

- فن الشعر لأرسطو ترجمة د. شكري عياد.
- مبادئ النقد الأدبي لريتشاردز، ترجمة الدكتور محمد مصطفى بدوي.
- سيرة أدبية لكولردج، ترجمة الدكتور عبد الحكيم حسان.
- Shewart, J: Poetry in France and England.
- The way of the suffi by: Ioris ahah, The oclagon, Press London 1968.
- Encyclopaedia of religion and ethics.
- The Vorieties of religious, Experience, by clernce D.
- Thorpe and others, Southern Illinois university Press.
- الشعر والتصوف، لكولن ولسون.
- أيون أو عن الإلياذة، من محاورات أفلاطون، ترجمة د. محمود صقر خفاجة، د سهير القلماوي.
- Spender. S: Warld within warld
- Bowra: The herilage of Symbolism.
- Stauffer: Nature of the paetry.
- Empeon: Sever. Thyypes of ambiguity.

### ٣- نشدان الحقيقة بمنهجية الدفع عن الهوية وتعرية مقال الاستلاب

ولعل المدخل الأساسي لذلك، أن يعترف الناقد بأنه ذو فكر محدد يحكم منهجه ويوجه تناولاته النقدية، وقد أقر الأستاذ صراحة في مقدمة الكتاب، ولنا أن نتأمل الفكر الحضاري الذي أعلنه الدكتور هدارة أنه ملتزم بحدوده، ولم يفصح عنه اعتماداً على تجليه في نظيراته وتطبيقاته وتناولاته، وأنه فكر الاعتصام،

والاستنفار للذود المستنير عن الدعائم التراثية في الفكر والفن والأدب واللغة، ومعوقات الذات العربية المسلمة، تلك الدعائم والمقومات التي استمدت ديمومتها وصلابتها بمحصها عبر القرون والأحداث والأهواء والصراعات، إلى أن صارت بمثابة الجوهر الثمين الذي ما زادته التراكمات والضغط إلا تألقاً وثناء، فكما ليس لنبات أن يجيا ويسمق إن انبت عن جذوره، فإنه ليس لأمة أن تحيا تحت شمس هذا العالم، ووسط تقلباته الغائرة وغليانه، إلا إن اعتصمت بهويتها، وتشبثت بثوابتها الدينية والأخلاقية والمزاجية، وشدت بالنواجذ وجماع العزائم على تراثها العقدي والفكري والفني المجسد لذلك كله، وكما أنه ليس ثمة ما يمنع - بل من المرغوب فيه بالضرورة - أن يستحصد النبات وأن يأتي أكله، بأن تضاف إليه العناصر المواتية والمخصبات المفيدة الآمنة، فضلاً عن أن تستنبت منه ثمار جديدة مباركة ومشتهاة، وهو في ذلك - عند ذوي الخبرة المتبصرة والإخلاص الحميم، لا بد من أن يوقى السموم والآفات والهوام والحشائش والأشواك الشيطانية، التي إن هي استشرت، ثم تمكنت، صارت قمينة باضمحلالة، ثم تدميره - فكذاك ليس ثمة ما يمنع من أن تفيد أمة من الأمم من لدن غيرها بالمأمون الصحيح الضروري الملبى حاجات العقول السليمة، والنفوس السوية، والأذواق الثقفة، في سياقات السلوك والنظم والعلوم والفنون والآداب.

يتحدث دكتور هدارة عن مقال التآثير السيريلي في القصيدة العربية الحديثة فيقول: ((وأصبحت القصيدة عند أصحاب الاتجاه الجديد مغرقة في الغموض والضبابية، وعبارة عن نفضات عقل مشوش يسجل كل ما يعرض له في اللاشعور من أفكار أشبه ما تكون بحزافات الأحلام، وصور يصعب حتى على الشاعر أن يبين مدلولاتها، كقول عصام ترشحاني في قصيدته (أبراج الحلم الأسود) ٥٩/١:

وتخلف

وفي ليل الحضارة

أين كنت

رأيت وجهك عارياً

والنار فوق جموحه

حبلى

بفاكهة الجحيم

ورأيت آلهة

تقامر في سريرك

لا أقول

رأيت أعضاء الخطيئة.. إلخ ٦٠/١.

ونحن لا نقول عن هذا الكلام إنه نفاث عقل مشوش فحسب، إنما نقول أيضاً: إنه تقليد آلي للكلام، لا نقطع بأن له ما يبرره يقيناً لدى قائله الأوروبيين أم لا، ولكننا نقطع بأنه منبت الصلة تماماً بماضي النفس العربية وحاضرها، وأنه لا يتواصل فنياً أو لغوياً مع المعدين بقراءته أو سماعه، وأنه متنافر بالكلية مع مفاهيم علم نفس الإبداع من ناحية، ومفاهيم علم الجمال من ناحية أخرى.

ويكشف الأستاذ الروابط الفاسدة بين عناصر الحداثة، وأن كلاً منها آزر الآخر، فالانقطاع عن التراث غاية، وقصيدة النثر وسيلة موصلة لتلك الغاية يقول

في ذلك: ((وقد مال أدونيس في كتاباته الأخيرة إلى إسقاط الحاجز بين الشعر والنثر، واشترك مع يوسف الخال في محاولة بناء القصيدة العربية بناءً جديداً تسقط فيه كل روابط التراث)) ٥٩/١.

ثم يعمد الدكتور هدارة إلى سلم الذريعة التي تسربت منها الحداثة إلى عقول الشباب وأفكارهم، على زعم أنها تعني التجديد فيقول: ((والحداثة لا تعني التجديد بصفة عامة، بل هي مذهب يقوم على مبادئ النفور من كل ما هو متواصل، عقيدة ولغة وتراثاً وأصولاً فنية، وأدب الحداثة غير واقعي، وخال من المضامين الإنسانية، يركز على القضايا الأسلوبية والشكلية بدعوى النفاذ إلى أعماق الحياة، ويحطم كل الأطر التقليدية والشخصية الفردية، ويتبنى رغبات الإنسان الفوضوية التي لا يجدها حد، والغموض أساس في شعر هذا المذهب، لأنه يقوم على التفكك Disassociation وليس على الترابط، وتتفق الحداثة مع المذهب السيريايالي في الاعتماد على الكتابة الآلية Automatic الصادرة عن اللاوعي والبعيدة عن رقابة العقل، وقد أفاد هذا المذهب من تيارات فكرية مثل المستقبلية والرمزية، وكانت نشأته نتيجة عوامل سياسية واقتصادية وفكرية أصابت الإنسان الغربي بالإحباط، وألقت به في الضياع، وقد دخل مفهوم الحداثة ضمن المذاهب الأدبية الغربية التي دأب الشعراء العرب على محاكاتها واستزراعها في بيئتنا العربية، وكان أدونيس (علي أحمد سعيد) في مقدمة الذين روجوا لها، وقد صرح في كتابه (الثابت والمتحول) قائلاً: (لا يمكن أن تنهض الحياة العربية، إذا لم تنهض البيئة التقليدية السائدة للفكر العربي، وإلا إن تخلص من المعنى الديني التقليدي الاتباعي).

وتزخر كتابات الحدائين العرب بأفكار الحدائة الغربية، التي لم تزد عن كونها اتجاهًا شاذًا طارئًا في الفكر الغربي، فتردد فيها عبارات الانقطاع المعرفي، عدم التواصل، التمرد، التجاوز، رفض كل ما يمت للعقل والمنطق، تغيير الحياة عن طريق الحلم، علاقة الشاعر بالسحر والأسطورة والبداية والرؤيا والنبوءة ورفض الواقع، يقول (كمال أبو ديب) عن الحدائة: ((إنها تجاوز الواقع أو اللاعقلانية، أي الثورة على قوانين المعرفة العقلية وعلى المنطق، وعلى الشرعية من حيث هي أحكام تقليدية تعنى بالظاهر. هذه الثورة تعني التوكيد على الباطن، وتعني الخلاص من المقدس والمحرم، وإباحة كل شيء للحرية)) ٦٤/١.

ويستمر الأستاذ في الكشف الصريح عن المدلول الحقيقي للحدائة، وبالتالي عن أهدافها الدينية والثقافية والاجتماعية المتوخاة، وبأقلام كبار سدنتها العرب فيقول: ((وهذه الثورة الحدائية تتخذ الأدب غطاءً ظاهرياً يخفي ما تحته، إذ يصرح أدونيس في مقابلة، موضحاً طبيعة الثورة التي ينادي بها: ((من الضروري اختراق الأوضاع الراهنة، وهذا يتطلب بطبيعة الحال نضالاً طويلاً وصعباً، ولكن لا بد منه، وإن تطبيق هذه الفكرة لا يتحقق بالثورة الاقتصادية، ولا بالثورة السياسية وحدهما، وإنما لا بد من ثورة ثقافية جذرية، تهز كيان مجتمعا، وتغير علاقة الإنسان العربي بالعالم والأشياء))، ثم يكشف أدونيس عن فهمهم المقلوب لمسلمات متفق عليها في تاريخ الأدب العربي من خلال نزعتهم التجريدية المصادرة للواقع ولطبيعة الأشياء فيقول: ((إن مجمل الإبداع العربي في العصر الحديث اعتنى بقضايا تتعلق بالتححر الاجتماعي، وهي قضايا سطحية، إن ما نسميه الآن بشعر الانحطاط، هو بالقياس إلى ما نسميه بشعر النهضة، هو النهضة الحقيقية الواعدة، ذلك أنه يقول على الأقل لغة جديدة، وطريقة جديدة في

التعامل مع الأشياء، وأنشأ أسلوباً متميزاً، وخرج للمرة الأولى على النمط الجاهلي، وبالتالي على نموذج العقلية التقليدية... وبهذا المعنى فإن (شوقي) هو أول شاعر أسس الانهيار)... ويعلق الدكتور هدارة على هذا الخلط بقوله: ((هكذا تغير الحدائة حقائق تاريخ الأدب على أساس مخالفتها لكل ما هو معقول ومنطقي، فيصبح شعر فترة الانحسار الثقافي بكل ما فيه من عقم فكري وتقليد مبتذل، ومضمون تافه وركاكة في الأسلوب شعراً حديثاً يستحق أن ينسب إلى النهضة، أما الشعر الإحيائي الذي أعاد صلته بينايع التراث، وعبر عن نفوس شعرائه وقضايا أمتهم، فقد صار مخلطاً)). ويستمر الأستاذ في تسميته أشياء الحدائة بأسمائها وليؤكد في الوقت نفسه أن للإبجائيات الثقافية العربية وثوابتها العقديّة والفنية والفكرية من يدافع عنها، ويتصدى للقاصدين إلى قتلها عمداً أو عرضاً. بعد أن صرنا إلى زمن غاب فيه المنافحون عن الشأن العربي سياسياً واقتصادياً، فيورد تأكيد أدونيس على عناصر حدائته الغربية، بتصريحه بأن (نيتشه) يمثل له رمزاً ثقافياً، لأنه (زلزل القواعد الثقافية الأوروبية) كما أن إعجابه باتجاه نيتشه الإلحادى جعله يقول: (إن القرآن هو خلاصة ثقافية لثقافات قديمة ظهرت قبله) ثم كشف عن نزعة الحدائة الباطنية، وتناقضها مع الدين، قائلاً: ((أنا لا أنكر أبى متأثر بالترعات الصوفية التي أعتقد أنها أعمق ما في الفكر العربي، وأنا لست متأثراً بها دينياً، وإنما إبداعياً، أنا مثقف (لائكي) (أي لا ديني) وإنما عجبت كيف يمكن لمثقف لائكي أن يتأثر بذكر الطوائف، أنا أبني تمييزاً لصوفية بين ما يسمونه الشرعية وبين ما يسمونه الحقيقة، إن الشرعية هي التي تتناول شؤون الظاهر، والحقيقة هي التي يعبرون عنها بالخفي والباطن، ولذلك فإن اهتمامي صوفي بالمجهول، وبما يأتي ويتغير باستمرار، وهذا ما يتناقض مع الدين)) ٦٥/١.

ثم يلخص الأستاذ إلى تحديد التأثير المدمر الذي ألحقته الاتجاهات الحدائية آنفة الذكر بفرق من شباب الشعراء العرب، أعوزتهم الخبرة والوعي المتصل بمسار الثقافة العربية ومكوناتها، فضلاً عن الثقافات الأجنبية، وتياراتها ومراميتها العقدية والثقافية والاجتماعية المعلنة والخفية، ومن ثم حسبوا السم عسلاً، وتصوروا أن الحدائة مجرد تجديد في شكل الشعر ومضمونه، يقول الدكتور هدارة: «وكان من نتائج وجود هذا التيار في شعرنا الحديث، ما نلاحظه من الضعف المزري في صورته الفنية، وفي خيال شعرائه وتفاهة لغتهم، وافتقار قصائدهم إلى حرارة الواقع وصدق الإحساس، وانعزالهم عن قضايا أمتهم، وغياب الرؤيا المتفردة لكل منهم، بحيث صارت قصائدهم نموذجاً حديثاً تتكرر فيه كل سخافات الحدائة بطغيانها التجريدي البارد اللاعقلاني، وانقطاعها عن التواصل مع القارئ بما فيها من غموض هو غاية في ذاته، ورموز وأساطير مستعارة من ثقافة غريبة عنا بدعوى عالمية الثقافة، أضف إلى ذلك أن الشعر في هذا الاتجاه صار بضاعة من لا يملك في الشعر موهبة، فيكفي أن يكتب كلاماً مبهماً غامضاً منقطعاً يدل على غياب العقل، نافرماً من اللغة وقواعدها، غير ملتزم بأي شيء يفرضه فن الشعر، ليصير شعراً حديثاً)) ٦٥/١.

ونقول نحن بأنه ليس لامرئ أن يسم أدونيس وأبا ديب والماغوط وأضرابهم أو يصممهم بالجهل، فهم مثقفون تماماً بلا شك، بيد أن ثقافتهم تستمد من خزان ماء آسن يستقر في غير هذه الأرض، ويستلهم من مذاهب وظواهر فنية أجنبية متشعبة، بطلت حيث نشأت، وليس لبذرة أن تنبت وأن تأتي أكلها في غير بيئتها الحاضنة وتربتها المواتية، وفي الخمسينيات والستينيات جرب ذوو السلطة زرع الشمولية الشيوعية في هذه التربة، فلم يقبضوا إلا على الريح وباؤوا بالخزي المبين

إرهاصاً بأهيار الشيوعية في مواطنها الأولى، والحقيقة أن التجديد سنة الحياة، وفعله مستمر دون توقف بفعل دواعيه الطبيعية وأسبابه الحضارية، وليس ممكناً الآن الحديث عن حركات التجديد الحميدة التي استوعبها الشعر العربي شكلاً ومضموناً عبر تاريخه الطويل.

وتجدر الإشارة إلى أن دعاة الحداثة في العالم العربي ليسوا مستلبيين فاقدى الهوية فحسب، بل هم -فضلاً عن ذلك- أسرى ماضي الغرب، ومنكفنون على بعض تيارات أدركوها وتحصنوا بها لا يستطيعون تجاوزها، ومن ثم فهم من هذه الوجهة ضد التجديد، أضف إلى ذلك أنهم لا يعرضون مما لدى الغرب إلا جانباً يناسبهم، يفعلون ذلك عن عمد فيما أتصور لا عن جهل، فالثابت أن كبار مبدعي الغرب قد أدانوا مبكراً ما في الحداثة من غموض وانقطاع عن التراث وهدم للعقل، ومن هؤلاء المبدعين فرجينيا وولف وت. س. إليوت، ومن الواضح أن أدونيس حينما دعا في (الثابت والمتحول) إلى تحطيم الموروث الثابت، أي التراث، وجعل ذلك محور كتابه، من الواضح أنه لم يخلط بين التحديث والحداثة فحسب، وإنما نقول أيضاً: إنه فهم عكس ما كانت تدعو إليه حركة الحداثة في جوهرها، فعندما سئل إليوت عن الفرق بينه وبين شكسبير، قال: ((إنه هو شكسبير)) فقيل له: لكنك أبعد مما كان يراه، فرد قائلاً: ((ذلك ببساطة لأنني واقف على كتفيه)) فإليوت إذن لم يدع إلى تحطيم شكسبير، ذلك الموروث الثابت كما يدعي أدونيس، وفي السياق نفسه، قالت فرجينيا وولف: ((وإن كان لنا معركة مع السيد ويلز أو السيد بينيت، فإنها معركة تتمثل في أن لنا رؤية جديدة بالنسبة للتراث، تلك الرؤية تتمثل في استبقائنا منه لا في التنكر له)) فمن الواضح إذن أن مفهوم كل من إليوت وولف للتراث، مغاير تماماً، بل مناقض، لما دعا إليه أدونيس وأبو ديب.

ولا بد في هذا المقام من التنبيه إلى أن كبريات هيئات التحكيم الأدبي والفني في العالم لا تصدر المفهوم الحضاري السوي للتفوق في الإبداع، إنما تصدر عنه بكل تأكيد، فروايتا (مائة عام من العزلة) و(أولاد حارتنا) لماركيز ومحموظ - وربما كانتا أبرز الأعمال الأدبية الفائزة بنوبل في الحقبة الأخيرة - تصدر كل منهما عن استلهام التراث والتأمل فيه والبناء عليه، الأولى في كولومبيا، والثانية في المنطقة العربية، وحين فازت مصر أخيراً بالجائزة الكبرى في بنالي فينيسيا ١٩٩٥، جاء في حيثيات الفوز أن الجائزة الكبرى تهدى إليها لأن نجاحها يقدم رؤية واضحة، تداخلت فيها العمارة مع النحت والتصوير، في تقديم عمل يعبر عن الهوية الثقافية لمصر، من خلال مزج التراث بالفن الحديث، وذلك تأسيساً على أن موضوع البينالي هذا العام هو (الهوية الثقافية بين الذاتية والعالمية)، فعالمية الإبداع إذن - إن كانوا لا يعلمون - لا تتعارض في موضوعاتها ولا في حيثيات أحكامها مع التراث ولا مع هويات المبدعين والأوطان.

ولعل فيما نهت إليه من قرارات نوبل وبينالي فينيسيا الأخير، ما نعتده رداً كافياً على واحد من المحاورين عقب ندوة أحيرة ألقاها الأستاذ في أتيليه الإسكندرية عن تيار الوعي في الرواية العربية، وأكد فيها من خلال موضوع المحاضرة فحجها الثابت في كشف دعاوى التغريب والهدم والاستلاب باسم الفن، إذ ذهب السيد المحاور إلى أنه يكاد يتوقع أن تمنح جائزة نوبل التالية في الأدب، إلى رواية تكرس التعميم والانقطاع ونفي التراث وتكريس هدم العقل، وحسبنا أنه يعول على توقعات ظنينة يدحضها الواقع، وأن نخيله نحن على أحكام نقدية عالمية رفيعة المستوى، لها حجية حيثيات وقوة الحقيقة.



## ما بين الأصالة والمعاصرة من خلال دراسات في النقد الأدبي

### بين النظرية والتطبيق

د. علي حمدي علام

إن مقالات الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة ومحاضراته التي جمعها في كتابه ((دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق)) تعبير عن أصالة عربية ممتدة الجذور، وحسّ إسلامي يُنشدُ من ورائه أدبٌ عربيٌّ خالصٌ، يخضع لنظرية نقدية تجمع ما بين الأصالة العربية والمعاصرة، المعاصرة البعيدة عن الشعبية قديماً، والحداثة والتغريب حديثاً، لما فيها من عتب وهزل وعداوة تستهدف القضاء على العربية لغة القرآن الكريم والإسلام والمسلمين.

لقد بدأ أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة كتابه هذا بنقد الحداثة التي تسللت إلى حياتنا الأدبية، وارتبطت في أذهان معظم الأدباء والباحثين بحركة الزمن المندفعة إلى الأمام، فظن البعض أنها محاولة للتجديد في مجالات الإبداع الأدبي شعره ونثره (الشعر الحر، قصيدة النثر - إسقاط نظام السرد أو وجود البطل في الرواية الحديثة، أو من خلال الثورة على القواعد الكلاسيكية في المسرحية)، كل ذلك دون التنبه إلى مكنونها الحقيقي الهدام، الذي لا يقتصر على الإبداع الفني أو النقد الأدبي، ولكنه يعم الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية والفكرية على السواء.

ولما كانت الحداثة ترتبط في نشأتها وفي مفهومها بالفكر الغربي، وتعبّر عن التحول الحضاري في أوروبا وأمريكا وواقعها التاريخي، وأن العالم العربي لم يعرفها إلا من خلال استيراده الذي لا ينقطع لنظم الحياة الغربية، ومنتجاتها الإعلامية والفنية، ومن ملبس ومأكل جنباً إلى جنب مع الأسلحة المتطورة، والوسائل التكنولوجية وأدوات الرفاهية المباحة وغير المباحة، كان من الضروري أن يبين لنا مفهوم كل من الحداثة والعصرية عند الغربيين والفرق بينهما.

فيقول عن العصرية ((Modernity)) وهي التي تعني إحداث تغيير وتغيير في المفاهيم السائدة المتراكمة عبر الأجيال، نتيجة تغير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن، وإن هذه الحركة العصرية بدأت في أوروبا مع عصر النهضة دون محاصرة بينها وبين التراث، بل لقد جعلت منه في اتجاهها الفكري أصلاً من أصولها.

أما الحداثة ((Modernism)) بمفهومها الاصطلاحي فهي اتجاه جديد يشكل ثورة كاملة على ما كان، وما هو كائن في المجتمع، ويستشهد على ذلك بأقوال الباحثين الغربيين على ما في هذه الحداثة من خطورة، فيذكر وصف أحد الباحثين الأوروبيين لها بأنها زلزلة حضارية عنيفة، وانقلاب ثقافي شامل، وأنها جعلت الإنسان الغربي يشك في حضارته بأكملها، ويرفض حتى أرسخ معتقداته المتوارثة.

وتعريف باحث أوروبي آخر للحداثة بأنها شغف بالمجهول، يؤدي إلى تحطيم الواقع، ووصف أحد المبشرين بما فتنتها وخطر تأثيرها، فيقول: إن فتنة الحداثة لا يمكن أن تقاوم حتى عندما تقود إلى السأم والانحطاط أو الموت البطيء.

أما عن نشأة الحداثة، فيروي ما قاله بعض الباحثين الأوروبيين أن الشاعر الفرنسي شارل بودلير (١٨٢١-١٨٦٧) هو أول من قدم في مجال الأدب صياغة نظرية الحداثة، وهي تقوم على أساس أن كل ما هو مظلم بائس منحط في النظرة السائدة التقليدية، يصبح في منظور الحداثة فاتناً مثيراً.

ويخلص من عرض آراء الباحثين الغربيين لها إلى أن المفهوم الذي حددته الثقافة الغربية للحداثة يتعارض مع مذاهب الواقعية والرومانسية والكلاسيكية، ويتآلف مع التجريدية، والتأثيرية، والتعبيرية، والرمزية والتكعيبية، والسيرالية إلى حد ما، وهو يبدو في مظهره غريباً عن الفكر الماركسي، ولكنه في الحقيقة وثيق الصلة بهذا الفكر، وقد قيل: إن ماركس بحث عن المطلق والخفي في التاريخ وفي العلاقات الاجتماعية حتى خرج بنظريته، وهذا هو المنطق نفسه الذي صدر عنه أصحاب الحداثة، وتتفق الحداثة مع الماركسية اتفاقاً كاملاً في الثورة على المفاهيم السائدة في مجتمع ما، وعلى تقاليد وراثته، وفي محاولة هدم كل ما هو أصيل وثابت فيه، وتأتي العقيدة في مقدمة ذلك، ولهذا لا يستغرب بأن يكون معظم الداعين للحداثة من العالم الغربي من الشيوعيين المعروفين مثل: لوي أراجون، وهنري لوفيفر، وأوجين جراندل وغيرهم.

ينتقل بعد ذلك إلى إظهار العوامل التي ساعدت على ظهور الحداثة في المشرق العربي، والخطوات الأولى لتسللها إلى أدبنا وأفكارنا، إلى أن ظهر الذين صنعهم الغرب على عينه، وقطعهم من جذورهم العربية، وأقام جداراً بينهم وبين تراثهم، فيقول:

((لقد تعرض العرب منذ عهد الحملة الفرنسية على مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي لهزّة عنيفة كانت بداية التنافر بين مفهوم التراث والمعاصرة، إذ فتحت منافذ الحضارة لتتسلل إلى الحضارة العربية المسلمة، فظهر التناقض واضحاً بين حياة مزدهرة متحضرة في ظاهرها، وحياة يرين عليها الخمول والتخلف بعد أن ظلت حبيسة الاحتواء العثماني، ولا يكاد يسمح لها بالتطور في علومها وصناعاتها أو في عناصر ثقافتها، ولا يتيح الأخذ بأسباب المعاصرة ووسائلها.

فلما شددت الحملة الانتباه إلى الحضارة الغربية، ظهر التمزق بين الاستمساك بالذات، والعكوف عليه دون غيره، أو الأخذ بالمعاصرة على نمط غربي بسبب الانبهار بالحضارة بكل ما فيها من مظاهر براقة، وتقدم هائل في الحياة الاقتصادية وفي الصناعات والفنون..)).

ويرى أنه مع حركة البعثات التي أرسلت إلى فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي بدأنا.. ((نلاحظ في كتابات رفاة الطهطاوي بعد عودته أنه يحاول أن يصل ما بين التراث والمعاصرة، ويحاول أن يعقد بينهما علاقة تلاؤمية، وسار على نهج رواد كثيرون أمثال: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وخير الدين التونسي)).

ومع توالي البعثات وكثرة المبعوثين يرى أنه قد وقر في عقول بعض أسلافنا في ذلك الزمان، أن تخلفنا راجع إلى انطوائنا على تراثنا، وأنه لا سبيل إلى التقدم بغير قطع ما بيننا وبين ماضيها بكل ما فيه من تراث، والأخذ بأسباب الحضارة الفرنسية، ويقول:

((فإذا تقدمنا إلى فترة الربع الأول من القرن العشرين الميلادي، وجدنا جيلاً يتطلع إلى الفكر الغربي في انبهار، وتمثيل الحياة الأوروبية بكل ما فيها من عناصر الخير والشر، أو سمات الجدية والانحلال، ويغرق في هذا التمثيل الذي يقوده إلى المعاصرة، محرقاً كل وشائج اتصالها بالتراث)).

ومن هنا نرى أن الحداثة في أدبنا قد ارتبطت بحركة الاغتراب، ولذا نجد أستاذنا يرصد حركة الاغتراب في أدبنا، ويتتبع المروجين لها مع الاستشهاد بأقوالهم الدالة على انحرافهم عن التراث، بل إنكار كل ما يربطنا بماضينا وأصالتنا وعقائدنا وقيمنا المتوارثة، ومن تلك الشواهد التي أوردتها، ما قاله ((سلامة موسى)) في كتابه (اليوم والغد):

((كلما أردت خبرة وتجربة وثقافة، توضحت أمامي أغراض في الأدب كما أزاولها فهي تتلخص في أنه يجب أن تخرج من آسيا، وأن تلحق بأوروبا، فإني كلما ازدادت معرفتي بالشرق، زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها، وتعلقني بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها)).

ويسخر سلامة موسى في نفس هذا الكتاب من دارسي كتب العرب والمهتمين بالثقافة العربية، فيقول:

((إن هذا الاعتقاد بأنا شرفيون كالمرض، ولهذا المرض مضاعفات، فنحن لا نكره الغربيين فقط، ونتأفف من طغيان حضارتهم فقط، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية، فندرس كتب العرب، ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب، كما يفعل أدباؤها المساكين أمثال: المازني والرافعي، وندرس ابن

الرومي، ونبحث عن أصل المتنبي، ونبحث عن معاوية وعليّ، ونفاضل بينهما، ونتعصب للجاحظ، وليس علينا للعرب أي ولاء، وإدمان الدرس لثقافتهم مضیعة للشباب، ومقبرة لقواهم)).

بعد الحديث عن سلامة موسى وما جاء في كتابه، ينتقل بنا إلى آراء طه حسين لرسم سبيل النهضة العلمية الحديثة في مصر، والتي نلمح فيها إنكار حضارتنا العربية والتشبث بحضارة البحر الأبيض المتوسط، والدعوة إلى الرجوع إلى التراث اليوناني واللاتيني كما فعلت أوروبا لبناء حضارتها الحديثة، فيرى في كتابه ((مستقبل الثقافة في مصر)) أن السبيل الوحيد لهذه النهضة هو ((أن نسیر سيرة الأوروبيین، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خیرها وشرها، وحلوها ومرها...))، ولما كانت النهضة الأوروبية الحديثة قد قامت في أدها على أساس التراث اليوناني واللاتيني، دعا طه حسين إلى تعليم اللغتين اليونانية واللاتينية ((لا في الجامعة وحدها، بل في التعليم العام قبل كل شيء)).

يرفض أستاذنا هذا التيار المستغرب قائلاً: ((إن هذا التيار المستغرب يدعو صراحة إلى الانقطاع عن التراث العربي الإسلامي، والارتقاء على عتبات الفكر الغربي، ويسوغ العودة إلى تراث لا توجد بيننا وبينه صلة، وهو في معظمه نتاج وثنية ضالة مضلة، وقد وجد من ينكره إنكاراً عنيفاً، لا بدعوى المحافظة على القديم لأنه تراث ينبغي أن تتعبده، بل لأنه تدمير للشخصية العربية المسلمة)).

وتأكيداً لهذا الرفض يشير الدكتور هدارة إلى مهاجمة إبراهيم عبد القادر المازني لآراء طه حسين في كتابه ((قبض الريح))، وتصنيف محمد محمد حسين له

في كتابه ((الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر))، ضمن المتفرنجين الخطرين على العروبة والإسلام.

وعن الظروف التي تشتعل لتنشيط حركة الحداثة والتغريب في وطننا العربي، ولم تنقطع منذ هبوب رياحها في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي حتى الآن - يقول: ((بل هي تشتد من حين لآخر، وخاصة في فترات التمزق السياسي، والتصدع الاجتماعي والاقتصادي، والنكسات العسكرية التي أصابت المسلمين في العصر الحديث، وجد أعداء التراث ممن يجعلون المعاصرة بداية - لا تطوراً ولا اتصالاً- الفرصة سانحة لإطلاق سهامهم وبث سمومهم، مع الاختلاف الشديد في أجناسهم ومعتقداتهم وأفكارهم والغايات التي يرمون إليها)).

لقد تعددت أشكال الهجوم على تراثنا، واهتم الدكتور هدارة بكشف النقاب عن هجماتهم الشرسة التي لم تقتصر على العادات والتقاليد، أو الأساليب والأنماط الأدبية، ولكن ركزت على الدين واللغة.. لما بينهما من علاقة دينية متحكمة تشبه سلطة الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى، ولهذا نادوا بالتححر الديني، ضمن ألوان أخرى من الحريات تستهدف الإطاحة بالأخلاق والفضائل الإسلامية، التي هي سمة شخصيتنا وانتمائنا إلى عقيدتنا وأصولنا العربية، واتخذوا من الهجوم على اللغة الفصحى بمعجمها وقواعدها وبلاغتها وسيلة لإدراك غايتهم.

ويذكر أيضاً من كان منهم يكشف عن غايته بالتهجم على اللغة بوصفها لغة القرآن، فيسميها (اللغة الدينية) ويقول: ((وكانه بذلك لا يقر استخدامها لغة للتواصل بين الناس، حديثاً وفكراً)).

ينتقل بنا بعد ذلك إلى الدعوات التي نادى باستخدام اللهجات العامية في بلادنا العربية استخداماً مطلقاً في الأدب ووسائل الإعلام، واشترك مستشرقين في هذه الحملة الضارية في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، وبين أنهم لا يزالون مشتركين فيها حتى اليوم عن طريق توجيه مبعوثينا إلى بلادهم لدراسة تأصيل هذه اللهجات دون اللغة الفصحى، ولم يغفل ذكر من دعوا إلى اتخاذ حروف لاتينية لكتابة العربية، وإلقاء قواعدها والسخرية من بلاغتها.

لم يقتصر أستاذنا على الإبانة عن هذه الدعوات وإظهار خطورتها، ولكنه بين أثرها السيئ على بعض أدبائنا وشعرائنا الذين آمنوا بتلك الآراء الهدامة، وأصبحوا أبواقاً لها، فيذكر بعضهم مع الاستشهاد بأقوالهم الدالة على انحرافهم عن تراثهم ودينهم ومعتقداتهم.

فمن هؤلاء روائي عربي حديث - هو يوسف السباعي - الذي يطعن في اللغة الفصحى في قواعدها، فيقول: ((يجب أن نتحلل من هذه القيود السخيفة، لماذا كل هذا التعب، لأنَّ العرب منذ ألف سنة رفعوا هذه أو نصبوا تلك.. لنسكن آخر كل كلمة، ونبطل التنوين، ولنقل الجمع بالياء فقط، ونحرم أدوات الجزم والنصب من سلطتها، يجب أن يزول احتكار اللغة بقيودها وقواعدها ونحوها وصرفها.. وعلى أية حال إن لم نحطمها الآن فستحطمها الأجيال القادمة)).

وعن الاغتراب في مجتمعنا المسلم يتحدث عن الشاعر ((نزار قباني)) واتجاهاته الهدامة للدين والأخلاق، فيقول: ((نجد نزار قباني يرى أن (عظمة الشاعر تقاس بقدرته على إحداث الدهشة) ولا بأس عنده أن تطيح هذه الدهشة بالدين والقيم والأخلاق والتقاليد، ونراه سعيداً باللقب الذي أطلق عليه وهو

- شاعر الفضيحة- بل يحاول أن يفلسف الفضيحة فيجعلها معادلة للشعر نفسه، يقول: «ولقد كنت في كل مراحل حياتي، وفي كل كتاباتي متورطاً وراكباً حصان الفضيحة، إن المبدأ الديكارتي المشهور - أفكر فأنا موجود - يأخذ بالنسبة لي صيغة أخرى أكتب الشعر إذن أنا مفضوح)... وهو دأب الدعوة إلى كتابة الغزل الحسي الداعر متبجحاً بأن (شعراء الغزل الحسي في أوروبا وكتاب الروايات المسرحية لا يخوضون حرباً صليبية مع مجتمعهم، كما يخوضها الكتاب العرب) ومن اللافت للنظر أن يذكر نزار من أدباء الجنس الأوروبيين د. هـ. لورنس، وأوسكار وايلد، والأديان لقيا الأمرين من مجتمعها الراض لأدبهما المكشوف، وقد قدما للمحاكمة واصطدما بغضب الكنيسة، وظلت كتبهما ممنوعة من التداول لفترة طويلة من الزمن...)).

لم يقتصر الدكتور هدارة على إيراد نماذج من أفكار نزار قباني الهدامة واستنكارها، وإنما يرد عليه رداً مفحماً برفض الغرب لكتابات من أراد أن يستشهد بهم، ويختم حديثه عنه متعجباً من أمره، ومستنكراً آراءه الهدامة قائلاً: ((فكيف يدس نزار على الشباب هذه الأقوال خداعاً وتمويهاً وإفساداً!! وكيف توجه إلى المسلمين المحافظين على عقيدتهم وأخلاقهم وقيمهم تهمه الرجعية والتخلف، ولا توجه إلى المسلمين غير المحافظين على دينهم وأخلاقهم؟!)).

ولما كان أحمد سعيد ((الملقب بأدونيس)) على رأس المروجين للحدثة، وله دور مرسوم بعناية في تاريخ فكرنا المعاصر، يظهر من خلال بحوثه ومقالاته التي ظهرت في سنوات متوالية، فقد تناول الدكتور هدارة آراءه في أكثر من موضع، وكشف عن حقيقة ما ترمي إليه من فساد وإفساد، فنأخذ منها قوله: ((إن

الحدائثة رؤيا جديدة وهي جوهرياً رؤيا تساؤل واحتجاج، تساؤل حول الممكن، واحتجاج على السائد، فلحظة الحدائثة لحظة التوتر، أي التناقض والتصادم بين البنى السائدة في المجتمع وما تتطلبه حركته العميقة التغييرية من البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها)).

فينقد د. هدارة رأيه هذا قائلاً: ((إن أدونيس في هذا التعريف يكشف عن الوجه الحقيقي للحدائثة فهي لا تستهدف أصلاً الحركة الإبداعية أو النقدية، بل هي مذهب فكري يتمرد على الواقع الاجتماعي، ويثور على الأنظمة السائدة مطالباً بالتغيير، ونراه أكثر وضوحاً في موضع آخر في كتاباته حين يصف الحدائثة بأنها (تجاوز الواقع أو اللاعقلانية، أي الثورة على قوانين المعرفة العقلية، وعلى المنطق وعلى الشريعة من حيث هي أحكام تقليدية تعنى بالظاهر، هذه الثورة تعنى بالتوكيد على الباطن وتعنى الخلاص من المقدس والمحرم وإباحة كل شيء للحرية)).

ويعلق على ذلك قائلاً: ((إن أدونيس في هذا النص أكثر صراحة وجرأة وهو ينقل مفهوم الحدائثة الغربي دون تمويه، وبعد سطوة الحدائثة إلى أبعد بكثير من مجال الإبداع الأدبي والنقد، ليحاول أن يعصف بالشريعة، ويتحلل من كل المقدسات والمحرمات، ليبیح للمجتمع الفوضى والانحلال بدعوى الحرية)).

وفي محاولة أدونيس إيهامنا بوجود ((حدائثة عربية)) معتمداً على مقاييس مستمدة من إشكالية القديم والمحدث في التراث العربي، ومن التطور الحضاري العربي، وادعاء وجود الحدائثة بمفهومها الغربي الخالص في تراثنا الفكري، فيحاول أن يربط ما بين شعر التراث والحدائثة، فيقول: ((أبو نواس شاعر الخطيئة لأنه شاعر الحرية، فحيث تغلق أبواب الحرية، تصبح الخطيئة مقدسة)).

ويحاول أن يوجد أساساً نقدياً يسوغ به الخطيئة عند أبي نواس، بوصفها حادثة حين يقول: ((إن أبا نواس فصل الشعر عن الأخلاق والدين، رافضاً حلول عصره، معلناً أخلاقاً جديدة هي أخلاق الفعل الحر، والنظر الحر، أخلاق الخطيئة))، ويعلق الدكتور هدارة على ذلك قائلاً: ((إن الحادثة بمفهومها الغربي الخالص انقطاع تام عن الماضي وثورة على الحاضر،... في أي زمن وعصر، وعلى أساس فكرة الثابت والمتحول...)).

ولتقصي مفهوم الحادثة عند المروجين الآخرين لهذا المذهب الفكري بين العرب، يتحدث عن خالدة سعيد شريكة حياة أدونيس وفكره ومعتقداته، فيذكر بحثاً لها تفرق فيه ما بين الجدّة والحادثة، فتقول:

((لا يكون الجديد حديثاً بالمعنى الذي استقر للحداثة، إلا إذا كان مطروح القضايا الأساسية للحداثة)). وعن تعريفها للحداثة يذكر قولها: «إنها ثورة فكرية وليست مجرد مسألة تتصل بالوزن والثقافة، أو بقصيدة النثر، أو نظاماً للسرد، أو البطل أو إطار الحدث، أو تغيير الشكل المسرحي»، ويعلق على ذلك قائلاً: ((على الرغم من أنها حاولت في موضوع آخر أن توجد رابطة عضوية بين الحداثة وحركة الشعر الحر)).

وتعرض أيضاً لترديدها ما حاول أدونيس فرض وجوده، وهو ما أسماه ((بالحادثة العربية)) وكشفت في بحثها عن أمرين خطيرين يتصلان بالمفهوم الأصيل للحداثة، وهما العلمانية والماركسية، أما العلمانية فتتمثل في إشادتها بفكر طه حسين وعلي عبد الرازق لأنهما خاضا معركة زعزعة النموذج بإسقاط صفة (الأصيلة) فيه ورده إلى حدود الموروث التاريخي، وتأكيدهما أن الإنسان يملك

موروثه ولا يملكه هذا الموروث..، وتأكيدها للاتجاه العلماني بالإشادة بكل (قطيعة مع المرجعية الدينية والتراثية)، وأما الماركسية فهي توصل علاقتها بالحدثة عن طريق ما تسميه بالوقائع التاريخي الذي تجعل له سلطاناً على الدين والتراث، وأن ماركس نقل الميتافيزيقا إلى المجتمع، وهو ما تصنعه الحدثة.

وفي استعراض المروجين للحدثة وآرائهم، يذكر عبد الله العدوي الذي يلتقي مع خالدة سعيد في إيجاد علاقة بين الحدثة والماركسية، وضرورة إسقاط التراث بكل قيمه وأشكاله، ففي كتابه «العرب والفكر التاريخي» يؤكد اتصال مفهوم الحدثة بالماركسية، فيصور العوائق التي تحول دون انتشار مفهوم الحدثة في المجتمعات العربية التي تعيش في رأيه في مرحلة التأخر والسلفية -وكأنهما صنوان- ويدعو هذه المجتمعات إلى اكتساب الليبرالية من خلال منظور ما أسماه بالتاريخانية الماركسية، وهو يميز بين الماركسية بوصفها منهجاً للتحليل، والماركسية بوصفها واقعاً اجتماعياً.

كما يذكر الدكتور كمال أبو ديب استكمال رسم حدود الحدثة في فكر المروجين لها في العالم العربي، وهو يسير على درب أدونيس وجماعته، ويكشف عن الوجه القبيح للحدثة في كونها رفضاً للسلطة أياً كانت، دينية أم سياسية أم اجتماعية أم فكرية.

ويدعونا أستاذنا إلى التوقف قليلاً لنجلو علاقة الحدثة باللغة، فيقول: ((فأصحاب الحدثة يرون في اللغة أيضاً شبحاً للسلطة التي يكرهون وجودها لكراهيتهم أي نظام سائد)) يقول أبو ديب في ذلك: (الحدثة لا ترى موت اللغة فقط، بل تراها لغة مكدسة محشوة بالسلطة، قوة ضخمة من قوى الفكر المتخلف

التراكمي السلطوي)، ولما كانت اللغة موروثاً، لهذا تصبح مرفوضة من المحدثين، يقول أحد مروجي الحداثة في ذلك: (لغة الحداثة هي اللغة النقيض لهذه اللغة الموروثة)).

وعن أثر الحداثة في انقطاع التواصل بين المبدع والمتلقي، يقول: ((وفي إطار مفهوم الحداثة الذي يركز على الغموض واللغة الإشارة غير المتواصلة، وسقوط النموذج التراثي في المضمون والشكل على السواء تتوالد نماذج الحداثة الإبداعية في الشعر كما تتوالد الخلايا السرطانية في المخ البشري -تاركة نفس الأثر- بعيدة عن التواصل بين المبدع والمتلقي))، ويدلل على ذلك بثلاثة نماذج شعرية لأدونيس، ونموذج لعفيفي مطر بعنوان (قوراد) ونموذج من شعر علي الخليلي في قصيدته (قبل سقوط الثلج وبعده)، ويشير إلى أن آفة الحداثة قد أصابت حتى شعراء الأرض المحتلة في فلسطين الذين ينبغي أن يكون شعرهم شديد التواصل مع الشعب العربي وصادقاً في التعبير، بعيداً عن أسر الضبابية والخطوات المتقطعة في لاوعي الإنسان، ويأتي بنموذج لذلك من قصيدة لمحمود درويش في (قصيدة لبيروت).

ينتقل بنا الدكتور هدارة من أثر الحداثة على الشعر إلى أثرها على الفن القصصي فيقول: ((وانتقلت آفة الحداثة إلى الفن القصصي، فأسقطت منه القواعد الفنية المعتمدة على الحكاية والسرد، والنموذج الإنساني العادي الذي يرتبط بزمان ثابت، ومكان معين ونزعات بشرية واضحة الدلالة والغايات، واللغة الواضحة (التواصلية) لقد أسقطت الحداثة الرؤية الكلاسيكية... كما أسقطت الرؤيا الرومانسية.. بل أسقطت الواقعية أيضاً...، وأصبح الفن القصصي في

اتجاهه الحديث يسجل لحظات شعورية، ويصور ميلاً باطنياً للتعبير عن خطرات التجربة العقلية، وهو ما أطلق عليه في بعض تسمياته (تيار الوعي)، أو قصة الحوار الفردي الداخلي الصامت...، ولم يعد للقصة والحكاية، بداية ووسط ونهاية، ولم تعد لها ذروة وحبكة، وأسقط منها كل نظام سبق أن سار عليه القصاص في العهد السابق للقصة، وأصبح القارئ مطالباً بالتغطية التامة ووحدة الوعي ومحاولة إيجاد نظام من خلال فوضى الأفكار وتبعثرها)).

ويأتي لنا بنموذج لقصة قصيرة لأحد رواد الحداثة بعنوان (مريض) كنموذج لما فعلته الحداثة في الفن القصصي الذي استحال إلى أفكار متقطعة لا رابط بينها، تعبر عنها كلمات بأسلوب برقي، ومع تكثيف الصور المجازية والرموز التي تفرق في الغموض والإبهام.

ومن ناحية النقد الأدبي يقول: ((وقد كان من الطبيعي أن تغير الحداثة - بوصفها اتجاهًا فكرياً ثائراً - حركة النقد الأدبي الأوروبي التي كانت تعتمد على التحليل التاريخي أو البيوجرافي أو الاجتماعي أو النفسي أو الجماعي، فدفننا إلى الاهتمام بالتحليل البنائي والنقد التفكيكي وغيرها من اتجاهات نقدية تتميز بصفة العلمية، وتبتعد إلى حد كبير عن التذوق الأدبي، ولا شك أن هذه الاتجاهات النقدية الجديدة كانت لاحقة على حركة الإبداع على مذهب الحداثة، أو على الأقل واكبتها على أساس أن الوسائل النقدية المألوفة لن تكون قادرة على تحليل النماذج الإبداعية الحديثة، فكان من الضروري استحداث وسائل نقدية جديدة تفسر تلك النماذج، بيد أن فتنة الحداثة الغربية التي أصابت بيئتنا العربية لم تراع

المنطق للأشياء، فكانت بما لا يدع مجالاً للشك عدم وجود ما يسمى بالحدائثة العربية، وأنها حدائثة غربية مفروضة على مجتمعنا. فكان النقد سابقاً للإبداع)).

ولقد تناول أستاذنا الحدائثة والاعتراب في أكثر من مقال، وأكثر من محاضرة فالقضية هامة وخطيرة تستحق مجهود الناقد الحصيف الحريص على دينه ولغته وتراثه الفكري وقيمه لبيان مخاطرها ومضارها، ولذا اهتم بالحديث عنها منذ نشأتها في أوروبا عقب الحرب العالمية الأولى بسبب ما أصاب أوروبا من خراب ودمار، وما حل بها من فوضى وفقدان الإيمان لدى الإنسان، وتتبع خطوات انتقالها إلى عالمنا العربي منذ الحملة الفرنسية إلى أن ظهر الذين صنعهم الغرب وأصبحوا أبواقاً له في عالمنا المعاصر، ناقداً لآدابهم وأعمالهم الأدبية، لذا طال الحديث وتشعب، وبالتالي عرض لآرائه لإظهارها لمن لم يطلع على الكتاب ليستفيد منها كل شاعر وأديب ومثقف.

أما عن المعاصرة التي يقبلها أستاذنا وسبق ذكر مفهومها في بداية المقال فهو يؤكد في حديثه عن الصراع بين القديم والجديد، فيقول: ((فالقديم والجديد عنصران مهمان من عناصر الحياة، فليس هناك جديد بديل بلاقديم، ولا يعرف قديم بغير جديد، والتجديد لا يعني التغيير المطلق، بل يعني تطوراً في بعض العناصر المكونة للموجود، مع بقاء الهيئة الأصلية والأساس القديم، ولا تصح الحياة النفسية لمجتمع إلا بالتمازج والتفاعل بين القديم والجديد)).

ويؤكد هذا المعنى فيقول: ((إن العلاقة بين القديم والجديد في وجه من وجوها علاقة زمنية، فالزمن يحتوي بالضرورة على ماض وحاضر ومستقبل، فإذا قلنا المعاصرة وجب أن تكون متصلة بما قبلها، بحيث تنشأ علاقة جدلية بين

الماضي والحاضر، تقوم على الأخذ والعطاء، أو علاقة شرطية يكون فيها القديم شرطاً لقيام الجديد)).

ويرد على الباحثين الذين يجعلون معنى المعاصرة (أن لا يتأخر الإنسان عن زمنه ولا يتقدم عليه)، وإنما يعيش فيه ويتكيف به، ويجعل من الوسائل عناصر تزيد التصاقه بالحاضر، فيقول: ((ولكن هذا المعنى لا يتحقق إلا إذا استمد الإنسان من قديمه عناصر يعيد تشكيلها وفقاً لحاضره، مع إيجاد أشياء لم تكن موجودة، وهذا القول لا يصح على المعارف الأدبية والعلوم الإنسانية، بل لا يصح أيضاً على العلوم الطبيعية التي تحدث فيها تغييرات هائلة، وبرغم ذلك يجعل العلماء للقديم فيها دوراً لا ينكر، وأساساً للبحث والنظر ثم البناء عليه)).

وعن استخدام اصطلاح (القديم) بدلاً من (التراث)، يقول: ((فذلك لأن القديم هو المعنى الأصيل للتراث من جهة، ولأنه نقيض الجديد لغة، وإن لم يناقضه معنى ووجوداً، بعد أن أدركنا البعد الزمني الذي يربط بينهما)).

ويرد على ما يروجه المبطلون من أصحاب الانتماءات الشاذة بأن الإسلام عقبة في طريق التقدم، فيقول: ((لم تكن العقيدة الإسلامية الصحيحة في أي وقت من تاريخها الطويل عقبة في طريق التقدم والتجدد... ولم يدع الإسلام للانعزال والانغلاق، بل يشارك المسلمون أمم الأرض حضارتها وثقافتها، دون أن يفقدوا انتماءهم الإسلامي والعربي، فهذا الانتماء وحده هو الذي يعصمنا من فتنة الارتقاء على عتبات الغرب ومحاكاة نزعاته المنحرفة، فالدين كما يقول الدكتور محمد محمد حسين: (ليس قبيراً في حقيقة الأمر، لأنه لا يعطل العقل، ولكنه يحفظه

من الضلال، ويلزمه أصولاً وقواعد، هي كالسور الذي يعصم السالك في الظلام من التردّي في الهاوية...)).

ومن هنا يرى ((الدين بقرآنه وسنته وأصوله وفروعه قمة التراث وذروته وهو شامخ بثباته، لا يجري عليه ما يجري على عناصر التراث الأخرى من الأخذ والترك.. وهو ديباحتنا وطابع شخصيتنا ولغتنا ووسيلتنا إلى الحفاظ على ديننا، وعنصر أصيل من عناصر شخصيتنا وانتمائنا، وسيلنا إلى فهم تراثنا، وليس هناك أمة معاصرة لها مثل هذا القدر من تراثنا)).

ويرى أن الإبداع الحقيقي الذي يسعى إليه الأدب الأصيل ليس نقلاً لتجارب الآخرين مهما تكن قيمة هذه التجارب، فكيف بها وهي تجارب شواذ خارجين على مجتمعاتهم، ولا يقصدون منها غير الهدم وإشاعة الفوضى وتدمير عقل الإنسان واستقراره الاجتماعي وأمنه النفسي.

ومن خلال استعراضنا لآرائه النقدية تجاه الحداثة والمعاصرة نستطيع أن نستخلص اتجاهات أستاذنا الدكتور هدارة الأدبية والنقدية التي تجمع ((ما بين الأصالة والمعاصرة))، والتي يجب على كل أديب حريص على تراثه أن ينتهجها ويلتزم بها.



obeikandi.com

## رواية المنصورة بين الإبداع والتأريخ

د. محمد أبو الفضل بدران\*

مقدمة:

الرواية هي لحظة تأريخ لزمان في ذاكرة المبدع، ولذا فإننا قبل أن نحلل رواية المنصورة ينبغي أن نلقي نظرة تاريخية حولها.

وقد حظيت موقعة المنصورة ١٢٤٩م باهتمام المؤرخين والأدباء إذ ارتبطت في أذهان بعض الأدباء بقصة بطولة الشعب المصري الذي أهمله المؤرخون، وركزوا على دور السلاطين والمماليك، كما أنها ارتبطت بدور شجرة الدر التي قادت زمام الأمر - على خلاف في حجم دورها بين الأدباء. فقد كتب جورجى زيدان (١٨٦١-١٩١٤) رواية شجرة الدر في الفترة من ١٩١٣ إلى ١٩١٤<sup>(١)</sup>.

وفي تناوله نجد أن معظم شخصيات الرواية تاريخية إلا أنه لا يأخذ بأسباب التاريخ، وعلى الرغم من أن العنوان شجرة الدر إلا أنه لا يركز على شجرة الدر، وإنما يركز على شخصية بيبرس، ولم يتناول معركة المنصورة، لأن أحداث هذه الرواية بدأت بعدها.

\* كلية الآداب، جامعة بون - ألمانيا

(١) جورجى زيدان: ((شجرة الدر)) (مؤلفات جورجى زيدان الكاملة) المجلد الثالث ص ٥١٣

وما بعدها، ط. دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م.

ثم كتب محمد سعيد العريان (١٩٠٥-١٩٦٤) روايته ((شجرة الدر)) في ١٩٤٧<sup>(١)</sup>، التي حاول أن يدافع فيها عن شجرة الدر، وقد تميز عن الآخرين في تناوله لشخصية فخر الدين، الذي عده من آخر النبلاء الأيوبيين، فيذكر ((كان الأمير فخر الدين هو كل من بقي من ذوي الحسب الرفيع من أمراء دولة بني أيوب في مصر... وكان... أثيراً لدى الملك الصالح، إذ كان أحياناً بالرضاع لأبيه الملك الكامل))<sup>(٢)</sup>.

وتجيء بعد ذلك رواية الدكتور محمد مصطفى هدارة ((المنصورة))، قصة البطولة العربية، وهزيمة لويس التاسع)) التي نشرت في ١٩٦١، وسأتناولها بالتحليل والنقد، وربما كانت أول رواية تعالج موقعة المنصورة، إذ إنها حصلت على جائزة الرواية التاريخية في ١٩٦٠، على نحو ما سأوضح فيما بعد، أي أنها كتبت قبل ١٩٦١، وفي العام ذاته ١٩٦١ نشر الدكتور نجيب الكيلاني روايته ((اليوم الموعود))<sup>(٣)</sup> الذي حاول فيها أن يحلل الشخصيات من أعماق ذواتها، ورغم وجود تشابه كبير في بعض الشخصيات بين روايتي ((المنصورة)) و((اليوم الموعود)) كما في شخصية حمدان وعدنان كرمزين للشعب العربي، إلا أن اختلافاً واضحاً بينهما في تصوير دور شجرة الدر في المعركة، إذ جاء خافتاً لدى الدكتور هدارة، في حين أنه جاء قوياً لدى الدكتور الكيلاني، الذي رأى علاقة

(١) محمد سعيد العريان: شجرة الدر، قصة تاريخية، ط، دار المعارف، الطبعة السابعة، القاهرة،

١٩٨١م.

(٢) السابق ص ٨١.

(٣) الدكتور نجيب الكيلاني: اليوم الموعود، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، بيروت،

حب عذري تربط بين فخر الدين وشجرة الدر، ولكن هذا لا يمنع من اعتماد نجيب الكيلاني على رواية المنصورة، وأخذ البنائية والشخصيات بل المقدمة بشكل واضح.

وتوالت بعد ذلك الروايات التي تناولت موقعة المنصورة، فقد كتب عبد الرحيم عجاج روايته ((شيء نسيه البشر)) ١٩٧٢<sup>(١)</sup>، الذي ركز فيها على تصوير المعركة، وأعطى دوراً كبيراً للبهاء زهير وابن مطروح.

وفي رواية ((أضلاع الصحراء)) لإدوار الخراط<sup>(٢)</sup> نرى استعداد مصر للمعركة، إلا أنه حاول أن يقلل من إيمان الفرنسيين بجذوى المعركة، وجاء وصفه للمعركة وصفاً فنياً امتاز بالدقة.

وعند محمد كمال في روايته ((هزيمة ملك، رواية تاريخية))<sup>(٣)</sup>، نرى أثر رواية الدكتور هدارة ((المنصورة)) واضحاً، وهذا ما نجده عند معظم من تناول موقعة المنصورة، فكل منهم يتخذ شخصية ترمز للشعب المصري، والمحبوبة ترمز للأرض، فعلى سبيل المثال جعل محمد كامل محمد الأمير فخر الدين يقوم بإعداد الفدائيين لقتال الفرنسيين، وهي فكرة مستوحاة من قيام حمدان ((المنصورة)) بإعداد شباب قرية ((نوسا)) لمقاتلة الفرنسيين، وغير ذلك كثير.

(١) عبد الرحيم عجاج: شيء نسيه البشر، دار الهلال، القاهرة، أكتوبر ١٩٧٢م.

(٢) إدوار الخراط: أضلاع الصحراء، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٣) محمد كمال محمد: هزيمة ملك، رواية تاريخية، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة

وأما رواية عبد السلام العشري: ((شجرة الدر))<sup>(١)</sup> فهي نسخة مشوهة من رواية ((المنصورة)) إذ إنه لم يعرف فن الرواية، وفي روايته العديد من السقطات الفنية في بنائها واعتمادها على اللغة الخطابية التي جعلت النص مترهلاً.

كما كتب علي أحمد باكثير (١٩١٠-١٩٦٩) مسرحية ((دار ابن لقمان)).

ولقد لفت نظري مسمى ((شجرة الدر)) في الروايات حيث إن الثابت أن اسمها شجر الدر وربما جرى الكتاب جورجى زيدان في روايته التي أطلق عليها ((شجرة الدر)).

كذلك فإن هنالك اختلافاً حول الحملة السابعة: هل هي الحملة السادسة أو السابعة؟ إذ إن معظم المؤرخين الأوروبيين يطلقون على هذه الحملة (١٢٤٨-١٢٥٤) الحملة السادسة حيث يتناسون الحملة الخامسة (١٢١٧-١٢٢١) فقد ذكر في dtv Lexikon ((الحملة السادسة))<sup>(٢)</sup> وبهذا نص Mayers Grosses Taschenlexikon<sup>(٣)</sup>.

وقد اهتم المؤرخون العرب بهذه الواقعة، وجاءت آراؤهم حولها لتوحي بمدى أهميتها، وهذا ما نراه في كتابات المؤرخين حول هذا العصر، ومن أهمهم ابن

(١) عبد السلام العشري: شجرة الدر، ط. نفضة مصر، القاهرة، ١٩٨٩م.

(٢) dtv Lexikon, B.10 Munchen, 1971.

(٣) Maryes Grosses Taschenlexikon, Maryes Lexikonverlag, Wien Zurich, B. 12. S.

إياس والمقريري وابن واصل والعيبي وأبو المحاسن وابن أيك الدواداري وسبط ابن الجوزي وغيرهم.

كما حظيت بكتابات المؤرخين الأوروبيين، ولعل أهمهم المؤرخ الفرنسي والقائد الصليبي في الحملة ذاتها Johann von Joinville كما اهتم المؤرخ المستشرق francesco Gabrieli بالمصادر والمراجع العربية التي تناولت الحروب الصليبية، وقام بترجمتها ونشرها في كتاب Die Kreuzzuege aus Arabischer Sicht<sup>(١)</sup> ((الحروب الصليبية)) من وجهة نظر (منظور) العرب ((الذي رأى أهمية أن يوضح أمام الأجيال الأوروبية حقيقة الحروب الصليبية وكيف نظر إليها العرب)) حتى ينظروا إليها من وجهة نظر أخرى بعيون وعقول الأعداء المعاصرين آنذاك.



## مدخل

((وما هي غير ساعات قليلة حتى لاحت تباشير الصباح تحمل للفريقين نذير بدء القتال والاحتراب في سبيل غاية يؤمن بها كل فريق، ويجود بنفسه دفاعاً عنها))<sup>(٢)</sup>.

(١) Francesco Gabrieli Die Kreuzzuege aus arabisher Sich, aus den Arabischen Quellen

.Deutscher Taschenbuch Verlag Muenchen 1975

(٢) محمد مصطفى هدارة: (دكتور): المنصورة، قصة البطولة العربية، وهزيمة لويس التاسع ص١٨٦ الناشر مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ١٩٦١م، وقد أعيد نشرها في دار المعارف ودار الفكر العربي.

ربما تكون هذه الفقرة مدخلاً نحو رواية ((المنصورة)) قصة البطولة العربية وهزيمة لويس التاسع ((للكاتب محمد مصطفى هدارة))، إذ إن هذه الرواية ربما تعد أول رواية تناولت موقعة ٦٤٧هـ - ١٢٤٩م واستمرت أحد عشر شهراً وتسعة أيام حتى ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م.

وقد دارت بين الصليبيين في حملتهم السابعة بقيادة الملك لويس التاسع (١٢١٥-١٢٧٠) ملك فرنسا وبين المعسكر المصري بقيادة الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٠٧-١٢٤٩)، ثم المعظم طوران شاه (١٢٤٩)، ثم شجرة الدر (١٢٤٩)، التي قتلت في (١٢٥٧) مع مجموعات متصارعة من المماليك وبقية الشعب المصري، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة ساحقة للمعسكر الصليبي، وأسر الملك لويس التاسع في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولقد وفق الدكتور في توضيح جانبي المعركة، وحاول - قدر استطاعته - أن يكون محايداً في تصوير المعركة، التي يرى كل فريق أنها غاية يؤمن بها، ويوجد بنفسه دفاعاً عنها، ولذا فقد استوحى التاريخ، وسار في ركبه إلا أنه حاول أن يتخلص من قيد المؤرخ؛ ليدخل في دور المبدع الذي أعطى الرواية أبعاداً، خلصت الرواية من نمطية سرد الحديث التاريخي، لنرى تشكيل الحدث الإبداعي الذي يجلي الحدث التاريخي، ولا شك أن رواية كهذه تتناول موقعة مشهورة في التاريخ العالمي، تجعل المؤلف عاجزاً عن صياغة حدث تشويقي للقارئ، إذ إن الحدث بنهايته معروف، وهذا يضع على الكاتب عبء البحث عن حدث آخر مواز للحدث الأول الواضح، يحاول أن يقدمه بشكل إبداعي مجهول للقارئ، في موازاة الحدث المعلوم، وهذا ما صنعه الكاتب في تشخيص شخصية حمدان وفاطمة في صراع مشابه للصراع

الحربي بين الصليبيين والمصريين، إذ جعله صراعاً بينهما كرمز للحب والأرض بين الممثل في الممالك والممثل في الفرنسيين.

### أولاً: تشخيص الشخصيات التاريخية

في الرواية التاريخية يمتلك الكاتب شخصيات تاريخية جاهزة، رسمت ملامحها من خلال المؤرخين، وإذا كان المؤرخون ينقسمون فيما بينهم تجاه بعض الشخصيات، فإن الأمر يبدو أكثر صعوبة لدى المبدعين، لذا فإن على المبدع أن ينحت هذه الشخصيات المتوارثة، حتى تتلاءم روايته، وتبدو الأحداث أكثر تسلسلاً ومنطقاً.

وقد جاءت تلك الشخصيات على النحو التالي:

#### ١- الحكام

##### أ- الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك لويس:

تكاد تكون صورة الملك الصالح نجم الدين أيوب واضحة من خلال ما حكاها الذهبي: ((كان الملك الصالح نجم الدين عزيز النفس، أبيضها، عفيفاً، حياً، طاهر اللسان والذليل، لا يرى الهزل ولا العبث، وقوراً، كثير الصمت))<sup>(١)</sup>.

ولا تختلف صورته في الرواية كثيراً عن هذا الوصف، وإن كانت زمنية الرواية تبدأ من مرضه الأخير الذي لا يطول وتنتهي بموته حيث ((توفي سنة سبع وأربعين وست مئة بقصر المنصورة مرابطاً فأخفوا موته))<sup>(٢)</sup>.

(١) الذهبي: (الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨هـ - ١٣٧٤م). سير

أعلام النبلاء ج ٢٣ ص ١٩١ تحقيق د. بشار عواد معروف، ود. محيي هلال السرحان، ط.

مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) السابق ص ١٩٢.

وقد رسم الكاتب شخصية هذا الملك بما يوحي إيمانه بالجهاد في سبيل الله، وإيمانه بهذا الهدف لدرجة أنه يبكي لعدم استطاعته الجهاد ((ومسح دموعه وهو ينظر إلى من حوله، ثم قال: عذراً أبنائي عذراً.. فقد نسيت نفسي، ولم أذكر إلا أنني محارب مغلول السيف، فارس كبا به جواده، حسام تفلت مضاربه، كيف تأتي هذه الحرب المقدسة، وحقّ عليّ الجهاد، فلا أنال شرف الاشتراك فيها، والاستشهاد دفاعاً عن ديني وعن وطني))<sup>(١)</sup>.

بل إنه عندما كان مريضاً في دمشق لا يتحمل أن يرقب المعركة من هناك، لكنه يصر على المجيء إلى مصر ((في محفة تجرها أربعة جياد، لعدم استطاعته ركوب حصانه لاشتداد المرض عليه))<sup>(٢)</sup>.

وهذا ما يوحي بأن السلطان يرى أن واجبه يحتم عليه قيادة المعركة. وقد رسم الكاتب شخصية الملك لويس التاسع بصفات تكاد تشبه صفات السلطان، فهو متدين في طبعه، يؤدي الطقوس الدينية المسيحية كل مساء، وفي مرضه يتمتم في حرارة وحماسة ((إني أنذر للسيد المسيح أني سوف أقود جيشاً لأحارب به العرب والمسلمين، لأستنقذ من أيديهم الأرض المقدسة وأحمي قبر يسوع المخلص، وسأبذل في تلك الحرب جهدي ومالي ودمي))<sup>(٣)</sup>.

(١) محمد مصطفى هدارة: (دكتور) المنصورة ص ١٣٩-١٤٠، كما أننا نجد المعنى ذاته عند عبد السلام العشري: شجرة الدر ص ١٠٠ ويتكرر في الروايات الأخرى.

(٢) السابق ص ١١٠.

(٣) السابق ص ٥٢-٥٣، وقد ذكر الدكتور قاسم عبده قاسم: ((أنه اشتهر بعدائه المميت لكل ما هو غير مسيحي بدرجة جعلته من أشهر القديسين في السجل الرسمي للكنيسة الكاثوليكية))، د. قاسم عبده قاسم ود. أحمد إبراهيم الهواري: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ص ٥٣، ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

إن النظرة الثنائية المحايدة -إلى حد ما- من الكاتب للحاكمين اللذين يرى كل منهما أنه على صواب، وأن الحق بجانبه، وإن كان الحق بجانب أحدهما، هذه النظرة تجعلنا نفهم لماذا ذكر على لسان الأمير فخر الدين في تساؤل يحمل سخيرية من ((أنهم -يقصد الصليبيين- يتجرون باسم الدين، ويقتلون ويسفكون باسم الدين! وهل القبر المقدس موجود في أرض مصر، في دمياط أو في القاهرة أو في الإسكندرية؟))<sup>(١)</sup>.

### ب- علاقة المرأة برجال الحكم

إذا كان الملك لويس التاسع قدّم كل ما لديه من أجل هذه المعركة، فإن السلطان نجم الدين يفعل أكثر مما يستطيع، تبدو هنا رؤية الكاتب نحو الثنائية التشابهية في الشخصيات، حتى إن علاقة الملك الصالح نجم الدين بزوجته شجرة الدر - التي هي في أصلها جاريتها الأثيرة ((وقد ارتدت ثوباً أسود اللون، مرصعاً بالجواهر الكريمة، ووضعت في أذنيها قرطاً من اللؤلؤ الثمين، وزينت نحرها بعقد من الألماس ذي حبات كبيرة، وكانت شجرة الدر ببشرتها البيضاء الناعمة أشد تألُقاً في ثوبها الأسود، جذابة إلى أقصى حد، وبدا بريق أخاذ في عينيها السوداوين الواسعتين، وتهلل وجه السلطان حين رآها، وحاول النهوض..

- اجلسي يا شجرة الدر، فلعل وجودك يخفف عني..))<sup>(٢)</sup> إن علاقة الحب بين الملك الصالح وشجرة الدر التي لم يكن له سواها إلا زوجة واحدة

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ١٠٣.

(٢) السابق ص ١٧٠-١٧١.

أخرى فقد ذكر الذهبي: ((ثم لم يكن عنده في الآخر سوى زوجتين))<sup>(١)</sup> تشبه العلاقة بين الملك لويس التاسع وزوجته الملكة مرجريت، التي تدخل عليه في مرضه ((فوضعت يدها على خده))<sup>(٢)</sup> ((نهض لويس من مقعده، وتناول يدها وقبلها))<sup>(٣)</sup>، وربما كانت عادة تقبيل الأزواج ليد زوجاتهم عادة أوروبية إلا أن الكاتب ينقل لنا العادة الشرقية فعندما دخلت شجرة الدر على السلطان نجم الدين أيوب ((أخذت يده بين يديها وقبلتها في حنان))<sup>(٤)</sup>.

وإذا ما كانت شجرة الدر تقوم بأمر المملكة بعد وفاة زوجها الملك الصالح، وتدير -من بعده- دفة الحكم، فإن الملكة مرجريت تقوم بالدور ذاته عندما يخلفها زوجها في دمياط، ثم تصبح قائدة بعد أسر زوجها، تعمل على إنقاذ ما تبقى من جنود صليبيين، في دور يكاد يكون أفضل مما رسمه الكاتب لشجرة الدر التي جاء دورها باهتاً، وربما قصد الكاتب ذلك حتى يجلي دور الشعب.

وربما كانت نهاية الملك الصالح بالموت في موازاة نهاية الملك لويس بالأسر، ما يجعلنا نتحقق من النظرة الثنائية التي نظر بها إلى الحاكمين.

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢٣ ص ١٩٢.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ١١٧.

(٣) السابق.

(٤) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ١٧١.

ولقد عقد الكاتب موازنة بين المرأة في المعسكر الإسلامي، والمرأة في المعسكر الصليبي، من خلال شخصية فاطمة عاشقة حمدان التي تتمنى أن تقترب منه، لكن سيدها الأمير فخر الدين اللذين تربيا في قصره يود أن يفتضحها، لكنها تدافع عن شرفها وعن حبها في إخلاص ووفاء، بينما في المقابل نرى أن إيزابيل زوجة الكونت درومنت الذي يحارب ضد المسلمين على مشارف المنصورة، تظل (إيزابيل) في دمياط، تختلي بأحد الجنود في غياب زوجها وتتمتع:

- ((واها لك يا عزيزي فيليب، لقد قضيت معك وقتاً لطيفاً، وها قد مضى من الليل أكثره، وأخشى أن يكتشف أمرنا، ونحن نسير معاً، وقال صاحبها وهو يحيط خصرها بذراعه:

- وماذا في هذا يا عزيزي؟ أأست تحبيني؟ أأست أعبدك؟ ماذا نخشى إذن؟
- نخشى كلام الناس يا حبيبي... ماذا يقولون وهم يرونني معك بينما زوجي منغمس في أتون المعركة؟
- فليقولوا ما يشاؤون يا إيزابيل.. إن زوجك الكونت درومنت لا يستحق قلامة ظفرك..
- صدقت يا فيليب.. صدقت<sup>(١)</sup>.

شتان بين هذه المرأة تخون زوجها المحارب، وبين هذه الفتاة المصرية التي قاومت فخر الدين بكل جبروته الذي بدا - كما تحكي فاطمة:

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ٢٠٠-٢٠١.

((وبدأ يعتصرني بذراعيه مرة أخرى، وأنا أضرب صدره بكلتا يدي وأصيح، ولما وجد أن مقاومتي له قد اشتدت وأن صراخي سوف يوقظ من بالقصر وخاصة حريمه فهض وانصرف))<sup>(١)</sup>.

وعندما تقع فاطمة في الأسر يجعل الكاتب حبيبها حمدان يبحث عن فتاة من المعسكر الصليبي حتى يضغط بها لاسترداد محبوبته فيأسر إيزابيل الخائنة في مقابل فاطمة الشريفة.

إلا أن حيادية الدكتور هدارة ((لا تجعله يلقي الخيانة)) لدى الصليبيين فقط، وإنما نجد أثر الخيانة في المعسكر المصري أيضاً، فتارة يذكر ((بعض العيون)) وأن أحد المماليك قد وشى بالخطة العسكرية للمعسكر الصليبي<sup>(٢)</sup> وأن أحد البدو الجواسيس قد قام بدور مماثل<sup>(٣)</sup>، وأن بعض الأعراب قد خانوا أيضاً<sup>(٤)</sup>، وهذا يوحي أن حرب الخيانة تقتصر عند بعض أفراد المعسكر المصري طمعاً في المال.

بينما ينسب بعض الكتاب المعاصرين الخيانة لأحد البدو<sup>(٥)</sup> وعند باحث آخر ((بعض منافقي أهل الإسلام)) نقل عن المقريري<sup>(٦)</sup> بينما يذكر المؤرخ Joinville

(١) السابق ص ٦٧.

(٢) السابق ص ٢١٠-٢١١.

(٣) السابق ص ١٩٠.

(٤) السابق ص ٢٣٩.

(٥) محمد سعيد العريان ود. جمال الدين الشيال: قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٦٣، ط. دار المعارف، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.

(٦) د. قاسم عبده قاسم ود. أحمد إبراهيم الهوارى: ((الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ص ٦٢ ويذكر د. قاسم عبده قاسم: وذكرت المصادر العربية أنه مسيحي)) ص ٥٧.

أنه أحد البدو الذي تقاضى مبلغاً من المال قبل أن يبوح لهم ببعض الأسرار التي ساعدتهم في عبور النهر والهجوم على المعسكر الإسلامي<sup>(١)</sup>.

## ٢- سلطة رجال الكنيسة في موازنة سلطة رجال المماليك

### أ- رجال الكنيسة

يكاد معظم مؤرخي الحروب الصليبية يذكرون بكل تقدير وشجاعة فرقة الفرسان الصليبية، أو فرسان المعبد التي حاربت بكل شجاعة، ولذا لا ينسى الدكتور هدارة أن يثبت شجاعة العدو إذ إن شجاعة العدو المهزوم تعكس قوة المنتصر، ولعل وصفه لما أحدثته فرقة الفرسان الصليبية في معسكر المسلمين يوحي بذلك<sup>(٢)</sup>.

لكن ذلك لا ينسينا حقيقة ما يمارسه البابا أنوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣-١٢٥٤) من ضغوط ونفوذ على الناس، حتى يجبرهم على الذهاب إلى المعركة عائشاً - هو نفسه - في النعيم والرفاهية، بل يصل جبروته إلى حد عزل الملك فريدريش الثاني Friedrich II (١٢١٢-١٢٥٠) لأنه تجرأ على الكنيسة ملوحاً بفصله وعزله لكل من يخالفه من قياصرة أوروبا وملوكها وأمرائها بل شعوبها.

هذه السلطة الدينية المسيحية جعلت من نفسها السلطة السياسية في أوروبا في القرون الوسطى، وورطت أوروبا كلها في الحروب الصليبية، ولذا فقد حرص

(١) Johann von Joinville: Geshichte des h1 Ludwigs, s. 79

(٢) محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ١٩٤ وما بعدها.

المؤلف على أن يوضح لنا ظلم هؤلاء واستغلالهم الدين في تحقيق طموحاتهم الشخصية، وتعصبهم الأعمى لكل ما هو مسيحي، فالجنود مخدعون ويردد شاتيليون على مسامع الملك لويس: ((الحياة تهون في سبيل الله والمسيحية يا مولاي))<sup>(١)</sup>.

وإذا كان هؤلاء المخادعون يقاتلون في سبيل المسيحية، فإن رهبانها يتاجرون بها، ولعل في الحوار الأخير الذي أورده الكاتب ما يوحي بذلك، إذ اشترط المسلمون دفع مبلغ من المال مقابل إطلاق سراح ورحيل الملك لويس ومن تبقى معه، ولما حاولت الملكة مارجريت جمع المال، وجدت لديها نقصاً نحو ثلاثين ألف قطعة لا بد من توفرها وإلا ستخرق المعاهدة.

((ثم نظر (الملك لويس) إلى النبلاء من حوله، وقال لهم:

- أرجو أن تعدوا هذا المال على الفور.

ونظر كل إلى صاحبه في استنكار ثم قالوا بصوت واحد:

- ومن أين لنا هذا المال، وقد أخذت الملكة كل ما عندنا؟

وأسقط في يد الملك، وداخله الاضطراب، وعندئذ اقترب منه الكونت

جوانفيل وقال:

- يا مولاي.. إن خزانة فرسان المعبد عامرة بالمال. وعندئذ صاح الملك

قائلاً:

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ٢٣٣.

- علي بالأب ستيفن دي أوتريكورت.

ومرت فترة جاء بعدها الأب ستيفن.. فابتدره الملك قائلاً:

- أرجو أن تحضر أيها الأب المبجل ثلاثين ألف قطعة ذهبية من خزانةكم العامة.

وقطب الأب جبينه وقال:

- إن خزانةنا يا مولاي خاوية على عروشها، فقد أخذت الملكة كل ما نملك وقفز الكونت جوانفيل من مكانه وصاح قائلاً:

هذا كذب أيها الأب، وسأثبت أنه كذب.

وأسرع الكونت بالتزول من السفينة ليصعد سفينة أخرى قريبة منها، وهي سفينة فرسان المعبد، وانتزع بلطة من أحد الجنود الواقفين وانهاط بها على الخزانة بغرفة الربان فانفتحت الخزانة وانهاط منها أكوام الذهب<sup>(١)</sup>.

وهذا يوحى بمدى غنى هؤلاء القساوسة من جانب، ومن جانب آخر يعطي لنا دليلاً على ازدواجية شخصياتهم وأنهم يخفون تحت المسوح الزاهدة نفوساً تميل إلى الغنى والجبروت.

بل إن أم الملك لويس نفسه تحذر ابنها من قرار البابا بتتويجه قائداً للحملة،

إذ تقول له:

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ٢٦٣-٢٦٤.

((واجبك هنا في فرنسا لا في مصر، ولا في غيرها من أرض العرب كما يزين لك البابا ورجال الكنيسة، وإن لهم مصلحة دنيوية يا بني في تلك الحروب التي ينهى عنها دين المسيح))<sup>(١)</sup>.

ولقد حاول الكاتب أن يسير أغوار شخصياته، ولا يكفي بوصفها الظاهري وربما من خلال حوار جاك، وهو أحد الجنود، مع زميل له ما يوحي لنا أن هذه الحرب لم يكن الشعب الأوروبي راغباً فيها، وإنما هي الحرب التي يخشاها الجميع، وقد استطاع من خلال هذا الحوار أن يصور لنا الجشع والطمع الذي يوده البابا لنفسه على حساب الضحايا ((يا إلهي! ألا تنتهي هذه الحروب التي يلقوننا في أتونها، وتطوح بنا في أرض بعيدة لا مصلحة لنا فيها قط؟!)).

- إنه أمر البابا يا جاك، وهل تظن أن الملك يستطيع أن يعصي له أمراً؟  
 - البابا... البابا... ماله ولنا! إنه يتدخل في كل شيء.. حتى في هاتيننا ومماتنا.. فهو يأمر بنا إلى الفردوس أو إلى الجحيم!  
 - صدقت يا أخي.. إنه لا يحس ما نحس به نحن أبناء الشعب من نقص الأقوات وغلاء الأسعار، وهذا إلى جانب سقوطنا صرعى في ميادين القتال، غرباء تنكرنا الأرض ولا ترضى عنا السماء.

- وكل ما يجود به البابا بضعة آلاف أو ملايين يخرجها من خزائنه العامرة، ويلقي بها إلى ملوكنا، وهو آمن على نفسه، غارق في رفاهيته))<sup>(٢)</sup> من هذا الحوار نستطيع أن نلمس الحس الشعبي بما يضره من حقد وحسد

(١) السابق ص ٥١.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ٢١١-٢١٢.

وثورة ضد البابا ورجال الكنيسة، الذين يجمعون ماله ويتاجرون بالشعب في الدنيا والآخرة.

ويتبنى ألبرشت نوت Albrecht Noth رؤية مفادها أن النظرة المسيحية لمفهوم الجهاد في أثناء الحروب الصليبية، لا تختلف عن النظرة الإسلامية لمفهوم الجهاد، لدرجة أنه يرى أن البابا والكنيسة قد استخدموا المفاهيم القرآنية في التأثير على الناس ونسي Noth أن مفهوم الجهاد الإسلامي يعتمد على الدفاع عن النفس والدعوة إلى الدين الحق، وأن المغيرين لم يكونوا مسلمين وإنما كانوا صليبيين قدموا إليهم في عقر ديارهم، في دمياط والمنصورة.

ويعقب نوت Noth على نظريته ((إن هناك تشابهاً بين دعاية المقاتلين المتدينين من خلال النبي الإسلامي، والدعاية الصليبية المسيحية من خلال المسيح المقدس، فهو تشابه يؤدي إلى أنه من الممكن حدوث نظام فكري متشابه في الجهاد الإسلامي والجهاد المسيحي))<sup>(١)</sup>. فلم يكن العسكر الإسلامي مغيراً بل مغاراً عليه، لذا وجب عليه الدفاع وإلا فقد وطنه، وربما كانت هنالك مصالح لدى بعض المقاتلين في كل من الفريقين على نحو ما رأينا لدى رجال الكنيسة، وعلى نحو ما سنرى لدى المماليك، إذ إن كل فريق منهما يدافع عن مصالحه الذاتية، وعن مكتسباته التي اكتسبها، لأن فقدها يعني -بالنسبة له- نهايته، وربما هنالك أسباب كثيرة حدثت بمعظم المؤرخين ألا يتطرقوا إلى هذه الرؤية حيث إن كلاً من الفريقين -أعني رجال الكنيسة والمماليك- يتمسح بأثواب الدين ليضفي على وجوده قدسية ومهابة.

(١) Albrecht Noth Heiliger King und Heiliger Kampf in Islam und Christentum, Beitrag zur Vorgeschichte und Geschichte der Kreuz-züge Ludrig Roehrsheid .Verlag Bonn 1966, s. 1946

## ب- رجال الماليك

في المقابل يبدو الماليك المجلوبون من بلاد أرمينية وتركيا وشرق آسيا وغير ذلك من جنسيات لا تعد ولا تحصى، هم القوة التي دافعت عن مصر، لا حباً في مصر وشعبها، ولا دفاعاً عن الدين الإسلامي بقدر ما هو دفاع عن مصالحهم الشخصية، ومكانتهم السياسية والاجتماعية.

ولم يكن الماليك وحدهم بل جموع الشعب الذي خرج يدافع عن دينه وعن أرضه، وقد احتار الكاتب في معالجته للماليك هل هم عرب؟ هل هم مصريون؟ هل اكتسبوا العروبة والمصرية باللغة... أو أن الإسلام قد منحهم جنسية إسلامية أقوى من التفرقة بين الجنسيات الأخرى، ولعل مقولة سيف الدين الدمشقي وتساؤله يطرحان تساؤل الكاتب نفسه حول ماهية الماليك؟

((إنهم - أي الماليك - ليضيعون علينا الخناق نحن العرب في سورية ولكن ينبغي ألا نسكت على ذلك، فهذه ديارنا ونحن أولى بالدفاع عنها، حقيقة أن الماليك صاروا جزءاً منا، وهم متحمسون للدفاع عن شرف العروبة وكرامة الإسلام، ولكننا لا نحب منهم أن يستأثروا بهذا الشرف وحدهم))<sup>(١)</sup>.

إن علاقة الكاتب بشخصياته المملوكية علاقة متأرجحة، فإذا كان فخر الدين تكاد تجمع المصادر التاريخية على شعبيته وسيرته الطيبة، فإن الدكتور هدارة يصفه بالظلم الذي يجعله يتخذ من الفلاحين عبيداً، هم أشبه بالأغنام التي لا يترفق بها، بل إنه يجبرهم على العمل لديه دون مقابل يذكر، ويوجعهم ضرباً وركلاً إذا عجزوا عن سداد الضرائب الباهظة التي لا تنتهي، ثم ما يلبث أن

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ١٩-٢٠.

يختطف أمام عيونهم أبناءهم وفاء لدين لا يستحق دفعه، هذا الظالم الذي اختطف حمدان وهو طفل من أمام عيون أبيه وأسرته، يحمل له حمدان حباً وكرهية.. هذه العلاقة تنمو باتجاه الكره حينما يحاول فخر الدين اغتصاب محبوبة حمدان ((فاطمة))، وتنجو من بين محالبه لتخبر حبيبها الذي يقسم على الانتقام، إلا أنه يؤجل هذا الانتقام إلى ما بعد المعركة، وربما كان المؤلف يعتمد في تشخيص الأمير فخر الدين بهذا الشكل على شيئين:

أولهما: كونه مملوكاً، إذ لا ينسى ما كاله المماليك للمصريين من هوانٍ وذل، ولذا فليس فخر الدين خلواً من ذلك، كما أن قوة المماليك هي التي مكنت لهم -دون أصحاب البلد الحقيقيين- أسباب القيادة، ولم يسيروا سيراً حسناً بل أذاقوا الشعب المرار.

ثانيهما: تكاد تجمع المصادر التاريخية على أن انسحاب قائد الجيوش فخر الدين من دمياط دون مقاومة، وتركها هدراً وغنيمة سائبة للصليبيين ما يزال لغزاً وبقيت علامة الاستفهام حول أسباب هذه اللحظة الانسحابية التي لم تكن بأي حال من الأحوال أسباباً عسكرية، فهي إما أن تكون بفعل خيانة فخر الدين، وأنه باع دمياط -سراً- للصليبيين، وإما أن يكون الملك فخر الدين قد ظن أن الملك الصالح أيوب قد مات، فأراد أن يعود مسرعاً ليمسك بالحكم ويستأثر به دون غيره من المماليك، وكلا الاحتمالين لا يبرئه تاريخياً من تحمل مسؤولية الانسحاب.

ربما كان ذلك ما دعا الكاتب كي يجعل شخصية فخر الدين شخصية مكروهة لدى القارئ، إنه لا يعرف العدل بل هو شره، ظالم، أناني، وهذه العلاقة التي ارتكز المؤلف عليها بين حمدان وفخر الدين، هي العلاقة بين الشعب ممثلاً في حمدان، وبين المماليك ممثلاً في فخر الدين، وقد تبلورت المعركة عن قوة المماليك البحرية الذين سرعان ما قتلوا السلطان توران شاه، ثم قتلوا شجرة الدر، ليستأثروا بالحكم في دورات انقلابية دموية متكررة.

ويذكر الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أنه: ((قد ازداد نفوذ المماليك البحرية في عهد الملك الصالح أيوب ازدياداً خطيراً، بعد أن انفض عن الصالح أعوانه من الأكراد وغيرهم، ولم يلبث أن استغل المماليك البحرية سطوتهم بالعبث في مصالح البلاد والعباد، فأكثرُوا من الاعتداءات على أموال الناس وأرزاقهم))<sup>(١)</sup> أي أن ظلم المماليك لم يكن تالياً للمعركة وإنما كما صورته الدكتور هدارة ظلم مرتبط بنشأتهم واستئثارهم بالحكم.

وربما وضع توازن المصالح في المعسكرين بين رجال الكنيسة والمماليك وهذا ما ودَّ الكاتب أن يجلوه لأنه يؤرخ مبدعاً هذا الحدث.

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ١١. ط. مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٤م.

## ٣- المؤرخون والأدباء

## أ- جوانفيل Joinville

كاتب الرواية التاريخية يتعامل مع شخصيات مؤرخة، وشخصيات مبدعة في عصرها، وهي مرتبطة - غالباً - بالقصر، وقد نجد قصيدة تؤرخ لعصر، وقد نجد كتاباً لمؤرخ ينقل شهادته على العصر، لكن الذي نفتقده من معظم كتب المؤرخين هو أنهم يهتمون بالحاكم والحاشية متناسين الشعب، مما حدا بالدكتور أحمد إبراهيم الهواري أن يقول: ((إن المؤرخين القدماء قد قاموا بعملية اختزال تاريخي للشخصيات العادية على نحو ما ذكر «أبو المحاسن»)) عندما عرض لأحدهم في تاريخه بقوله: وقد أضربنا عن شرح ما حدث له فإنه لم يكن من أعيان الناس فتشكر أفعاله أو تذم))<sup>(١)</sup>.

وغريب رأيي ((أبي المحاسن)) هذا، لكنه الواقع، بيد أننا نعالج هنا موقف الروائيين من المؤرخين أنفسهم، هل تجاهلوهم وأضربوا عن ذكرهم، أو أنهم أنصفوهم، الحقيقة أننا نرى أن الدكتور هدارة قد أعطى للمؤرخ الفرنسي Joinville دوراً كبيراً في الرواية، وأوضح سبب ذلك في المقدمة حيث قال: ((وقد نقبت في المكتبة التاريخية عن أحداث هذه الفترة بدقة وعمق، واهتمت بأدق التفاصيل وأصغر الجزئيات، وعנית بالاطلاع على آراء كل فريق، فإلى جانب المؤرخين العرب، اهتمت بذكرات جوانفيل مؤرخ الحملة الفرنسية،

(١) د. أحمد إبراهيم الهواري د. قاسم عبده قاسم: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص ٦٨ نقلاً عن ((أبي المحاسن)): ((حوادث الدهور)) نشر وليام بوير، (كاليفورنيا، ١٩٣٠)

والصديق الشخصي للملك لويس نفسه، كما اهتمت بالكتب الأوروبية التي درست تاريخ هذه الحملة الصليبية السابعة<sup>(١)</sup>.

وهذا الاهتمام بالمؤرخين أثرى العمل الإبداعي، إذ ساعد على نقل أحداث التاريخ من وجهة نظر شهودها الحقيقيين الذين رأوها بأي العين.

وليس من رأى كمن سمع أو قرأ، وقد أعطى دوراً لجوانفيل ضمن شخصيات الرواية، وجاء متسقاً مع مذكراته التي اهتم بها، واهتم بها تابعوه أيضاً، فلا تكاد تخلو رواية تعالج موقعة المنصورة دون ذكر Joinville بل إن الدكتور هدارة يجعله مقرباً من الملك، يحضر كل الاجتماعات العسكرية بل تصل التقنية الروائية إلى حد أنه يمتلك فاطمة محبوبة حمدان التي أسرت من قبل الصليبيين.

ويتعامل الملك لويس التاسع مع جوانفيل بكل تقدير واحترام ((لتستعد يا عزيزي جوانفيل لكتابة أحداث هذه الحملة، أو على الأصح أحداث هذا الانتصار الضخم الذي سوف تحققه الصليبية، وتغير به وجه التاريخ... فرد جوانفيل قائلاً:

- إن قلبي وسيفي كليهما في خدمة مولاي وقال: بورك فيك يا عزيزي.. بورك فيك<sup>(٢)</sup>.

وقد قام Johann von Joinville بكتابة مذكراته حول هذه الحملة، ونشرت في كتاب أسماه<sup>(١)</sup> *Geschicht des hi Ludwing* ((سيرة القديس

(١) د. محمد مصطفى هدارة: ((بين يدي القارئ)) في ((المنصورة)) ص ٥-٦.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ١٨٢-١٨٣.

لويس)) الذي يوضح لنا نظرة Joinville إلى الملك لويس الذي غدا مقدساً لدى المسيحيين، ويصف لنا رأي العين مشاهدته في الحملة.

### ب- بهاء الدين زهير

يعد زهير بن محمد بن علي المهلبي العتكي بهاء الدين (٥٨١-٦٥٦هـ/١١٨٦-١٢٥٨م) من أهم الكتاب الأدباء في عصر الملك الصالح أيوب، وقد ولد بمكة ونشأ بقوص، ((اتصل بخدمة الملك الصالح أيوب فقربه وجعله من خواص كتّابه، وظل حظياً عنده إلى أن مات الصالح، فانقطع زهير في داره إلى أن توفي بمصر))<sup>(٢)</sup> وقد اهتمت كتب التراث بأدبه وشخصيته، فقد جاء ذكره في وفيات الأعيان، والنجوم الزاهرة، وآداب اللغة، وروض المناظر، وغير ذلك إلا أننا نرى أن شخصيته في رواية المنصورة أساسية في الأحداث، بل إنه يصنع بعض الأحداث بنفسه، فقد جعله المؤلف موازياً لشخصية Joinville، فإذا كان الأخير مقرباً من الملك لويس، فإن بهاء الدين زهير مقرب من الملك الصالح، وهذا ثابت تاريخياً، بيد أن الكاتب يجعله محرراً للأحداث، فإن رسالة السلطان إلى لويس التاسع يكتبها بهاء الدين زهير الذي يقول: ((أياذن مولاي في أن أقرأ له الجواب؟ تفضل يا بهاء الدين..

بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين، أما بعد: فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك، وعدد

(١) Johann von, Joinville: Geschichte des hl. Ludwig, uebersetzt von Siegfried

.Uschner, Gruenemals, Mainz 1928

(٢) خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، جـ ٣ ص ٣ ص ٥٢ ط. دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، بيروت، ١٩٨٤.

أبطالك. فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا فرد إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ (إلا دمرناه...) - بورك فيك يا بهاء الدين، ولا شلت يمينك، والله ما كتبت إلا ما في نفسي، فقد رددت على هذا المغرور اللعين بما يستحقه))<sup>(١)</sup>.

وهذا يؤكد ما ذهبت إليه آنفاً من أن الكاتب يعتمد على وصف صورة موازية للفريقين، وربما كانت شخصية بهاء الدين زهير من الشخصيات التي لم تنم في الرواية، لأنها شخصية معدة سلفاً وحقيقية.

ولذا يقول د. حلمي القاعود: ((إن كثرة الأحداث وتتابعها لا تتيح للشخصيات النمو الفني بقدر كاف، وغالباً ما نراها شخصيات ((جاهزة)) سلفاً مع استثناءات قليلة، تتمثل في شخصية حمدان وشخصية فاطمة، ولعل السر يرجع إلى اختراعها من قبل الكاتب، على العكس من بقية الشخصيات التي جاءت عبر التاريخ، وهي تؤدي أدوارها مكتملة ناضجة))<sup>(٢)</sup>.

ربما يعود ذلك إلى أن زمن الرواية لا يجاوز العام، ولذا لجأ إلى تقنية الارتجاع الفني (Flashback) حتى يبدع شخصياته المبتكرة، ففي أول الرواية ما يوحي بذلك، حيث يحكي حمدان لسيف الدين الدمشقي عن طفولته، مرتداً بذاكرته إلى تلك الأحداث الطفولية البائسة، حتى يبرر أفعال الشخصية في الأحداث الحالية والمستقبلية في الرواية، ومن هذا يدرك المتلقي أهمية الشخصيات الأدبية التاريخية في إضفاء روح العصر على الأحداث الإبداعية في الرواية، ويسبغ وجود المؤرخين

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة، ص ١٤٠-١٤١.

(٢) د. حلمي القاعود: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (دراسة تطبيقية) ص ٢٢٧، ط دار

المعاصرين للأحداث على الرواية مصداقية لدى المتلقي، إذ إن هناك معرفة مسبقة بهذه الشخصيات التي تحولت إلى جزء من ذاكرة الوعي التاريخي لدى المواطن، ووجودها في الرواية يوجه هذا الوعي التاريخي المسبق، بحيث يتكئ عليه المبدع، محرراً بوصلة التفكير لدى المتلقي نحو الحدث المبدع في الرواية وليس الحدث المقرر مسبقاً في التاريخ.

### ج- ابن مطروح

أعطى المؤلف لابن مطروح (٥٩٢-٦٤٩هـ/١١٩٦-١٢٥١م) دوراً هامشياً في الرواية، أشبه ما يكون بالديكور بلغة المسرح، إذ احتتم المؤلف الرواية بمشهد يجمع بين الحسين حمدان وفاطمة، حيث يهمس حمدان في أذن فاطمة: ((أنا أصدق مشاعري التي تحبك يا فاطمة، وأصدق إحساسي بصفو الزمان ونعيم اللقاء، أما الحرب فنحن لها، وإن عادت نعد)).

وأما لويس فلنقل له -إن فكر في العودة- ما قاله شاعرنا جمال الدين بن

مطروح:

قل للفرنسييس إذا جئته	مقال صدق عن قؤول نصيح
أيت مصرراً تبتغي ملكها	تحسب أن الأمر يا طبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسین ألفاً لا ترى منهم	غير قتيل أو أسير أو جريح
ألممك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذرا راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح

وقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثأر أو لقصد صحيح دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صييح<sup>(١)</sup>

ونلاحظ مدى روح التهكم والسخرية في هذه القطعة الأدبية التي كان من الممكن تصوير موقف الشعب من خلالها، فالشاعر هنا يتحدث ممثلاً للشعب الذي يرى في الدخيل غازياً يجب مقاومته، ثم يتهكم من الملك لويس الذي ظن أن مصر مطمع، وأن آلافاً من جنوده لقوا حتفهم بحسن قيادته وحكمة رأيه!!

ثم يعرج نحو البابا ومشورته الفاسدة التي أودت بالصليبيين نحو المهالك، واختتم قصيدته بأن لويس إذا ما أراد عودة فدار ابن لقمان في انتظاره، وكذلك القيود، والطواشي صييح الذي كان حارساً عليه.

ولذلك لا أدري لماذا لم يأخذ ابن مطروح دور ابن الشعب الذي يمثله في الحقيقة، ولماذا لم يوظف إبداعياً، لا سيما أنه كان قريباً من الأحداث.

فهو ((نجي بن عيسى بن إبراهيم، جمال الدين بن مطروح كان ناظراً بأسسوط وتوفي بالقاهرة، خدم الملك الصالح أيوب، وتنقل معه في البلاد فأقامه الصالح ناظراً على الخزانة المصرية سنة ٦٣٩ ثم نقله إلى دمشق واستمر في الأعمال السلطانية إلى أن مات الملك الصالح فعاد إلى مصر فأعرض عنه خلفاء الصالح<sup>(٢)</sup>) وحتى إذا كان ابن مطروح في أثناء المعركة في دمشق، فهذا لا يمنع

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ٢٦٧.

(٢) خير الدين الزركلي: الأعلام ج ٨ ص ١٦٢.

من توظيفه فنياً، إذ إن مصر والشام كليهما تحت حكم واحد، والحدث يبدأ عند الدكتور هدارة في الشام، حيث السلطان المريض، وكذلك فقد عاد بعد موت السلطان إلى مصر، وتوحي قصيدته بمعرفة كل أسرار الحملة السابعة ونتائجها.

ومن عجب أن هذه القصيدة -بذاتها- تنقلت في معظم الروايات التاريخية التي دارت حول موقعة المنصورة<sup>(١)</sup>.

وربما كانت حدة السخرية في القصيدة ((تصويراً عن روح الشعب المصري في التهكم والسخرية والضحك في الملمات الصعبة، حتى يترابط جأشه من جديد صاداً الغزوات المتلاحقة، متهكماً من أصحابها الحمقى، ولعله يرى في السخرية سلاحاً حاداً)).

### ملاحظات عامة

لعل أول ما يلفت النظر هو قلة الدراسات النقدية التي تناولت رواية المنصورة<sup>(٢)</sup> برغم أنها كتبت قبل ١٩٦٠ إذ إنها حصلت على جائزة الرواية التاريخية من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب عام ١٩٦٠، أي أن لها الريادة في الروايات التاريخية التي عاجلت موقعة المنصورة.

(١) انظر مثلاً: محمد سعيد العريان: شجرة الدر ص ١٢٣-١٢٤؛ عبد السلام العشري: شجرة الدر ص ١٣٨.

(٢) ربما لم يتناول هذه الرواية سوى الدكتور حلمي محمد القاعود في فصل تحت عنوان ((المنصورة والوجه الصليبي)) في كتابه الرواية التاريخية في أدبنا الحديث، دراسة تطبيقية، في كتاب (الدكتور محمد مصطفى هدارة.. رائد الدراسات الأدبية) سلسلة رواد معاصرون ج ١. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩١؛ (الدكتور هدارة بحوث من أعماله الأدبية النقدية) بمناسبة حصوله على جائزة الأدب العربي، ط. دار رؤيات الإسكندرية، ١٩٨٨.

كذلك فإنها تخلصت من الترهل الوصفي الخطابي إلى حد كبير قياساً إلى الروايات التاريخية التي تليها زمنياً.

إلا أنها قد جانبها الصواب في بعض الأحداث التاريخية والرواية مثل إطلاق اسم ((فريدريك ملك النمسا))<sup>(١)</sup> ثم يذكر في صفحة أخرى ((فريدريك ملك ألمانيا))<sup>(٢)</sup> وهو يقصد الملك والقيصر Friedrich II فردريش الثاني ولد في ١١٩٤ بـ Ancona وتوفي في Fiorentno في ١٢٥٠ وهو ابن القيصر Heinrich هاينرش السادس، وقد قرر البابا Innocent عزله في ١٢٥٤ وظلت الحرب بين القيصر Friedrich VI والبابا Innocent قائمة حتى إن Friedrich II حاول قتل البابا في ١١٤٧ ثم قام بتوصيل المعلومات العسكرية حول الحملة السابعة إلى المعسكر المصري، وكان ابنه Konrad ملكاً للقدس وبدون موافقته لن يستطيع Ludwiq IX ((لويس التاسع)) دخول القدس، لذلك كان موقف Ludwiq حرجاً بين البابا وبين Friedrich وابنه Konrad وقد كان Fridrich يجيد ست لغات منها اللغة العربية كما يذكر Steven Runciman في كتاب قصة ((الحروب الصليبية))<sup>(٣)</sup> ((Geschichte der Kreuzzuege)) إنه كان أعجوبة لا تتكرر في قوة حكمه وشخصيته<sup>(٤)</sup> يطلق عليه لقب ملك ألمانيا

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ٣٦.

(٢) السابق ص ١٠٠-١٠١.

(٣) Steven Runciman: Geschichte der Kruzzuege. CH Beck' sche. Velagsbuchhandlung (Oscar Beck) Muenchen 1 989,P. 252,f

(٤) Mayers grosses Tachenlexikon; Hrg lexikon Redaktion des Bibliographischen

والإمبراطورية الرومانية الغربية، وكان له نفوذ كبير، وربما كان نفوذه وشخصيته هما سبب صراعه ضد البابا Innocent الذي ود أن يحتكر السلطة والمعرفة لنفسه دون سواه.

وكذلك فقد خلط المؤلف بين سيف الدين وفخر الدين في حوار استمر قرابة صفحتين<sup>(١)</sup> ربما كان ذلك خطأ مطبعياً.

كذلك نرى في صفحة أخرى جملة غير مكتملة ((كان كل شيء في معسكر المسلمين حين هبط..))؟<sup>(٢)</sup> وقد تغافل الدكتور هدارة عن دور الأزهر في خدمة هذه الموقعة ربما لم يكن مؤثراً آنذاك واكتفى بقوله: ((وازدادت حماستهم (أي العرب) حين أخذت جموعهم تتكاثر، ويغدو على الجيش كل يوم عدد من أبناء الشعب من القاهرة، حيث قرئ على الناس في الجامع الأزهر كتاب يحض على الجهاد، فأشعل الحماسة في القلوب وأسأل دموع المؤمنين))<sup>(٣)</sup> ولعله عنى بذلك ما رواه المقرئ في السلوك لمعرفة دول الملوك:

((فورد في يوم الجمعة إلى القاهرة من المعسكر كتاب فيه حض الناس على الجهاد أوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١/٩]، وكان كتاباً بليغاً فيه مواعظ جممة، فقرأ على الناس فوق منبر جامع القاهرة، وحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص ١٠٩-١١٠.

(٢) السابق ص ١٩٢ ولا نعلم خبر كان التي لا يمكن أن تكون من خلال سياق المعنى ((كان)) التامة.

(٣) السابق ص ١٨٧.

يوصف، وارتجت القاهرة ومصر لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير، فخرج من البلاد والنواحي لجهاد الفرنج عالم عظيم))<sup>(١)</sup>.

ولكن تبقى رواية المنصورة للأديب الدكتور محمد مصطفى هدارة فاتحة للرواية التاريخية حول هذه الحقبة المصيرية في تاريخ مصر، وتبدو الرواية واسطة عقد بين الإبداع والتأريخ.



(١) المقرئزي (تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي ت ٨٤٥هـ - ١٤٤٢م) السلوك لمعرفة دول الملوك

## منهج دراسة السرقات الشعرية

بين د. طبانة ود. هدارة

د. مختار عبدالعزيز عطية\*

في هذا البحث نحاول إبراز ملامح التجديد في منهج دراسة السرقات ضمن الدراسات الحديثة وذلك من خلال كتابين اثنين اهتمتا بهذه القضية وأفردا لدراستها هما: كتاب ((السرقات الأدبية)) للأستاذ الدكتور بدوي طبانة، وكتاب ((مشكلة السرقات)) للأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة.

أولاً: كتاب ((السرقات الأدبية - دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها)) د. بدوي طبانة:

يقسم المؤلف هذا الكتاب إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، كما يلي:

الفصل الأول: بين الأصالة والتقليد.

الفصل الثاني: السرقات الأدبية.

الفصل الثالث: معاني الأدب.

الفصل الرابع: الإبداع والاتباع.

الفصل الخامس: السرقة فن.

ويعرض الدكتور بدوي طبانة في مقدمة كتابه لأهمية موضوع السرقات ضمن موضوعات النقد، وأنه موضوع يمثل قضية هامة تحتاج إلى فطنة وذكاء

\* الأستاذ بقسم اللغة العربية - كلية الآداب، جامعة المنصورة.

وسعة معرفة بالأدب وفنونه، وإطلاع واسع على التراث الأدبي في سائر عصوره ومواطنه، ثم يعترض على تذييل مباحث علم البديع بموضوع السرقات، مما جعلها دراسة تقليدية، ويرى أن البحث في السرقات بحث في صميم الأدب، ولذلك يجب أن يقوم على أساس من التاريخ لمعرفة سائر الظواهر الأدبية متى وجدت؟ ومتى استحدثت أي عنصر من عناصرها؟ ومن الذي ابتدع ذلك العنصر، أو تلك الظاهرة، من أولئك الأدباء الذين لا يحصي عددهم إلا الله<sup>(١)</sup>؟.

ويحاول المؤلف أن يحدد حدود دراسته على هدي من التنظيم التاريخي والاجتماعي لهذه القضية، حتى يتوفر لها النفع في سد ما عسى أن يكون من نقص في تناول هذه القضية.

### الفصل الأول - بين الأصالة والتقليد

يبدأ البحث عن الأصالة والتقليد بمثيرات الأفكار لدى الإنسان عامة، أو ما أطلق عليه ((المثل العليا)) وما عراها من مفاضلات أملت عليها الطبيعة وظروف الحياة، ثم إن هناك تقاليد وقواعد اشتهرت عند الأمة، حتى أصبح الخروج عليها شذوذاً يدعو إلى الشك.

وأفكار الإنسان عنده منها ما هو عقلي، وما هو عاطفي، وكلاهما دوافع للأدب ومادة له وموضوع، وإن هذه الأفكار منها ما هو عام يشترك فيه الناس، وما هو خاص يكون وقفاً على صاحبه، وله مبعث خاص.

(١) د. بدوي طبانة: السرقات الأدبية - دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها - دار نهضة

فلكلّ أدب خصائص، ولكل فن تقاليد، بحيث نجد أن خطباء العرب كانت لهم تقاليد لازمة لكلّ خطيب في كل عصر من العصور، كما كان للشعراء أيضاً تقاليد متوارثة لزمها فحول الشعراء، وأصبحت قواعد تشدد النقاد في الالتزام بها.

ويرى المؤلف أن اتباع هذه القواعد التي رسمها الشعراء القدامى، وألزم بها النقاد لا يعد عيباً أو سرقة إلا عند من رفض ذلك الطريق.

### الفصل الثاني: السرقات الأدبية

أسلمنا المؤلف إلى الفصل الثاني من كتابه، وقد أكد -خلال الفصل- على قضية واحدة، وهي أن اتباع القواعد الشعرية والتقاليد الفنية لا يعد سرقة ما دام المتبع مقراً بضرورة هذا الالتزام، والسير على نهج القدماء.

ويبدأ هذا الفصل بتصوير فظاعة السطو على الفكرة، وانتزاعها من صاحبها، لأن رأس مال الأدباء هو أفكارهم التي تمثل ثمرة كفاحهم. ويرى المؤلف أن كثيراً من النقاد القدامى قد وقف على هذه السرقات، وأعادها إلى أصحابها، يقول:

(فهم يسمون هذا العمل سرقة وسرقاً وانتهاباً وإغارة وغصباً ومسخاً.. والرفقاء منهم يتلطفون في تلك الألقاب، تحرزاً من الخطأ، وإحساناً للظن، فيسمونه اقتباساً وأخذاً وتضميناً واستشهاداً وعقداً وحلاً وتلميحاتاً<sup>(١)</sup>)، ثم يعرض للاختلاف بين النقاد في تقرير السرقة والحكم بها.

(١) د. بدوي طبانة: المرجع نفسه - ص ٣٢.

ومن أمثال لهذه السرقات، يستعين بما أورد المؤلفون والنقاد القدامى وشواهد الحائمي وابن رشيق وغيرهما، عارضاً لمصطلحاتهم في السرقة وشواهدهم التي أوردوها، كالأصطراف، والادعاء، والغصب، والمرافدة، والاهتمام، والنظر، والملاحظة، والاختلاس، والمواردة، والالتقاط، والتلفيق.

### الفصل الثالث: معاني الأدب

يتحدث في هذا الفصل عن العبارة المتميزة بالفنية، وهي التي تمثل الأدب، وليس مبعث المعاني بين الشعراء، وأن عمود الشعر العربي لا يختص بمجموعة من الشعراء دون أخرى، وأن الأدب لا يمكن أن يخلو من عنصر التفكير، وأن عنصر التفكير إن نقص في الأدب، فإن ذلك لا يعني زيادة في الحس والوجدان.

ثم يتحدث المؤلف في هذا الفصل عن المعاني المشتركة التي تمثل أموراً متقررة في النفوس، متصورة للعقول، وتلك تنفي عنها السرقة، كما تنفي الاتفاق في الغرض على العموم، وهذا ما قرره السابقون من النقاد.

وبحال الإبداع في المعنى يتخلل هذه المعاني المشتركة - كما يقول القاضي في الوساطة - بحيث يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصناعة الشعر، فتشترك الجماعة في الشيء المتداول، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتب يستحسن أو تأكيد يوضح موضعه<sup>(١)</sup>.

وبعد أن يفرغ المؤلف من الحديث عن المعاني المشتركة كما فصلها السابقون الأولون من النقاد، يتحدث عن ((المعاني المتبدلة)) التي جرت وشاعت على ألسنة الشعراء، وهي خارجة في أخذها عن السرقة والأخذ، يقول:

(١) د. بدري طبانة: المرجع نفسه - ص ٩٣.

(والواقع أن وصف تلك المعاني بالابتدال كما درج على ذلك الذين سبقوا إلى الكلام في السرقات، وصف لا يدل على ما تعنيه تلك الكلمة من الامتهان، إذ إن تلك المعاني في أصلها كانت معاني بديعة طريفة، استحسناها الأدباء الذين سمعوها حين رأوا حسن موقعها على الآذان، وعظم تأثيرها في النفوس، فقلدوها مدفوعين بعامل الإعجاب<sup>(١)</sup>)، وهو يرى أن تلك المعاني - لكثرة دوراتها - فقدت جانباً من اختصاصها، وتاهت نسبتها لأصحابها، ولذلك فمن الإجحاف وصفها بالابتدال.

ثم ينتقل المؤلف إلى ((المعاني المختصة)) وهي التي انفرد أصحابها بها، وأصبحت شهرتها بين الناس في نسبتها إلى أصحابها من أهم الأسباب التي تجعل نقاد الأدب يفتنون إلى كل محاولة لأخذ تلك المعاني التي طبعت بطابع صاحبها<sup>(٢)</sup>.

### الفصل الرابع: الإبداع والاتباع

يعرض المؤلف في هذا الفصل لدوافع الإبداع وعوامل الاتباع بوصفهما عمادين تقوم عليهما قضية السرقات.

وهو يرى أن أسباب الابتكار وعوامله قليلة، لا تيسر إلا للأفذاذ من الشعراء الذين تعينهم على الابتكار أو الإبداع، ويرى أن هناك دافعاً قوياً يحرك عملية الإبداع لا يوجد إلا عند خاصّة الكتاب والشعراء الذين يجذرون الإكثار، حتى لا يقدموا للناس شيئاً معاداً أو مكرراً.

(١) د. بدوي طبانة: المرجع نفسه - ص ٩٨-٩٩.

(٢) د. بدوي طبانة: المرجع نفسه - ص ٩٩.

ويمثل المؤلف لهذه المعاني المبتكرة في أشعار بعض المطبوعين، كعلي بن جبلة، وابن الرومي وغيرهما.

ويرى أن من أسباب الإبداع الموهبة والاستعداد وتفرد الأديب دون غيره بموقف أو بمنظر يستثير ملكته، ويشحذ قريحته، فينفرد بالتعبير عن هذا الموقف بما لا يستطيع أحد أن يعرضه كعرضه، وربما يتفق معه غيره في رؤية المنظر نفسه أو عين الموقف ذاته، لكنه لم يلتفت إلى ما التفت إليه ذلك المبدع، ويضرب لذلك مثلاً بقصيدة ((الحمى)) للمتنبي، وغيرها مما روي في إبداعاته ثم يعرج على البحثري ويسوق من إبداعاته قوله في وصف مصلوبين<sup>(١)</sup>:

كم عزيز أباده فغدا ير      كب عوداً مُرْكَباً في عودِ  
أسلمته إلى القيود رجال      لم يكونوا عن وثرهم برُقودِ  
تحسد الطير فيه ضبع البوادي      وهو في غير حالة المحسودِ  
غاب عن صحبه فلا هو مرجوُّ      لديهم وليس بالمفقودِ  
وكان امتداد كفيه فوق الـ      جذع في محفل الردى المشهودِ  
طائر مد مستريحاً جناحيه      به استراحات متعب مكدودِ  
ثم يورد المؤلف من أسباب الابتكار أيضاً تحدي الأديب، أو الاعتراض عليه ورميه بالقصور، ويرى أن ((النقائض)) في الشعر العربي هي ثمرة الابتكار الذي كان باعته التحدي والإنكار.

ويضيف على ما تقدم أن الحالة النفسية لها دخل كبير في ابتكاره وإبداعه وإجاداته.

(١) د. بدوي طبانة: المرجع نفسه - ص ١٠٩-١١٠.

وبعد أن عرض المؤلف لدوافع الإبداع ومسبباته ومثيراته، ينتقل إلى الاتباع، وهو فيما نرى - الذي يمثل رباطاً بمشكلة السرقات واضحاً أكثر مما يمثله الابتكار والإبداع.

وهو يحاول في حديثه عن الاتباع أن يكشف بعض مسببات السرقة ودوافعها، ممثلة فيما أسماه ((عوامل الاتباع)) ويرى أنه في مقدمة هذه العوامل الإعجاب بالمقلد ممثلاً في المبدع والمبتدع.

ثم يصل عامل الإعجاب بعامل آخر وهو أن يوافق الأثر المقلد هوى في نفس المتبع نحو الشخص أو الأثر المتبع.

وهناك عامل ثالث من عوامل الاتباع، هو غرابة الفكرة المقلدة التي تستثير في المقلد عاملين نفسيين أولهما شعور الإعجاب، والثاني تضليل القارئ الذي يقرأ المقلد شيئاً لم يشتهر في بيئته، وذلك هو النهب أو الاغتصاب.

ثم يسوق المؤلف الحديث إلى الكلام في الاختراع والتوليد، مسترشداً في ذلك بالبَاب الذي عقده ابن رشيق في العمدة بعنوان: ((المخترع والبديع))، فيوضح الفرق بينهما في أن الاختراع: خلق المعاني، والإبداع: الإتيان بالمستطرف الذي لم تجر العادة بمثله، ويسوق لكل منهما شواهد وأمثلة أوردها ابن رشيق في العمدة.

ثم يتحدث بعد ذلك عن التجديد والابتداع من حيث ارتباطها بطبيعة الفن، وحقيقة الأدب، وأن كلاً من التجديد والابتداع له مركب صعب غير يسير، أما الاتباع والتقليد فأمرهما يسير، لا حاجة معهما لفنان أو مبدع، وأن هناك تجديداً عند المحدثين من الشعراء كأي تمام وغيره، وأن الإبداع أو الابتكار لا يختص بزمن

دون آخر، كما شاع بين نقاد الخصومة، الذين تحيزوا للقديم، ونسبوا له كل فن وإبداع، وعلى العكس منهم كان أنصار الحديث، يجردون القدماء من كل معنى مبتكر، ولكن الابتكار لا يختص بالقدماء ولا المحدثين، وإنما هو متاح للشعراء جميعاً قديهم ومحدثهم.

وهو يدل على ذلك بأبيات للمتنبي وأبي تمام ابتكرا فيها أيما ابتكار، بما يدلنا على أن المعاني تتردد وتولد، والكلام يفتح بعضه بعضاً<sup>(١)</sup>.

### الفصل الخامس: السرقة فن

يختتم الدكتور بدوي طبانة كتابه بهذا الفصل الذي عنون له بفنية السرقة إذا كان متوفراً فيها الخدق والمهارة، ويسلمه الحديث إلى الاقتباس، ويجعل منه ما هو مقبول وما هو مباح وما هو مردود، الأول في الخطب والمواعظ، والثاني في الغزل والرسائل، والثالث، أي: المردود قسماً، أحدهما: ما نسبه الله تعالى إلى نفسه، والآخر: تضمين الآية في معنى هزل.

وهو يرى أن الاقتباس على نوعين: نوع لا يخرج به المقتبس عن معناه، والآخر يخرج به المقتبس عن معناه، ويمثل لكل نوع بشواهد من الأدب العربي.

وكما تحتاج السرقة إلى إبداع الآخذ، تحتاج إلى إبداع الناقد حتى يميزها ويقف عليها وينقدها.

ثم يتحدث بعد ذلك عن توارد الخواطر، وتقارب البيئات، وينتقل إلى سوء الأخذ الذي يتمثل في ((النسخ)) أو وقوع الحافر على الحافر، أو أخذ المعنى وأكثر اللفظ، ويمثل لهذه الأنواع بما يمثل به النقاد القدماء.

(١) د. بدوي طبانة: المرجع نفسه - ص ١٦٠.

وفي هذا الفصل يتحدث عن الأخذ الفني الذي تخفى فيه أسباب السرقة، حتى يبعد عن الأصل المأخوذ منه، كما صنع أبو نواس حين أخذ قول الأعشى<sup>(١)</sup>:

وَسَبِيئَةٌ مَّا نَعْتَقُ بِابِلٍ      كَدَمِ الذَّبِيحِ سَلَبَتْهَا جَرِيالَهَا  
فقال أبو نواس:

أعطتك ربحانها العقار      وحن من ليلك انسفارُ  
وهو يقرر أنّ من مظاهر إخفاء الأخذ إخفاءً تبدو فيه الفنية، نقل المعنى من غرض إلى غرض، وذلك كأن ينقل المعنى المستعمل في صفة خمر فيجعل في مديح، أو المستعمل في مديح فينقل إلى وصف، ومنه نظم النثر بأن يأخذ الناظم من الناثر فتخفى السرقة، ومنه نثر المنظوم بأن يأخذ الناثر من الناظم فتخفى سرقة.

ومن مظاهر الفنية في السرقة -عنده- أيضاً اختصار العبارة الطويلة، أو بسط العبارة الموجزة، أو إبانة المعنى الغامض، أو تحسين المعنى السفساف، ويرى أن كل سرقة تنعدم فيها هذه الفنية تكون قبيحة، يظهر فيها ضعف الملكة، وذلك كأن يأخذ المعنى الصحيح فيفسده، أو المعنى البين فيعقده ويعوصه أو المعرض الحسن والكسوة الجميلة فيحيلها معرضاً قبيحاً وكسوة مسترذلة له، وهذه كلها أمور مقررة في مؤلفات النقاد القدماء.

هذا هو الكتاب الأول في السرقات عند المحدثين، وقد رأينا من خلال عرضه وتحليله كيف أن صاحبه أجاد عرض المشكلة في كتب النقاد، وعرض جوانبها

(١) د. بدوي طيانة: المرجع نفسه - ص ١٨٢.

المختلفة مستعيناً بشواهدهم ونصوصهم ومصطلحاتهم، غير مهتم -إلا في القليل النادر- بإلقاء ظلال خارجية على منهج دراسة السرقات عند القدماء، ثمكنا من البحث -في ضوء علوم مساعدة- عن مكان السرقة، ودوافعها ومثيراتها، وعلائقها بغيرها من القضايا بما كان يمكن أن يجلو لنا ما غمض في هذه المشكلة الكبرى من مشاكل النقد العربي القديم.

نعم.. إنها مشكلة كبرى من مشاكل النقد العربي القديم دفعت الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة إلى وصفها بهذه الصفة<sup>(١)</sup> حين أخرج كتابه ((مشكلة السرقات في النقد العربي - دراسة تحليلية مقارنة))، وهذا هو الكتاب الآخر الذي ناقشه في هذا البحث بغية بيان دوره في الإسهام في هذه المشكلة.

ثانياً: كتاب ((مشكلة السرقات في النقد العربي - دراسة تحليلية مقارنة))  
د. محمد مصطفى هدارة.

تعد دراسة الأستاذ الدكتور/ محمد مصطفى هدارة في السرقات أول دراسة مكتملة في السرقات حيث إنها لم تقف عند حدود الحصر والرواية، أو التقسيم والترتيب، كما صنع الدكتور بدوي طبانة في كتابه، لأن مشكلة السرقات ينبغي أن تتعدى حدود الحصر والتقسيم إلى البحث والتعليل، وهذا ما صنعه أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة في بحثه عن السرقات، حتى خرج بحثه فيها معللاً لقضاياها، محللاً لأسبابها ودوافعها، عارضاً لظلالها وشعبها، غير قانع بما أورده النقاد القدماء من شواهد مكررة، ومصطلحات لاكتها الألسن على مر العصور.

(١) د. محمد مصطفى هدارة: مشكلة السرقات في النقد الأدبي - دراسة تحليلية مقارنة - المكتب

وقد كان في هذا الكتاب منارات هدى ومنابع نور، أضاءت للكثير من الباحثين الذين سجلوا إعجابهم بهذا الكتاب، والذين لم ينطقوا بذلك، وإنما نطقت كتبهم بأنها ثمرات لما أمدهم به هذا الكتاب من عون ومساعدة، ومن هؤلاء وأولئك صاحب (المتني بين ناقديه)، والدكتور إحسان عباس في كتابه ((تاريخ النقد الأدبي عند العرب - نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري))، والدكتور أحمد مطلوب في كتابه ((القزويني وشروح التلخيص)) وغيرهم.

ولم تتوقف أهمية هذا الكتاب الذي كتبت له هذه المكانة بين المؤلفات الحديثة عند حد تجاوز حدود التنظير فحسب، وإنما جاءت أهميته أيضاً في عرض المشكلة وإحصاء الظاهرة إحصاءً كاملاً غير مبتور، وكذلك وصل المشكلة بموضوعات الأدب والنقد، حيث لا يكون هناك فصل بين قضايا النقد جميعاً، وربط المشكلة بما يناظرها في الآداب الأخرى، ومحاولة استنباط مفهومات جديدة للسرقة في ضوء الدراسات الإنسانية الحديثة، وبخاصة فيما يتعلق بعلم النفس، وفوق ذلك كله ربط هذه المشكلة بنظيرتها في الآداب الأجنبية.

وقد تمثلت هذه الأهمية في تقسيم الكتاب تقسيماً شاملاً، يتناول شتى جوانب المشكلة بحيث لا يخطر ببال القارئ شيء يود أن يجده في معالجة المشكلة إلا وجده مدروساً مراعى بخير طرق الدرس والمراعاة.

ويجيء هذا الكتاب في خمسة فصول على النحو الآتي:

**الفصل الأول:** ((عرض)) للمشكلة منذ الجاهلية حتى العصر العباسي.

**الفصل الثاني: ((تحليل))** لناهج النقاد العرب في بحث السرقات من خلال كتب الطبقات والتراجم، والكتب العامة والخاصة في الأدب، والكتب العامة في النقد والبلاغة، والكتب الخاصة في النقد، وكتب الإعجاز، وكتب السرقات.

**الفصل الثالث: ((تعليل))** لموضوع السرقات خلال موضوعات الأدب والنقد من حيث الرواية والرواة، وعمود الشعر، ونهج القصيدة، واللفظ والمعنى، وقضايا الخصومة بين القدماء والمحدثين.

**الفصل الرابع: ((مقارنة))** بين بحوث النقاد العرب والأوروبيين في السرقات.

**الفصل الخامس: ((تفسير))** لمفهوم السرقات في ضوء الدراسات الحديثة في إطار ((الإبداع)) وقضاياها، وما عرف بالإطار الشعري الذي يرتكز على الخصومة بين القدماء والمحدثين، وما عرفه بالإطار الثقافي المتصل بأثر ظروف البيئة الطبيعية والاجتماعية، وأيضاً في ضوء عنصر الأصالة والتقليد وصلتهما بمشكلة السرقات.

وسوف نعرض فيما يلي لجوانب المشكلة من خلال فصول هذا الكتاب الخمسة متلمسين ما افتقدناه في كتب السرقات قديماً وحديثاً.

**الفصل الأول - عرض: ((تاريخ السرقات في النقد العربي حتى فترة الجمود البلاغي))**

يعرض هذا الفصل معنى السرقة منذ مفهومها في المجتمع البدائي، وعند الأمم القديمة من اليونان والرومان وفي فكر أرسطو وتقليد هوراس Horass لكل من

أركيلوكس Archilochus وألكيوس Alcaeus حيث كانت السرقة في العصور القديمة أكثر شيوعاً منها في العصر الحديث الذي حفظ للمؤلف حقوق التأليف والنشر.

وإذا كانت السرقة قديمة المدى في تاريخ الفكر الإنساني، فإنها أيضاً قديمة فيما يتعلق بأدبنا العربي وكما نص على ذلك الجرجاني والآمدي وابن رشيق.

وكانت فكرة السرقات في الشعر العربي متصلة بأدبنا الجاهلي كما أورد ابن سلام في ((طبقات فحول الشعراء)) وابن قتيبة في ((الشعر والشعراء)).

ومن هنا يسوق أستاذنا الدكتور هدارة ملمحاً من هذه السرقات في الجاهلية للنابعة وزهير وعبد يغوث بن وقاص الحارثي وطرفة بن العبد والأعشى.

وطبيعي أن تتسع دائرة السرقة في عصر صدر الإسلام عما كانت عليه في الجاهلية، فأصبحت أكثر شيوعاً وأكثر وضوحاً، وذلك عند حسان في سرقة من ابن وكيع، والحطيئة من النابعة، وابن الزبيرى من طرفة، والنابعة الجعدي من أمية ابن أبي الصلت ومن النابعة الذبياني، وغير هؤلاء.

فإذا سار بنا تتبع تاريخ السرقة عبر العصور إلى العصر الأموي، وجدنا السرقة تتسع باتساع دائرة الشعر وتعدد فنونه، حيث يقول أستاذنا الدكتور هدارة في ذلك:

(وقد كان العصر الأموي حافلاً بأنواعها بعد أن اتسع مجال الشعر، وكثر التلاحي بين الشعراء للعصبيات القبلية، والانقسامات السياسية التي حدثت في ذلك العصر).

وقد تبع هذا الاتساع في دائرة السرقات وضوح رؤى السرقة عند النقاد والشعراء أنفسهم، وذلك فيما يرويه المرزباني في ((الموشح)) وابن رشيق في ((العمدة)) وأبو الفرج الأصفهاني في ((الأغاني)).

ويسوق أستاذنا طرفاً من هذه السرقات في العصر الأموي عند الفرزدق، والبعيث، وكثير، والأخطل، ويزيد بن مفرغ، والكميت، وجريير. كما يشهد بشيوع السرقة، وانتشار الأخذ في هذا العصر، حتى صارت شيئاً متعارفاً عليه بين الشعراء والرواة والنقاد.

أما شأن السرقة في العصر العباسي -عصر الثقافة والحضارة- فكان واسعاً شديد السعة إلى حد لم يصل إليه فيها عصر آخر، ويشهد على ذلك هذا الكم الوافر من الروايات التي تصور استفحال هذه السرقات وتنوعها عند معظم شعراء هذا العصر سواء، ومنهم بشار بن برد والعتابي وأبو الشيص وأبو العتاهية وعلي بن جبلة وأبو نواس وغيرهم.

ولم تتوقف السرقة في العصر العباسي عند هؤلاء وإنما تعدت إلى عظام شعراء العصر، ومنهم البحتري والمتنبي مما دفع بعض النقاد إلى تخصيص مؤلفات كبيرة في سرقاتهم.

حاول هذا الفصل أن يرهن على عدة حقائق هامة، استنبطها المؤلف من خلال قراءاته الجيدة للنص الأدبي، وتمحيصه حقائق النقاد التي يوردونها، وتأكده من وجه السرقة فيما يرويه هؤلاء النقاد بروح ناقد يفند الآراء وينتقها، ويعالج ما بها من نقص فيتمه، ويصحح ما بها من خطأ ويصوبه. من هذه الحقائق التي ركز عليها هذا الفصل:

أولاً: أن موضوع السرقات قد اختلف مفهومه من عصر لآخر، من السداجة في العصر الجاهلي إلى الدقة التي تختفي معها السرقة في العصر العباسي.

ثانياً: دخول الصنعة الفنية دائرة السرقة، وجهر الشعراء بها لاعتقادهم بأن ذلك من طرائف الفن السليم.

ثالثاً: ارتباط السرقة منذ ظهور أبي نواس بالحركات النقدية حول الشعراء. رابعاً: أن أبا تمام والبحتري والمتنبي كانوا يمثلون مركز النشاط النقدي في العصر العباسي، ذلك النشاط الذي كانت السرقات الشعرية محوراً له.

خامساً: ذبوع السرقة كلما تقدم العصر، وقلّ ابتداء المعاني، بحيث يعتمد الشاعر معاني الأقدمين، ويوشيهها بالبديع، أو ينقلها إلى غرض آخر، أو يعكسها حتى يخفي سرقة.

ولا شك في أن هذه الحقائق الهامة تمثل حصراً لقضية السرقات الشعرية عبر العصور، وتسم هذه القضية بسمات معالمها، وتوقف الباحث المنصف على طبيعة القضية، وتلمس شعبها واستلماح ملامحها.

### الفصل الثاني - تحليل: ((مناهج النقاد العرب في بحث السرقات))

هذا الفصل دراسة منهجية لموضوع السرقات في أصولها العامة، وفروعها الثابتة، وتحليل لأساليب النقاد في معالجة القضية، بحيث يرى المؤلف أن دراسة موضوع السرقات دراسة منهجية، كانت قبل الخصومات النقدية حول شعر أبي تمام، لا كما ذهب طه إبراهيم وأيده في ذلك محمد مندور من أن لفظ ((السرقات)) لم يستخدمه ابن قتيبة، وذلك لأن لفظ السرقة تدرج تحته معان

كثيرة، كالاجتلاب والإغارة والأخذ والسلخ والاتباع، وكل ذلك مستخدم عند النقاد منذ ابن قتيبة.

ويقسم الفصل المؤلفات التي تعرضت للسرقات إلى عدة أقسام هي:

١- كتب الطبقات والتراجم.

٢- الكتب العامة والخاصة في الأدب.

٣- الكتب العامة في النقد والبلاغة.

٤- الكتب الخاصة في النقد.

٥- كتب إعجاز القرآن.

٦- كتب السرقات.

ومن كتب الطبقات والتراجم كتاب ((طبقات فحول الشعراء)) لابن سلام الجمحي، وهو كتاب لا تبدو فيه النظرة المفصلة للسرقات بقدر ما تبدو في حديثه عن اتجاهات الشعراء في معانيهم، ومن ثم لم يكن لابن سلام منهج معين في دراسة السرقات<sup>(١)</sup>، غير أن له نظرات في السرقات حصرها أستاذنا الدكتور هدارة فيما يلي:

أولاً: اعترافه بوجود سرقات محضة حتى في العصر الجاهلي.

ثانياً: فطنته إلى فكرة الاقتباس والتضمين.

ثالثاً: إقراره بأن اختلاف الرواية يؤدي أحياناً إلى فكرة السرقات.

رابعاً: تنبهه إلى فكرة المعنى المتداول الذي يصير كالمشترك.

(١) هدارة: المرجع نفسه - ص ٩١.

ومن كتب الطبقات والتراجم كتاب ((الشعر والشعراء)) لابن قتيبة وهو -  
 كسابقه- لم يتعرض للسرقة ببحث منفصل، وإنما تتبدى في كتابه بعدة طرق:  
 أولها: ترديده مقالة ابن سلام فيما يتعلق بفكرة المعنى.  
 ثانياً: فطنته إلى السرقة الخافية.  
 ثالثاً: فطنته إلى أن زيادة الآخذ على المعنى تتيح له فضل الزيادة.  
 رابعاً: تأكيده ما فطن إليه ابن سلام من علاقة اختلاف الرواية بالسرقة.  
 خامساً: تنبهه إلى نوعين من السرقات، سرقة في اللفظ، وسرقة في المعنى.  
 سادساً: فطنته إلى أن الاتباع يكون في الطريقة والنهج دون اللفظ والمعنى.

ومن كتب الطبقات والتراجم أيضاً كتاب ((طبقات الشعراء المحدثين)) لابن  
 المعتز، وهو أيضاً يمثل اتجاهاً معيناً فيما يتعلق بالسرقات، غير أنه تنبه إلى فكرة  
 ((احتذاء المثال)) التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالإبداع الفني.

ومنها كتاب ((الورقة)) لابن الجراح، وكتاب ((يتيمة الدهر)) للشعالي،  
 وكتاب ((الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)) للشتريني ابن بسام، وكلها تحمل  
 أخباراً قليلة عن السرقات، لا تمثل منهجاً محدداً، غير أن ابن بسام قد نبه فقط إلى  
 بعض مواضع السرقات في كتابه.

أما عن مناهج الكتب العامة والخاصة في الأدب فهي لا تمثل منهجاً معيناً  
 لدراسة السرقات ومنها:

- ١- أخبار أبي تمام - للصولي.
- ٢- الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني.
- ٣- زهر الآداب وثمر الألباب - للقيرواني

٤- الإيضاح في شرح المقامات الحريرية - للمطرزي.

٥- شرح مقامات الحريري - لابن عبد المؤمن القيسي.

وإن كانت هذه الكتب العامة والخاصة في الأدب، لا تخلو من بعض نظرات عامة أو ملاحظات موجزة حول موضوع السرقات.

أما القسم الثالث وهو الكتب العامة في النقد والبلاغة، فقد عنيت بدراسة مشكلة السرقات دراسة مستفيضة - بوصفها المشكلة الأولى من مشاكل النقد والبلاغة- بحيث شكلت في مجملها ما يمكن تلمسه من خلال عرض هذه الدراسات:

ومن أهم هذه الكتب:

- ١- كتاب ((البديع)) لابن المعتز.
- ٢- كتب ((عيار الشعر)) لابن طباطبا.
- ٣- كتاب ((الموشح)) للمرزباني.
- ٤- كتاب ((حلية المحاضرة)) للحائمي.
- ٥- كتاب ((الصناعتين)) لأبي هلال العسكري.
- ٦- كتاب ((العمدة)) لابن رشيق.
- ٧- كتاب ((قراضة الذهب في نقد أشعار العرب)) لابن رشيق.
- ٨- كتاب ((أعلام الكلام)) لابن شرف القيرواني.
- ٩- كتاب ((أسرار البلاغة)) لعبد القاهر الجرجاني.

١٠ - كتاب ((البديع في نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر.

١١ - كتاب ((المثل السائر)) - ((الجامع الكبير)) - ((الاستدراك)) لابن

الأثير.

١٢ - كتاب ((مناهج البلغاء وسراج الأدباء)) لحازم القرطاجني.

ويضاف إلى هؤلاء مجموعة مؤلفات شكلت في مجملها منبر تكرر وترديد لما

ساقه هؤلاء المؤلفون فيما يتعلق بالسرقات، ومنهم:

١ - ابن أبي الأصبع في ((تحرير التحبير)) و((بديع القرآن)).

٢ - نجم الدين بن الأثير في ((جوهر الكثر)).

٣ - القزويني في ((الإيضاح)).

٤ - الأقسرائي في ((شرح الإيضاح))، وغيرهم ممن اتسمت مؤلفاتهم

بالجمود في دراسة السرقات، وتحول موضوعها إلى كتب البلاغة الخالصة كما

يقول أستاذنا الدكتور هدارة معللاً لذلك التحول:

(بعدما وجد من أنواع السرقات ما يتصل بالبديع، وبعد ما بدأ الحديث عن

جمال الصياغة وتجديدها يتخذ ركناً هاماً في دراسات الباحثين)<sup>(١)</sup>.

أما القسم الرابع فهو الذي يحدد الكتب الخاصة في النقد، وهي كتب شغلت

بموضوع السرقات بحثاً ودراسة لأنها قضية مثلت محوراً رئيسياً للحركات النقدية

التي ألفت لأجلها هذه الكتب وهي:

(١) د. هدارة: المرجع نفسه - ص ١٤١.

١- الموازنة - للآمدي.

٢- الوساطة - للقاضي الجرجاني.

٣- الكشف عن مساوئ المتنبي - للصاحب بن عباد.

وقد مثل الأولان منها أساساً هاماً بالنسبة لمشكلة السرقات.

أما القسم الخامس فهو ما يتعلق بكتب إعجاز القرآن، وهي تعد من كتب البلاغة الخاصة إلا أنها تعنى ببحث النواحي النقدية والبلاغية لخدمة غرضها الأساسي في بحث الإعجاز، ولذلك فهي تعرض لمشكلة السرقات دون أن يمثل ذلك فيها منهجاً محدداً، ومن هذه الكتب:

١- إعجاز القرآن - للباقلاني.

٢- دلائل الإعجاز - لعبد القاهر الجرجاني.

٣- الطراز - للعلوي.

أما القسم الأخير من هذه الكتب فهو الكتب التي جعلت السرقات وحدها موضوعاً لها، وهي:

١- سرقات أبي تمام - لابن أبي طاهر.

٢- سرقات البحري من أبي تمام - لأبي الضياء.

٣- سرقات أبي نواس - لمهلل بن يموت.

٤- الرسالة الموضحة والرسالة الحاتمية.

٥- المنصف - لابن وكيع.

٦- الإبانة عن سرقات المتنبي - للعميدي.

٧- المآخذ الكندية - لابن الدهان.

وقد حدد أستاذنا د. هدارة منهج كل منها في بحث السرقات تحديداً علمياً دقيقاً، بحيث أنصف ما يستأهل الإنصاف منها، ونقد فيها ما حاد عن الصواب وأجحف في الحكم.

وقد تبين لأستاذنا من خلال حديثه عن مناهج هذه الكتب وغيرها من الكتب العامة والخاصة في الأدب والنقد والبلاغة - تبين له عدة حقائق تصل ما بدأ بما ألقى أهمها:

أولاً: تباين اتجاهات هذه الكتب في التأليف، واتفقها في مشكلة السرقات.

ثانياً: اختلاف طرق معالجة المشكلة وتباينها فيما بين نوعيات هذه الكتب، بما يتفق مع غرضها الذي ألفت لأجله.

ثالثاً: الاتفاق بين هذه المؤلفات في إرساء قواعد هذه المشكلة، وتتبع تطورها من حيث كثرة أنواعها وتعدد صنوفها وأشكالها.

رابعاً: أن كثيراً من هذه المؤلفات وصلت الدرس النقدي بالدرس البلاغي، ومن هنا اتضح تشابك قضايا هذين الدرسين وقضية السرقات الشعرية.

خامساً: أن النقاد العرب قد تصدوا لمشكلة السرقات ودرسوها دراسة متعمقة، وحددوا أصولها وقواعدها، وشكلوا ملامح دراستها في الدراسات الحديثة.

ولا شك في أن الناظر في هذا الفصل من فصول هذا البحث القيم الذي بين أيدينا - لا شك في أنه يلحظ جهداً خارقاً، وروحاً علمية، تتمثل في عدة نقاط:

**أولها:** الإحصاء الكامل لمادة الموضوع من خلال عرض مؤلفات النقاد بهذه الكثرة التي أتاحت للمؤلف تكوين نظرات ذات قيمة في تحديد مسار هذه المشكلة.

**ثانيها:** عدم النظرة إلى الكتب التي تناولها هذا الفصل بصورة كلية، إنما بتجزئتها إلى صنوف تنتمي كل مجموعة منها إلى صنف بعينه، حسب طبيعة اهتمامها.

**ثالثها:** عدم التسليم - في غير نقد - بالقضايا التي أثرت في هذه المؤلفات.

**رابعها:** إبراز الصورة العامة التي شكلتها هذه الكتب - فيما يتعلق بالسراقات - حتى كونت للمشكلة هيئتها وكيونتها وصلتها ببناء النقد عامة.

### الفصل الثالث - التعليق: ((موضوعات الأدب والنقد المتصلة بالسراقات)).

اهتم هذا الكتاب - من بين ما اهتم به - بوصل مشكلة السراقات بما تتعلق به موضوعات الأدب والنقد، حتى لا تدرس دراسة منعزلة عن معالم النقد وحدود الأدب في العصور المختلفة، حتى تكتمل الصورة اكتمالاً يبيح لها تمثلها تمثلاً حقيقياً في البناء النقدي، وهذا ما حرص عليه أستاذنا الدكتور هدارة في كتابه بما تشهد به كل ورقة من ورقاته.

وهذا الفصل يتناول - في مجمله - صلة المشكلة بما يمكن أن تتصل به من موضوعات النقد على كثرتها وتشعبها، وكما يقول المؤلف:

((ونحن لا نستطيع أن نفهم مشكلة السرقات في النقد العربي ما لم ندرك تماماً طبيعة هذه الموضوعات النقدية والأدبية المتصلة بها، ومدى تأثيرها في هذه المشكلة))<sup>(١)</sup>.

ومن بين هذه القضايا التي تتصل بموضوع السرقات، قضية ((الرواية والرواة)) التي حدث بها من حيث الرواية اضطرابٌ سمح للنقاد بادعاء السرقة على شاعر من الشعراء، وذلك ما نص عليه ابن سلام وابن قتيبة، مما أدى إلى اتهام كل فريق الآخر بسرقة الأبيات.

وربما اتصل ذلك الاضطراب - كما يرى المؤلف - بالرواة المتأخرين مما أدى إلى هذه الكثرة من ادعاءات السرقة.

ويضاف إلى ذلك ما أدركه أستاذنا الدكتور عبد القادر القط من أن هذه الكثرة الهائلة من الشعر التي لم يتم تدوينها أغرت الشعراء بالسرقة.

ويضيف أستاذنا الدكتور هدارة عاملاً آخر وهو أن الشاعر كان يحتاج إلى الرواية وهي بدورها تحتاج إلى الحفظ الذي يؤثر تأثيراً قوياً في شخصيته الفنية، ولا سيما أن معظم هؤلاء الرواة كانوا شعراء.

أما الموضوع الثاني الذي يتصل بمشكلة السرقات فهو موضوع ((عمود الشعر ونهج القصيدة)) الذي ضيق أمام الشاعر فرصة التجديد والابتكار، فصار محصوراً في دائرة المعاني الجزئية، مما جعل معظم الشعر العربي قوالب مكرورة في الإطار العام للقصيدة، مما أدى إلى توارد المعاني الجزئية لدى الشعراء، الذي ولد التشابه الشديد في هذه الأشعار من حيث الأسلوب دون تعمد للأخذ.

(١) د. هدارة: المرجع نفسه - ص ٢٠٩.

أما الموضوع الثالث فهو ((اللفظ والمعنى)) وفيه يرى أستاذنا الدكتور هدارة أن أثرهما في موضوع السرقات واضح، منذ نشأت فكرة إعجاز القرآن، وانشطار النقاد حيالها بين مؤيد للفظ ومؤيد للمعنى، وكل منهما يقيد الشعراء في ناحية، ويطلقهم في أخرى، مما كان سبباً في توسيع مشكلة السرقات تبعاً لاختلاف النقاد حول اللفظ والمعنى.

أما الموضوع الرابع فهو قضية ((الخصومة بين القدماء والمحدثين)) تلك التي قامت بين النقاد في نظرهم للشعر قديمه ومحدثه، فتشعبوا فريقين كل منهما يناصر ما ذهب إليه.

ويرى أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة أن من أسباب تحامل جماعة النقاد المؤيدين للقديم، خروج الشعراء المحدثين عن عمود الشعر ونهج القصيدة، وهنا يتقرر أمامنا صلة موضوع الخصومة بقضية السرقات.

تلك هي أهم موضوعات الأدب والنقد التي اتصلت اتصالاً وثيقاً بقضية السرقات، بحيث يرى المؤلف أنه لا يستطيع فهم مشكلة السرقات إلا بعد فهم هذه العناصر<sup>(١)</sup>، ولذلك فإن نظرتة لهذه الموضوعات ذات الصلة بموضوع السرقات لم تكن نظرة عابرة سطحية، وإنما أراد في بحثه لها استقصاءها في كتب النقد، وربما تعلق في حديثه ببعض شعبها وجذورها، حتى لربما تبين للقارئ إطالة في غير فائدة، إلا أن القراءة المتمهلة لعرضه تلك القضايا، توضح ما يهدف إليه من تلمس تلك الصلة فيما بينها وبين موضوع البحث، كما تكشف عن فهم صحيح رائد لتلك القضايا في مجملها وعند تفصيلها.

(١) د. هدارة: المرجع نفسه - ص ٢٤٤.

## الفصل الرابع — مقارنة: (مقارنة بين بحوث النقاد العرب والأوروبيين في السرقات).

وهذا جهد موفور انفرد به المؤلف عن سائر من كتبوا في السرقات أو اقتربوا منها، استطاع من خلاله أن يتمم دائرة البحث في مؤلفات النقاد العرب مشهورهم ومغمورهم بآراء النقاد الأوروبيين فيما يتعلق بدراسة السرقات.

ومن منطلق أن السرقة ظاهرة عامة، فقد تبين لأستاذنا أن بحثها كان قديماً عند النقاد الأوروبيين، بل تناولوا بعض مصطلحاتها في أدبهم، وأكثر من هذا أنهم فرقوا بين بعض مصطلحاتها، مما دق استخدامه عند نقادنا العرب، كالفرق بين السرقة والتقليد والاحتذاء في الأصل اللاتيني لما تعنيه هذه الألفاظ.

وبذلك فقد سبق النقاد الأوروبيون العرب من النقاد بهذه التفرقة التي لم يتضح لها معلّم عند النقاد العرب إلا في وقت متأخر.

ويعرض المؤلف في هذا الفصل لآراء كثير من النقاد الأوروبيين فيما يتعلق بموضوع السرقات بصورة جادة مشرقة، لا تقل جودة ولا إشراقاً عما ساقه من آراء النقاد العرب.

ومن أورد من آرائهم ومباحثهم في السرقة من النقاد الأوروبيين:

١- شبلي Shipley.

٢- فرناندز Fernands.

٣- بن جونسون Ben Johnson.

٤- سيرسيدني لي Sir Sidney lee.

٥- إدواردز Edwards.

٦- شيشرون Schichron.

٧- ديموستين De Mausteen.

٨- كونتليان Khontlean.

كما بحث آراء النقاد الأوروبيين في عصر النهضة واستخدامهم مصطلحات السرقة عند شعرائهم.

وقد تبين من خلال هذا العرض المستفيض الذي أوردناه في إيجاز شديد عدة حقائق فيما يتعلق بالمقارنة من أهمها:

١- أن النقاد الأوروبيين كانوا حماة التراث النقدي في أدبهم كما كان جماعة النقاد العرب الذين تعصبوا للقلم.

٢- إلزام هؤلاء النقاد شعراءهم بضرورة العيش على تراث أجدادهم، كما صنع نقاد العرب.

٣- حدد (بوب) مراجع ثلاثة لا بد للشاعر أن يصدر عنها هي:

أ- فكرة الطبيعة.

ب- فكرة آثار السلف.

ج- فكرة العقل.

فالشاعر مطالب باتباع الطبيعة أولاً، ولن يتسنى له ذلك إلا بمثل آثار السلف، وذلك يعني دراسة الفن الذي ينطبق دائماً على العقل<sup>(١)</sup>.

٤- إتفاق النقاد العرب والأوروبيين في تقرير مبدأ أن الأول لم يترك للآخر شيئاً.

٥- يقرر هوراس Horass وهيرد Herd فكرة تجدد العبارة الشعرية، وأن الصياغة الشعرية هي العامل الأساسي في جمال الشعر.

٦- أن أساس نظرية محاكاة النماذج القديمة إنما يرجع إلى التمييز بين اللفظ والمعنى، وهي قضية بارزة في النقد العربي.

٧- قضية التلمذ على شعراء في الأدب العربي لها نظير في الأدب الأوروبي، كما كان بين المتنبي وأبي تمام وبين جون كيتس John K وشكسبير.

٨- تبين للمؤلف أن النقد العربي عني بدراسة جزئيات المشكلة، مما أضعف جهده في الوصول إلى الأسس الفنية الشاملة للسرقات، تلك التي وصل إليها النقد الأوروبي.

٩- ميز النقد الأوروبي بين أنواع من السرقات تحدد في:

أ- الاستيحاء.

ب- التأثير.

ج- استعارة الهياكل.

د- السرقات المحضة.

وتحديد مسار كل هذه الأنواع فيما يتعلق بقضية الإبداع عامة.

وبذلك استطاع أستاذنا الدكتور هدارة تحديد مكان بحوث السرقات في النقد العربي بالنسبة للفكر الغربي، وإدراك مواطن النقص وجوانب السبق في هذه البحوث إدراكاً تقوده يد باحث جاد يعرف للحق موضعه، ويتقن تحديد مواطن الداء.

### الفصل الخامس: تفسير: (مفهوم السرقات في العصر الحديث).

يُعدّ هذا الفصل بمثابة مقالة جهيزة<sup>(١)</sup> التي تقطع القول في هذه المشكلة، في محاولة جادة لتمثيل شعبها في ضوء التحكيم الصائب المتطور، ومن هذا المنطلق أراد المؤلف توجيه المشكلة وجهتها الصحيحة، ونفي الأوهام عنها، وإزالة الشك في مقدرة الأدب العربي على التحديد والابتداع.

ويبدأ الفصل بعرض وجهة نظر بعض النقاد المحدثين في مغالاة نقاد العرب القدماء حول موضوع السرقات، ويحاول تحديد الأسس التي تقوم عليها مشكلة السرقات، وتفسر في ضوئها، وهي أسس يراها أستاذنا الدكتور هدارة متصلة بطبيعة الفن عامة والشعر على وجه الخصوص.

من أهم هذه الأسس ((الإبداع الفني))، وقضية الإبداع وجذورها ومثيراتها من أعقد قضايا الشعر، لنسبتها أحياناً إلى قوى سحرية، ثم صارت عند المحدثين نوعاً من ((الحديث)) الذي يعدّ أمراً خفياً يحدث فجأة.

(١) إشارة إلى المثل العربي القديم: قطعت جهيزة قول كل خطيب.

ثم يتساءل المؤلف عن عملية الإلهام، وهي أن عملية الإلهام لا تحددها ملامح خفية فحسب، وإنما تحددها كذلك مجموعة مراحل يذكرها (دي لاكورا) في أربع نقاط:

- ١- الإبداع المفاجئ.
- ٢- الإبداع البطيء.
- ٣- الإبداع اليقظ الشعوري.
- ٤- الإبداع الخاضع لحكم العادة.

ولكل من هذه الصور ظروف معينة تجمعها صورة واحدة، كما تؤكد ذلك كاترين باتريك Catharine Patrick التي ترى أن الفكر المبدع يَمُرُّ بأربع مراحل تتمثل في:

- ١- الاستعداد أو التأهب.
- ٢- الإفراخ.
- ٣- تبلور الفكرة.
- ٤- نسيج الفكرة وتفصيلها.

ومن هنا ينتفي عن الإبداع صلته بالهبة الإلهية أو الشيطانية، ولكم تساءل النفسيون عن الصور والمعاني الشعرية، واتفق بعضهم من أمثال فرويد ويونج في تحديد مصادرها وإرجاعها إلى اللاشعور، بما يؤكد لدى المؤلف أن عملية الإبداع

الفني ليست مفاجئة بالنسبة للشاعر، وأن خيال الشاعر يعتمد في عمله على الذاكرة أو التذكر الذي ينقسم قسمين:

١- تذكر تلقائي تسبح فيه قوة التخيل.

٢- تذكر متعمد قوامه الاستدعاء.

ويسوق المؤلف جانباً من حصر الباحثين العوامل المؤدية إلى تداعي المعاني في ثلاثة قوانين هي: التجاور والتشابه والتضاد.

أما الأساس الثاني الذي يبحثه المؤلف في إطار قضية السرقات فهو: ((الإطار الشعري)) الذي يعني الاطلاع على آثار السابقين، والذي جعله النقاد قديمهم ومحدثهم أساساً لأي شاعر.

وهذا الأساس يراه أستاذنا خصومة توجد في كل أدب، وهي الخصومة بين القديم والجديد.

وينطلق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة من خلال هذا المفهوم إلى قضية مهمة، وهي أن مفهوم التجدد يعني حدوث شيء جديد من حيث الأساس، ولكنه يتضمن في الوقت نفسه بقاء شيء قديم، ويقول:

((إن حوادث الماضي وأفاعيله لو لم تترك أثراً في النفس ما استطاع الإنسان أن يرتقي إلى مرتبة (العقل العالي) التي وصل إليها، ولنقي محروماً من قابليات الحكم والفهم والتفكير والإبداع حرماناً مطلقاً))<sup>(١)</sup>.

(١) د. هدارة: المرجع نفسه - ص ٢٨٤.

وفي هذا الفصل حقيقة مهمة وهي أن النقاد العرب لم يحسنوا استخدام فكرة الإطار الشعري في تصور مشكلة السرقات على حقيقتها، وأن الإطار الشعري لا يفرض على الشاعر تقليد الصور الموجودة فيه بعينها ما دامت تتمثل للشاعر فرصة الابتكار والتجديد.

وثالث هذه الأسس التي تفسر من خلالها قضية السرقات تفسيراً حديثاً (الإطار الثقافي) وهو يتصل بالإطار الشعري، إلا أنه أعم منه، إذ لا يتحكم فيه فن الشعر، وإنما تتحكم فيه ظروف البيئة الاجتماعية والطبيعية، وظروف اللغة والعصر، وأثر ذلك كله في فن الشاعر.

أما الأساس الرابع فهو (الأصالة والتقليد) ضمن قيود عملية الإبداع الفني، التي يخضع لها موضوع الابتكار والتجديد، ومن ثم فإن الابتداع - كما يراه أستاذنا - يوجد داخل نطاق الإطارين الثقافي والشعري.

ويتبين للمؤلف - مع ذلك - عدم فهم النقاد العرب للأصالة والتقليد حين وضعوا للابتداع مصطلحاً خاصاً وآخر باللفظ، وأن العرب غالوا في بيان معنى الابتداع مما سبب دخول الصنعة في الشعر العربي.

ويرى أن هناك فرقاً بين نوعين من التحرير، أولهما في الآخر ملفق يؤدي بالشعر إلى الانهيار والجمود.

وبهذا العرض المفصل لجوانب مشكلة السرقات في النقد العربي ينتهي كتاب أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة، ليضع بذلك أيدينا على قضية هامة من قضايا النقد العربي شكلت جانباً من جهد عظيم بذله أستاذنا الجليل لينير عقولاً خيمت عليها ظلمات الجهالة، وغشيتها مراكب القصور والتقصير، لتشهد هذه

الدراسة - مع مثيلاتها مما أبدع نسجه - بأن الخائض في موضوعات النقد العربي لا بد من أن يتسلح بأسلحة هي بعض ما كان عوناً لأستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة في إخراج هذا الكتاب.



Obelisknada.com

بين البعد الإنساني والصدق الفني:  
نظرات في المنهج النقدي  
للأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة

د. منصور نصرة

بعيداً عن المصطلح النقدي الجاف وصيغ الجدل والتعريفات الموغلة في الإبهام والتعقيد، وإن شئت فقل والتغريب في عالم الأدب والفن، فليسمح لي القارئ الفاضل أن أقرب ولو قليلاً من فكر أستاذنا العالم الدكتور محمد مصطفى هدارة.

وقد اخترت هذين البعدين: البعد الإنساني، والصدق الفني بوصفهما معيارين أساسيين في منهجه الحضاري المتكامل بشقيه النظري والتطبيقي، والقائم على دعامي الأصاله والمعاصرة، حيث تشربت روحه قيمهما الثقافية من الجذور التراثية والإنسانية الضاربة في أعماق التربة العربية، منفتحاً على منافذ الفكر العالمية في الشرق والغرب، دون أن يسعى لتطبيق أي من هذه المذاهب أو المدارس الوافدة قسراً على آدابنا، وهو يعي تماماً كيف تلاحقت واضطربت كثير من هذه المذاهب، حتى غدت مثل موضة الأزياء على حد قول (جورج واطسن) لأبناء جيله: (فإن لم تك وجودياً في الأربعينيات، وبنوياً في الخمسينيات،

وماركسياً في الستينيات، ومتحمساً لنظرية اللغويات في السبعينيات قضي عليك بسهولة..<sup>(١)</sup>.

اعتد الدكتور هدارة بالنص (Text) فأولاه عناية فائقة، ولم ينظر إليه بمعزل عن البيئة المحيطة بالأديب في سياسة واقتصاد، وظروف اجتماعية، وتقاليدي، وتيارات ثقافية وفنية، تترك تأثيراتها في صنع العمل الفني، وتشكيل المبدع نفسه، مدققاً ومتفحصاً في تأثيرات العمل الأدبي بالنسبة للمجتمع الإنساني، ومدى تعبيره عن الحياة بجلوها ومرّها.

ولم تنفصم في عالمه النقدي العلاقة الوثيقة بين التنظير والتطبيق، فقد أحكم الوصل بينهما. نجد ذلك من خلال محاضراته لآلاف من طلاب الجامعة الذين تخرجوا على يديه، وفي أبحاثه وكتبه ومترجماته، وفي رسائل الماجستير والدكتوراه المختلفة والمتنوعة في موضوعاتها، والتي تربو على المئتين، وفي حقل الحياة الأدبية والعلمية خارج أسوار الجامعة في المنتديات الثقافية، وفي برامج الإذاعة والتلفزيون، وعلى صفحات الجرائد والمجلات العامة والمتخصصة على المستويات المحلية والإقليمية والعربية والأجنبية.

وفي معالجاته الإنسانية يركز الدكتور هدارة الضوء على الإنسان بوصفه محرراً لهذا الكون ومشكلاته، ويكشف لنا بتحليلاته أبعاداً خفية، وقيماً جديدة بما يثيره بداخلنا من عواطف واهتمامات تجاه موضوعات ربما لم توف حقها - فيما

(١) جورج واطسن - الفكر الأدبي المعاصر، ترجمه د. محمد مصطفى بدوي - الهيئة المصرية العامة

قبل - من البحث، أو تواتر على معالجتها النقاد من زوايا بعينها، فلم تقيم بقدر ما تستحق، أو أغمط حق مبدعيها من قبل.

فنجده يشدنا بمعالجته لشعر الصعاليك، والشعراء (المقلين)، وأدباء الأقاليم، والانتماء في الشعر العربي المعاصر، وغيرها من الظواهر والقضايا التي لا يتسع المقام للإشارة إليها في هذا الحيز.

ويتناول الدكتور هدارة بالدراسة موضوع الصعاليك وشعرهم من زاوية التكافل الاجتماعي، وموضوعيته الإنسانية في اتصاله بالمعنى العام للاشتراكية، والربط بين الفن والحياة تحت عنوان ((التكافل الاجتماعي في شعر الشعراء الصعاليك))<sup>(١)</sup> مبيناً دور هذا النوع من الشعر ومجلاً ظواهره الفنية، بوصف هذا الشعر سلاحاً - في هذا الوقت - من أسلحة الصراع ضد التمييز الطبقي في مجتمع ظالم متعدد الطبقات، تستخدمه فئة الصعاليك وهي تطالب بحقها، وتشد المساواة والعدالة الاجتماعية<sup>(٢)</sup>، فيعرض نصوصاً لأشهر شعرائهم، مستخلصاً بتحليلاته العميقة الأدلة لفكرته، ومستنبطاً القيم والأبعاد الإنسانية في إبداعهم المغبون، وعلى الأخص لزعيمهم (عروة بن الورد)<sup>(٣)</sup> الذي يصور مذهبهم وكفاحهم في أبياته:

إني امرؤ عافي إنائي شِرْكَةٌ      وأنت امرؤ عافي إنائك واحدُ  
أهزأ مني أن سمنتَ وأن تَرَى      بجسمي مسَّ الحقَّ والحقُّ جاهدُ

(١) د. محمد مصطفى هدارة - دراسات في الشعر العربي (تحليل لظواهر أدبية وشعراء) ص ٤ -

دار المعرفة الجامعية ١٩٨٣.

(٢) المرجع السابق ٥/١.

(٣) المرجع السابق ١٧/١.

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء، والماء بارد  
ويلمس الدكتور هدارة وتراً حساساً سامياً لدى هذه الفئة من الشعراء،  
ويجسم أصداءه، ويعلي من شأنه، وهو يحلل ظروف حياتهم، يكابدون مرارة  
الحياة والواقع الأليم، ويحسون بهوان المترلة الاجتماعية<sup>(١)</sup>، وذلك الوتر الخفاق هو  
(التعفف)، التعفف (الذي تتسم به حياة الصعاليك الواقعية، والذي يقهرون به  
أنفسهم برغم فقرهم وجوعهم، ليثبتوا القوة لأنفسهم، حيث يظن بها الضعف،  
وليبيّنوا أن الفقير إذا تعفف كان أقوى وأكرم من الغني الجشع المتهالك على  
الماديات من الأمور، وصور هذا التعفف الشديد الذي يبلغ أحياناً درجة القسوة  
على النفس وتعذيبها)<sup>(٢)</sup>.

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم بأعجلهم إذ أحشع القوم أعجلُ  
وما ذاك إلا بسطة من تطول عليهم وكان الأفضل المتطولُ

والدكتور هدارة في تناوله هذا إنما يوجه الدعوة لإعادة قراءة هذا النتاج  
الوافر - من الشعر العربي الذي كتبه هذه الفئة - قراءة جديدة بمفهوم مغاير لما  
ألفه البعض، فلا بد من إعمال ظروف الحياة وتأثيرات المجتمع التي تحفل بسمات  
الكفاح والتمرد والفداء والتضحية، وكلها سمات إنسانية، نلمح من ورائها أيضاً  
الدور البارز الملقى على عاتق المجتمع، وعلى الأخص سلطته والدور المنوط بها في  
تحملها المسؤولية تجاه الفرد في مقابل ما يقدمه الفرد من تضحيات وخدمات،  
فيحدث الاتزان المنشود في طرفي معادلة الحياة.

(١) المرجع السابق ٧/١.

(٢) المرجع السابق ١٠/١.

أما الشعراء المقلون، وهم كثير في أدبنا العربي، فينهض الدكتور (هدارة) لمناصرة قضيتهم في شخص الحصين بن الحمام المريّ، ويستنكر في بحثه (مانع الضيم ابن الحمام المريّ)<sup>(١)</sup> ما درج عليه قدامى النقاد العرب من أمثال (ابن سلام الجمحي) في كتابه طبقات فحول الشعراء من تصنيف الشعراء وفق غزارة إنتاجهم<sup>(٢)</sup>، ويسوق من الأدلة ما يؤيد مطلبه، ويدحض فكرة ابن سلام غير العادلة التي تتنافى والمنطق، فإن حجب شعر الحصين لأنه لم يكن من شعراء المعلقات، فشاعرنا من شعراء المفضليات والحماسة واختار شعره الفحول المجيدون.

ومن خلال هذا الشاعر (المقل) - في رأي البعض - الحصين بن الحمام المري يتطرق الدكتور هدارة إلى إبراز خصيصة من أرفع خصائص وميزات الإنسان العربي، ويظهرها تحت ميكروسكوب النقد، ألا وهي (نجدة الجار)، عندما حاول الحصين أن يقف في وجه أبناء عمومته ليمنعهم من الاعتداء على جيرانه، ولما لم ينجح (اضطر إلى قتالهم رعاية لحرمة الجوار، ومنعاً للضيم، برغم قلة عدد قومه بالنسبة إلى أبناء عمومته، ولكنه لم يبال. وهذا الخلق العربي النبيل الذي يقوم على الفداء والتضحية في سبيل المبدأ والواجب انتصر على المعتدين...)<sup>(٣)</sup>.

ويحلل الدكتور هدارة الدوافع التي أوقعت الشاعر في حيرة من أمره، فالشاعر صادق (ويعبر شعره عن هذا الصراع النفسي الذي جعله بين رغبتين،

(١) المرجع السابق ٤٠/٢.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق ٤١/٢، ٤٢.

تناقض كل منهما الأخرى: دفاعه عن صلة الرحم والقربى، ودفاعه عن الجوار، ولكنه لم يلبث أن نصر الجوار..<sup>(١)</sup>.

وينبني لكشف جوانب أخرى مشرقة في شخصية الشاعر، تشف عن قيم إنسانية أخرى، وأخصها النبل والصفح، وقد أطلق الشاعر سراح صديقه اليرج ابن الجلاس الطائي وأسماء بنت عمرو حيث كان قد أسر الأول، وسبى الثانية في المعارك التي خاضها، ويلتقط الناقد من الأسباب ما يؤكد حسن إسلام هذا الشاعر وصدقه، دفعاً للشبهات عنه، ويخرج حكمه العادل: (هكذا كان الحصين بن الحمام شريفاً في الجاهلية، عظيماً في الإسلام، واستحق أن يعرف في تاريخ العرب بأنه مانع الضيم بشجاعته في الحق، وتضحيته في سبيل المثل العليا للإنسان العربي..)<sup>(٢)</sup>.

ولا شك في أن هذا النهج من المعالجة النقدية يدعونا للاهتمام بشعر من نسميهم بالمقلين، بينما يتوزع شعرهم في كثير من المصادر التراثية من سير ومجاميع شعرية ومختارات، ويحفز الباحثين لجمع أشعارهم واستخلاص ما فيها من أبعاد واهتمامات، تمهيداً لوضعهم في مراتبهم التي يستحقونها، ألم يكن في مقدور فحل من شعراء العربية مثل الأعشى (ميمون بن قيس) صناجة العرب أن يصبح في عداد هؤلاء المقلين، لولا أن قيض الله له من الباحثين مستشرقاً مثل (جاير) الألماني الذي توفر على شعره قرابة الأربعين عاماً ليطلبه (واستعان بعد ذلك بعدد

(١) المرجع السابق ٤٣/٢.

(٢) المرجع السابق ٤٤/٢.

ضخم من الكتب العربية بلغ في مجموعته خمس مئة وتسعة وستين مؤلفاً، استخراج منها جميعاً كل ما روي للأعشى من شعر<sup>(١)</sup>.

ويسلمنا الموضوع السابق إلى موضوع حيوي لا يقل عنه أهمية ألا وهو (شعراء الأقاليم) وقد بحثه الدكتور هدارة بريادة فائقة في كتابه (الشعر العربي المعاصر.. إلى أين؟) وتناول فيه طائفة من شعراء إقليم الغربية بالدراسة النقدية والتوجيه لتقويم إنتاجهم، برغم بعدهم عن المدينة وأضوائها، وبرغم إغفال دور النشر والإعلام لإبداعهم، فضرب بذلك مثلاً رائعاً يحتذى بوصفه أستاذاً جامعياً يترل للساحة لمناقشة هذا القطاع العريض، ويقف معهم في الميدان، ليكون بمثابة المبشر الذي ييسر ولا يعسر، يمهّد الطريق، ويرسم معالمه، ويحفزهم للعطاء بفطرة وتلقائية، بعيداً عن تعقيدات وفلسفات المذاهب (وأياً كان الأمر فالعبرة في الأدب لا تكمن في الاتجاه الذي يذهب إليه المنشئ، ولا في المذهب الذي يصطنعه المبدع، ولكنها في صدق التعبير، وجمال الأداء، وحرارة الانفعال، وهذه أمور لا تتأتى بمذهب أياً كان المذهب، وإنما تتأتى لمن يعبر في حرية دون افتعال، وتلك هي الأصول التي يقوم عليها الأدب، وبها ينتشر، وتزال من وجهه كل عقبات اللغة، وحواجز اللون أو الجنس، وإن شعرنا العربي إذا ابتعد عن التقليد والمحاكاة، ونبع من قلب مجتمعا، ومن عمق أصالتنا وانتمائنا، وعبر المبدعون فيه عن أنفسهم في صدق، سوف يغزو كل قلب، ويدخل إلى حنايا العقول<sup>(٢)</sup>، ولا يكتفي المعلم بوصاياه، بل يعمل منظاره بالفحص والتدقيق الأدبي لقصائدهم،

(١) د. محمد محمد حسين - (ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس) ص ٣ المكتب الشرقي للنشر والتوزيع بيروت ١٩٦٨.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة - الشعر العربي المعاصر إلى أين ٩٠١٠ مطبوعات الراجعي ١٩٨٤.

ويلحقها بكتابه، ويعلن إشفاقه عليهم في دوامة التساؤلات حول المسؤول عن التصغير بحق شعراء الأقاليم، ويخاف عليهم من تقليد سياسة التزوح من الريف إلى المدينة أسوة بغيرهم ممن هاجروا (فيفقدون في سبيل الشهرة التي قد لا يصلون إليها جذورهم، والتصاقهم ببيئتهم ومشاكلها التي تظل هي الأساس المكين، والعصب الحي الذي يمد الشاعر والكاتب بأخيلته وصوره وأفكاره ومستلزماته الفنية كافة)<sup>(١)</sup>.

وتُعد هذه الدراسة بمثابة التطبيق العملي والممكن للشق الأكاديمي ونظريات الأدب، وهي تجربة ميدانية قد تكون غير مسبوقة، أجراها د. هدارة على عينة عشوائية في هذا الإقليم الريفي، وبطريقة تذكرنا بدراسات علم الاجتماع التطبيقي، وقد خرج منها بنتائج إيجابية، لها أهميتها القصوى بالنسبة لقضايا التجديد، والشكل والمضمون والموقف من القديم والحديث، والمحاكاة، وعلاقة الشعر بالفنون التشكيلية والسينما... إلى غير ذلك من الموضوعات<sup>(٢)</sup>، ويؤكد الدكتور هدارة على أهمية دور شعراء الأقاليم في النهضة الشعرية، وإن اختلفت نزعاتهم ومواقفهم، وعلى جدارتهم بالدراسة والاهتمام، ويؤكد على أن (أية دراسة عن الشعر العربي المعاصر في مصر تهمل مثل هؤلاء الشعراء، وتقتصر على من تلح عليهم وسائل الإعلام، دراسة قاصرة، بعيدة عن الدقة والموضوعية)<sup>(٣)</sup>.

(١) المرجع السابق ص ١٧.

(٢) المرجع السابق ص ٥٦.

(٣) المرجع السابق ص ٥٢.

ونختتم هذا المنظور الإنساني بالإشارة لظاهرة الانتماء في الشعر العربي المعاصر، والتي ناقشها د. هدارة من خلال تجربة الشاعر فتحي سعيد في ظل مجتمع متغير تتنازع ثقافته مختلفه، وبعد أن أوضح مفهوم الفردية، وأنها لا تعني التمرد على علائقها والوقوع في برائن الحداثة الغربية الشاذة<sup>(١)</sup>، ينبه إلى خطر مسألة الهوية بالنسبة لأزمة الثقافة العربية الراهنة، ويحذر من التبعية واستيراد الأفكار الجاهزة<sup>(٢)</sup>، حتى لا نتحول من مبدعين إلى مقلدين، وقد وجد في الشاعر فتحي سعيد نموذجاً خصباً، وتجربة غنية بمعانيها وعطائها، فهو فلاح طيب يصدر عن فطرة سليمة وطبع أصيل، لم تغيره آفات المدينة التي شد الرحال إليها، واحتفظ بأخلاق القرية، وسمات الريفي الأصيل، وقد وسع دائرة انتمائه من محيط الأسرة إلى محيط الوطن والتراث، متضمناً عناصر الزمان والمكان.

ويلفت الدكتور هدارة نظرنا إلى جانب مفعم بالحويوية والإشراق في الشخصية الإنسانية لفتحي سعيد هي الحرية، حرية الشاعر التي قادته للاستقلالية في شجاعة وكبرياء، وأبت عليه الانتماء الفكري لإيديولوجية معينة<sup>(٣)</sup>، أو مناصرة جماعة بذاتها، وهو في العاصمة في الستينيات من هذا القرن. ألا يكفيه الانتماء لمصر، وما هو ذا يستنكر التبعية ويصور ذلك الموقف:

يبدو أنك فلاح

قروي السحنة سواح..

(١) د. محمد مصطفى هدارة دراسات في الشعر العربي الحديث ص ٣٧٧ مطبعة الإسكندرية

١٩٩٢.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٨، ٣٧٩.

(٣) المرجع السابق ص ٣٩٥.

شعرك تعوزه التبعية

أعني الإيديولوجية

لا بد وأن تنحاز

لا بد وأن تلقي القفاز

كن سرجاً أو مهماز

حتى نحتسبك في القائمة الروادية

ونعمد اسمك في سقف الكاتدرائية

ويستكمل الدكتور هدارة إبراز إشعاعات الصورة، فالشاعر يجب وطنه في المقام الأول، هذا الوطن المتمثل في البسطاء من الشعب، بأفراده البسطاء البعيدين عن السلطة والجاه والثراء:

فالناس في بلادنا رجال

كذلك الأطفال والنساء

لم يرهبوا الذي أتى من السماء

لم يرهبوا العدو يسفك الضياء

ثم يعلن عن انتماء من نوع آخر للشاعر، إنه الانتماء اللغوي، وهي ظاهرة استشفها من وراء تحليلاته للعديد من النصوص الشعرية له في مختلف الموضوعات، وتلفتنا تلك الظاهرة بقوة في قصيدته (وجدان)<sup>(١)</sup>، التي يصور فيها

(١) المرجع السابق ص ٣٨٠، ٣٨١.

الشاعر بأسلوب فني مبتكر وجه الريفي المزدوج الطباع، يحمل كل نصف شكلاً مختلفاً، يتناقض أحدهما مع الآخر:

النصف الأول من وجه الرجل الريفي

كان مضيئاً

بساماً وضحوكاً وخجولاً ونبيلاً

كان بريئاً

أطبق بالكف الخشنة فوق يدي

عانقني

قلبي مثل العاشق

أقسم زوجته طالق

إن لم أسهر معه إن جن الليل

ولف ربوع الحي يرسلها في المصطلح الشعبي

ويكتشف الشاعر حقيقة أخرى في الوجه الآخر

وكأن كلام الليل المدهون

بزبدة أهل الريف

ذاب مع الفجر

ويعزو الدكتور هدارة مظاهر هذا الانتماء اللغوي إلى قاموس مفردات الشاعر وتراكيبه البعيدة عن فحاجة الرطانة، والإيقاع الثري، ويصيب قلب الحقيقة في بيان نقدي رائع وهو يصورها أنها (عفوية الألفاظ، وبساطتها كأنها مستقاة من لغة الحياة اليومية لولا صورها التعبيرية التي تنقلها من مستواها العادي إلى مستوى فني رفيع)<sup>(١)</sup>. ولي وقفة عند اتساع قاموس مفرداته، فلعلها رحلة الشاعر الموزعة بين الريف والمدينة والخارج، فأكسبته هذه المفردات، كما أن فحاجة الرطانة مشكلة يواجهها المواطن عندما تتوزع لهجته بين تقاليد ولهجة الريف والمدينة، أما تعبير (عفوية الألفاظ) فتعبير ثري صادق من الدكتور هدارة يأخذنا لجمال القرى والنجوع، وسجية أهلها، وجمال طباعهم.

هذا، والمتبع للمنهج النقدي للدكتور هدارة يجده يحفل في جميع مراحل هذا المنظور الإنساني، ويعلي من قيمته، فيفرد له فصولاً في دراساته المختلفة بدءاً من العصر الجاهلي، ومروراً بمختلف العصور الأدبية إلى وقتنا المعاصر، وفي رسائله الجامعية التي أشرف عليها، فنجد: (الإنسان في الشعر الجاهلي بين المثال والواقع)<sup>(٢)</sup>، و(الاتجاه الإنساني في شعر القرن الثاني الهجري)<sup>(٣)</sup> (والإنسان في شعر نازك الملائكة)<sup>(٤)</sup>، و(أحمد السمره الشاعر والإنسان)<sup>(١)</sup>، و(عبد العليم

(١) المرجع السابق ص ٣٩٨.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة اتجاهات الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري ص ٣٩ دار المعارف.

(٣) د. محمد مصطفى هدارة اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٠٩ دار المعرفة الجامعية.

(٤) د. محمد مصطفى هدارة دراسات في الأدب العربي الحديث ص ٧١ - دار العلوم العربية للطباعة والنشر.

القباني الإنسان والشاعر<sup>(١)</sup>، و(التعبير عن الروح الإنسانية والدعوة إلى السلام)<sup>(٢)</sup>، ويعمق مفاهيم الخير والحق والجمال والدعوة للسلام والإخاء الإنساني بصرف النظر عن اللون والجنس والدين، فبينما نجد من رسائل الدكتوراه التي يشرف عليها رسالة بعنوان (الإنسان في الأدب الإسلامي)<sup>(٤)</sup> نجده يشرف على رسالة دكتوراه أخرى بعنوان (عناصر التراث في الشعر النبطي من خلال شعر حميدان الشويعر)<sup>(٥)</sup>، وبينما نجده يعلي من شأن التراث العربي، ويستقيه من منابعه وجذوره الأصلية، لا يتعصب ولا ينكر تأثرنا بالآداب العالمية، فنجد من بين الرسائل التي أشرف عليها (العلاقة بين العرب والفرس وآثارها في الشعر الجاهلي)، (الأثر اليوناني في النقد البلاغي حتى القرن الرابع الهجري)<sup>(٦)</sup>.

أما عن الشق الثاني وهو (الصدق الفني) فينهج فيه نهجاً موضوعياً فنياً بعيداً كل البعد عن الذاتية، وهو يتعامل مع النص الإبداعي، موظفاً عناصر النقد الأدبي توظيفاً علمياً محايداً لا يتأثر فيه بسمعة المبدع أو شهرته، ولا يضع بين يديه أحكاماً مسبقة تناقلها غيره من النقاد، وإذا كانت قيم الحق والخير والجمال مطلوبة في المنظور الإنساني، فإن الدقة والموضوعية والفنية، ووضوح الأسلوب

(١) د. محمد مصطفى هدارة. دراسات في الشعر العربي الحديث. ص ٤٣٥ - مطبعة الإسكندرية.

(٢) السابق ص ٤٤٧.

(٣) تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان. ص ٢٤٤. دار الثقافة بيروت.

(٤) دليل بليوجرافي في الرسائل الجامعية التي أجازتها كلية الآداب - جامعة الإسكندرية في الفترة

من (١٩٨٢-١٩٨٧) ص ٩.

(٥) المرجع السابق ص ٨.

(٦) المرجع السابق والصفحة نفسها.

واللغة من السمات التي يتطلبها الصدق الفني في النقد، وعلى غير ما تجري به العادة من شيوع الخيال والفحوص الرمزية أو الإبهام Ambiguity عموماً في كثير من الأعمال الشعرية، وفي ظني أن هذا الاختلاف هو ما أعطى النقد في أغلب الأحيان بعض سمات المنطقية والجفاف، وإن شئت فقل القسوة - كما يظن بعض المبدعين أو القراء، لما تتطلبه وظيفة النقد من إعطاء أحكام عامة قد تشبه القوانين أو إصدار اللوائح والأوامر المنظمة الضابطة للعمل الفني من الانسياب والتفكك، أليس النقد هو التمييز بين الجيد والرديء بدقة وتمحيص، وذلك يجرنا إلى التحليل analysis والمقارنة Comparison والمفاضلة differentiation مما يدعوننا في نهاية الأمر للتقنين وإصدار الأحكام النقدية مع مراعاة الحياة والصراحة الموضوعية.

تلك هي أهم المقومات النقدية العامة في يقيني، وبعض الأسس الهامة التي أقام عليها الدكتور هدارة منهاجه النقدي، والذي نستطيع أن نتبينه من خلال نظراتنا لمواقفه من بعض القضايا والظواهر الأدبية. شدتني هذه النظرات في معالجته لموضوعات منها مشكلة السرقات في النقد العربي<sup>(١)</sup>، والبناء الدرامي في مسرحية مجنون ليلي، ونزار قباني وقصته مع الشعر<sup>(٢)</sup>، وقد قصدت اختيار هذه الموضوعات لما أبدى فيها د. هدارة من مآخذ جديرة بالأخذ في الاعتبار، لما نجده من حياد كامل، وصراحة متناهية، وموضوعية واضحة.

ففي مشكلة السرقات الأدبية نجده يعالج هذا الموضوع الحيوي من وجهة نظر عامة وشاملة، بعد عرضها عرضاً تاريخياً علمياً منظماً في ضوء موضوعات

(١) د. محمد مصطفى هدارة - مشكلة السرقات في النقد العربي ص ٩، المكتب الإسلامي.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة - دراسات في الأدب العربي الحديث ص ٢٧٥، ٢٧٦ دار العلوم

الأدب والنقد عند الأقدمين، مثل عمود الشعر ونهج القصيدة وقضايا اللفظ والمعنى، والخصومة بين القدماء والمحدثين، كما ربطها ما أمكن بالمشكلة ذاتها في الآداب الأجنبية الأخرى، على أنها ظاهرة إنسانية عامة في الآداب المختلفة، وبالدراسات الإنسانية الحديثة، ويتضح في منهج المعالجة اتساقه المنطقي في ربط الأسباب بالعلل، والنتائج بالمقدمات، ولم تشمل الجزئيات المتناثرة في كليات، والقدرة على ربط الموضوع الأصلي بموضوعات ثانوية أخرى لازمة له في وقت واحد، لتصب هذه التفريعات كلها بعد ذلك في مجرى واحد، وأنا أمام شبكة إلكترونية أو بناء هندسي منظم متكامل.

وكان ما يلفت النظر الدقة في التفرقة بين اصطلاحى السرقة والاحتذاء، والإشارة إلى أن نقاد العرب لم يتضح عندهم الفرق بين الاصطلاحين إلا في وقت متأخر، لم يتم الفصل بينهما إلا على يد عبد القاهر الجرجاني، ويتنقل د.هدارة من التنظير إلى التطبيق عندما يعمل هذه المعايير النقدية، ويناقش مسرحيتي الحكيم (رحلة الغد) و(أهل الكهف) فينفي عن الأولى ما يتوهمه ((بعض النقاد لأول وهلة أن توفيق الحكيم لم يبتدع تلك المسرحية ما دام اقتبس فكرتها، ويدحض عن الثانية نفس التهمة لمجرد اعتقاد البعض أن لها)) أصلاً في الآداب الأوروبية اقتبسها منه، ((فهناك فارق بين لفظي السرقة Plagianism ولفظ الاحتذاء Eimitation)) والاحتذاء أو التحوير الفني هو أساس الفنون جميعاً، ولا يتنافى إطلاقاً مع وجود أصالة فنية أو شخصية أدبية لها كيانها ومميزاتها الخاصة بها))<sup>(١)</sup>. وقد مارس الاحتذاء موليير وشكسبير وغيرهما من عمالقة الشعر

(١) المرجع السابق ص ٢٧٦.

والمسرح والأدب عموماً، أليس للفكرة المحورية القائمة عليها شخصية هاملت أصول محتذاة من (الأوريستيا) لإسخيلوس كما يرى بعض النقاد؟

وأدرك بحسه النقدي كيف أثر عمود الشعر ونهج القصيدة في الشعر العربي بما فرضاه من قيود يلتزم بنظامهما الشاعر، فضايق المجال، وتحددت الدائرة التي يتحرك فيها الخيال، وتشابهت المعاني والأساليب<sup>(١)</sup>، خاصة وأن عمود الشعر لم يرسم معالم شاملة لأسرار الجمال الفني<sup>(٢)</sup>، بقدر ما أولى عنايته بالجزئيات. وقد بين تأثير كل من التراث الشعري (الإطار الشعري) والإطار الثقافي في إنتاج الشعراء، وعلاقة الأخير بمعنى التوارد، وأخيراً معاني الشخصية الفنية، والأصالة والتقليد، واحتياج عناصر الإلهام إلى عناصر جديدة تبتكرها موهبة الشاعر وأصالته الشخصية<sup>(٣)</sup>، والجدير بالذكر شمولية المنهج الذي استخدمه الدكتور هدارة في معالجته لهذه المشكلة، بمعالجته للموضوعات المختلفة المتصلة بمشكلة السرقات وترتبط بها، وسبقه في ربطها بالقضايا الحديثة التي أشرنا إليها، ومن الطريف أن يتعرض هو نفسه للسرقة الأدبية من آخرين<sup>(٤)</sup> من كتابه هذا ليكون في عداد الضحايا، وهو الذي درس المشكلة وأوسعها بحثاً، وحقق في سرقات البعض، ومنها سرقات أبي نواس لمهلل بن يموت بن المزرع.

وفي نقده لمسرحية مجنون ليلى لأمير الشعراء أحمد شوقي يركز على البناء الدرامي للمسرحية، وهو موضوع دقيق في تكتيك المسرح، ويتبع الدكتور هدارة

(١) د. محمد مصطفى هدارة - مشكلة السرقات في النقد العربي ص ٣٠٦.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٦.

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٠-١١.

المصادر التي استقى منها شوقي موضوع المسرحية، وأقرها كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وكيف نقل شوقي مضمون هذه الروايات في الحوار بين شخص المسرحية<sup>(١)</sup> شعراً، وتجاوز ذلك إلى الأفكار الجزئية التي تكون ملامح الشخصيات أو الأحداث<sup>(٢)</sup>، ويدعم آراءه بعرض نصوص من كتاب الأغاني وما يقابلها من صياغة شعرية لشوقي في هذه المواقف، وهي لافتة للنظر بسبب ما تحمله من دقة الشبه فيما بينها.

إلا أن الجدير في الأمر هو استيحاء شوقي لأصل التراجميديا الشكسبيرية تماماً، واحتذاؤه لعناصرها من مسرحية (روميو وجوليت)<sup>(٣)</sup>. وقد ناقشها سيادته بالتفصيل وأثبتها في إطار تحليل العناصر الأساسية للعمل من شخصيات (رئيسية وثنائية) وعقدة وصراع (خارجي وداخلي) ونهاية، وكان من أبرز المآخذ التي ناقشها افتقار شوقي إلى النضج الفني، والبراءة في تحليل النفس البشرية ودوافعها، فهناك صراع خارجي وداخلي يستغله شكسبير، ففي مسرحية روميو وجوليت نجد صراع روميو مع قوة خارجية دائماً، أما صراعه ضد نفسه فقليل نسبياً<sup>(٤)</sup>، بينما في مسرحية قيس وليلى نجد الصراع الداخلي بالنسبة لقيس معدوماً تقريباً، فهو شخص سلمي يحاول الهروب من المواقف الحاسمة تحت تأثير الإغماءات المتكررة، وشطحات الحب وسكرات الهوى، وإذا كنا نجد في شخصية كل من

(١) د. محمد مصطفى هدارة - دراسات الأدب العربي الحديث. ص ١٩٠، ١٩٦ دار العلوم العربية.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠١.

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٢.

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٦.

شكسبير وشوقي اندفاعهما وميلهما إلى الطيش لرسم مصيرهما النفسي، إلا أن شكسبير قد جعل شخصية روميو في صورة المبارز الشجاع، بينما صور شوقي قيساً في هيئة المريض العاجز الذي يغشى عليه كلما لمح بادرة صراع أو جدل، وكان به صرعاً<sup>(١)</sup>.

وقد يقضي التكنيك المسرحي بانتهاء الصراع بكارثة تصيب البطل إلا أن الكارثة التي أصابت قيساً وهي الجنون - قد أثبتتها شوقي منذ بدء المسرحية، علاوة على أن شوقياً لم يستطع التغلغل إلى أعماق قيس ولىلى بالدرجة الكافية لتصوير الأثر الذي قام عليه موضوع المسرحية، وهو التقليد العربي الخاص بعدم إتمام الزواج في حالة تشييب المحبوب بمحبوبته قبل الزواج، كما لم يستفد شوقي من استخدام بعض العناصر الخاصة بالقدر والقوى الخارجية والجن والأشباح والعرافات، كما فعل شكسبير وأدمجها في سياق الأحداث للاستفادة بها في تحديد ملامح الشخصيات، وتفسير سلوكها، وتحليل الصراع، وتتابع الأحداث، وعلى العكس من ذلك (نجد شوقي يعطل تتابع الأحداث وتفاعلها مع الشخصيات بإدخال عنصر الجن في مسرحيته)<sup>(٢)</sup> بطريقة مقحمة على البناء المسرحي.

وتبقى مسألة استخدام المفاجأة والتي احتذى فيها شوقي شكسبير، وإن كان النقاد قد أخذوها على الثاني أيضاً، ويرى د. هدارة أنها تحولت إلى فرائد أدبية لا صلة بينها وبين الأحداث في المسرحية في مجنون ليلى، فمواقف الاسترسال الشعري قد أفقدت المسرحية حركتها «ولا تفيد في تحليل المواقف والشخصيات،

(١) المرجع السابق ص ٢٠٥.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٣.

ولعل شوقي كان مدفوعاً إليها بحكم أنه شاعر غنائي<sup>(١)</sup>، وأذكر أنني ذات مرة وأنا طالب في الدراسات العليا ناقشت أستاذنا الدكتور هدارة في هذا الأمر، وكأنه قد راعني أن تذهب قصائد شوقي الغنائية التي أحببتها، وبخاصة المغناة منها في هذه المسرحية سدى، ولما أقنعتي بوجهة نظره رجعت لجميع القصائد بأصل المسرحية، لأجد فيها ما يمكن فصله عن السياق المسرحي دون أدنى تأثير يذكر على الأحداث وديناميكية المسرحية، وأنه يمكن وضع عناوين لهذه القصائد وتلحينها وغناؤها ومنها بالفعل:

جبل التوباد حيّاك الحيا      وسقى الله صبابنا ورعى  
فيك ناغينا الهوى في مهده      ورضعناه فكنت المرضعا

ويسرف في الاسترسال في مسرحيته كليوباتره في (مونولوج) طويل وهي تركع أمام تمثال إيزيس، تستبطن شعور الندم والضياع وتستقبل الموت:

اليوم أقصر باطلاي وضلالي      وخت كأحلام الكرى آمالي  
وصحوت من لعب الحياة وهوها      فوجدت للذنيا خُمار زوال

ولكم تصلح هذه المقطوعات والقصائد حقاً فيما يسمى بالمسرح الغنائي أو الأوبرالي، وهي تذكرنا بالأناشيد الغنائية التي كان ينشدها الكورس في المسرحيات اليونانية القديمة -لدى- (اسخيلوس) و(سوفوكليس).

على أن هذه المآخذ على شوقي من جانب د. هدارة لم يكن لها أي هدف في الغض من شاعريته الفذة، بدليل وقوفه إلى جواره، والدفاع عنه، عندما هاجمه

أصحاب مدرسة الديوان، حيث أشار إلى الإحساس بوجود دوافع شخصية وراء التهجم على فن شوقي، لعل أھونها طموح العقاد والمآزني إلى إثبات وجودهما في الساحة الأدبية بمطالوة عمالقة الأدب فيها))<sup>(١)</sup> ويشير د. هدارة في موقف آخر إلى عظمة شوقي ووعيه وثقافته ومعرفته الدقيقة بخفايا التراث الشعري العربي<sup>(٢)</sup>.

ونأتي إلى موضوع نزار قباني وقصته مع الشعر، والمعالجة النقدية الأدبية للدكتور هدارة لبعض سمات أدب نزار من خلال تحليلاته لهذه السيرة، والتعليق على النصوص الشعرية، وكان أهم ما لفت نظر الدكتور هدارة هو نرجسية نزار التي أھمه بها النقاد فيما سبق. ويعرض د. هدارة لفقرات من كتاب نزار عن سيرته الذاتية ويقوم بالرد عليها بعد تحليلها، وكان من المآخذ على نزار إلى جوار نرجسيته المتطرفة اعترافه بأنه ضد الشرعية (أنا بطبيعة تركيبي ضد الشرعية) وتعارض ذلك مع جوهر الحرية، فالحرية بطبيعة الحال لا تدعو للفوضى والإباحية، ولقد انعكس هذا الشعور لدى نزار في كثير من مواقفه وبخاصة تجاه المرأة التي نظر إليها بعين الاحتقار، ولم ير فيها غير أداة للتلهي، ووعاء للجنس، وأھمل دورها الرائد في المجتمع، وخصص جزءاً كبيراً من أدبه لفضحها، واستعباد جسدها، والتشهير بها، ليزعم لنفسه البطولة والشهامة الزائفة على حسابها:

فصلت من جلد النساء عباءة      وبنيت أهراماً من الحلمات  
لم يبق نهد أبيض أو أسود      إلا زرعت بأرضه راياتي  
لم تبق زاوية يجسم جميلة      إلا وممرت فوقها عرباتي

(١) د. محمد مصطفى هدارة - دراسات في النثر العربي الحديث ص ١٥٥ مطبعة الإسكندرية

وإذا كان ذلك من مظاهر الحرية والواقعية، فيتساءل الدكتور هدارة بأسلوب منطقي وبسخرية لاذعة، وطريقة يستدعيها الموقف (وهل معنى الواقعية أن يتزل بسريره إلى الشارع؟! ولماذا لا يتزل بمرحاضه أيضاً؟! ألا يقضي الإنسان حاجته أكثر من ممارسته الجنس؟

وهل معنى الواقعية ضرورة تصادمها مع الدين والقيم والأخلاق والتقاليد، وتعرية الإنسان بكل مبادلة وحاجاته الطبيعية؟<sup>(١)</sup>، واللافت للنظر إيديولوجية نزار للتدليس وإعطاء أبعاد زائفة عن الحرية والثقافة، ومحاولة فرض آرائه، وتعميته للقراء، لذلك فهو يخاف النقد والنقاد، ولا يؤمن بحقهم في الحرية، ويتمنى لو سلبهم إياها، وكم استعذت بالله عندما طلع علينا في صيف عام ١٩٩٣ على شاشة التلفزيون العربي الأمريكي يثرثر في نرجسيته المفقوتة والمعهودة، ويهاجم النقد والنقاد قائلاً: لم يضيف النقد للأدب شيئاً... ما زال الرجل على مبادئه!

والسؤال هل كان نقد الدكتور هدارة موضوعياً؟ لقد أشار إلى نرجسية نزار، وقد ساق الأدلة باقتباسات من كتابات نزار نفسه وأشعاره، وهي مبسوسة أمام القراء والنقاد على حد سواء، وتتضح بما فيها من تدليس وافتراءات. وإذا كان مقال الدكتور هدارة - هذا عن نزار في أوائل الثمانينيات تقريباً، فهو إشارة كان يجب على الشاعر أن يعيها، وقد قاده غروره في نهاية عام ١٩٩٤ إلى مترلق خطير، عندما خرج عن كل مألوف بعد أن رأى أنه باستطاعته أن يعلن وفاة العرب، منسلحاً عن كل القيم والتقاليد، بشكل ينم عن العقوق، ويسوق إلى اليأس والإحباط من شأن العرب وتاريخهم، وكأنه لم يحظ بشرف الانتساب لهم، وقد تبجح بصورة لم يستطع حتى أعداء العرب - أن يعلنوها، في الوقت الذي

(١) المرجع السابق ص ١٣٦، ١٣٧.

أعطى فيه مَنْ هم مِنْ غير العرب للحضارة العربية حقها، هذا جوستاف جرينباوم في كتابه حضارة الإسلام يشير إلى الإسبان في القرن التاسع، وقد أهملوا تراثهم القديم (إيثاراً منهم للتراث العربي)<sup>(١)</sup>.

ويقرر هذا المستشرق مثل كثيرين غيره، كيف قدّر غير العرب أدب العرب ولغتهم (يطرب إخواني المسيحيون لأشعار العرب وقصصهم، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها، بل للحصول على أسلوب عربي رشيق)<sup>(٢)</sup> وكم ((راح الغرب اللاتيني في زمن مبكر من العصور الوسطى يتقبل الفكرة القائلة بأن الحضارة تفيض من الشرق إلى الغرب))<sup>(٣)</sup>.

إلا أن ذلك لا يقره نزار لنجسيته المتطرفة، والتي اكتشف أبعادها الدكتور - هدارة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً وكان نقده موضوعياً، صادقاً - يتسم بالدقة والأمانة، وإن كان شاعرنا يدعو إلى هدم النقد والنقاد لينعم بحرية فوضوية، فقد حدا به الأمر إلى التبجح بالدعوة إلى إعلان وفاة العرب، وقد هُض أدياء ونقاد عام ١٩٩٥ ليرددوا نفس الآراء والتعقيبات التي رآها الدكتور هدارة في أوائل الثمانينيات، ولا يسعنا هنا إلا الإشارة المختصرة لبعض ردود الفعل النقدية.

فيقول الشاعر محمد التهامي: (لقد خدع هذا الشاعر - وهو تاجر متمرس - المجتمع العربي طيلة نصف قرن، فدخل بأوهام الجنس المجنون - ممزقاً جسد المرأة،

(١) (جوستاف جرينباوم - حضارة الإسلام) ترجمة عبد العزيز جاويد ص ٨١ الهيئة العامة المصرية

للكتاب لسنة ١٩٩٤م.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق ص ٨٧.

عابثاً بجرماته - إلى محادع المراهقين والمراهقات<sup>(١)</sup>، لقد قتلت الشاعرَ نرجسيتهُ الممقوتة، وحوّلته إلى داعية الهزامي مريب، ويؤكد الدكتور حسن فتح الباب هذه النرجسية فيرى أن الشاعر ((متفوق في نرجسيته، ومغرى بأضواء الشهرة عن طريق العزف على وتر الإثارة، وإدمان جلد الذات، محققاً ما يريد بنا أعداء الأمة العربية من يأس وإحباط))<sup>(٢)</sup> ويضيف معقّباً على قصيدته النكراء وما يدعيه من حرية زائفة:

((إن للشاعر مطلق الحرية في التعبير عن مشاعره ورؤاه، على ألا يهوي إلى درك السخرية بشعبه وقومه، وتصب مياه قصائده بذلك في الطاحون الذي يديره من يضمرون لهذا الشعب العداوة - ويخططون لإزالته.... وليس ما يقدمه نزار قباني إلا فرقة ضوئية سوف تذهب هباءً ويبقى ما ينفع الناس..)) على أن أمانة النقد لم تمنع الدكتور - هدارة من تقدير حق الشاعر حين يستحق إبداعه ذلك، وأذكر موقفه عندما أشاد بقصيدته (بليسي)، وتوسط طلبته في أحد المهرجانات الشعرية بكلية الآداب في الثمانينيات وطلب إدراجها بالاحتفال وقراءتها.

تلك نظرات سريعة في المنهج النقدي للدكتور هدارة بين البعد الإنساني والصدق الفني، منهاج حضاري إنساني متكامل، يستمد جذوره من تراث الأمة العربية، وينفتح على ثقافات العالم شرقاً وغرباً.



(١) جريدة الأهرام العدد الصادر بتاريخ ١٠/١/١٩٩٥ ص ٢٤ من مقال للدكتور محمد التهامي.  
 (٢) جريدة الأهرام العدد السابق الصادر بتاريخ ٢٠/١٢/١٩٩٤ ص ١٦ من مقال للدكتور حسن فتح الباب.

obeikandi.com

## نظرة في تاريخ الأدب الجاهلي للدكتور هدارة

د. ناهد أحمد الشعراوي\*

بدأت صلتني بأستاذنا الجليل الدكتور محمد مصطفى هدارة منذ أكثر من أربعة وعشرين عاماً، حينما التحقت بقسم اللغة العربية في كلية الآداب.

وفي هذه الأيام، ونحن نحتفل باستقباله عامه الأول بعد الخامسة والستين أراه لم يتغير عما عهدناه عليه - نحن طلابه ومريديه - في مشيته الوقور، وصوته الهادئ، ونظراته الجادة الصارمة التي تنبعث من نفس طيبة خيرة، وخلقه الدمث، ورقته وعذوبته، ولسانه العفيف.

نسأل الله أن يمد له في العمر، وأن يظل أباً وراعياً لأجيال من تلاميذه ومريديه الكثيرين، وحاملاً لمشعل الثقافة العربية.

وقد كان ما تعلمناه من أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة كثيراً، ليس من خلال عمله في التدريس فحسب، وإنما أيضاً من خلال ما أثرى به المكتبة العربية من مؤلفات متنوعة، فالذي يتأمل مؤلفاته، يروعه ذلك الإنتاج بغزارته وتنوعه وجودته: فهو أولاً مؤرخ للأدب، كتب في فكرة التاريخ الأدبي بالقرون، وقدم دراسات في الأدب العربي القديم (في العصر الجاهلي - في القرن الأول الهجري - في القرن الثاني الهجري)، وفي الأدب العربي الحديث (التحديد في شعر المهجر - تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان - دراسات في الشعر العربي

الحديث - دراسات في النثر العربي الحديث - دراسات عن الشعراء المحدثين والمعاصرين)، وفي التراجم الأدبية (المأمون الخليفة العالم ومنهجه في الترجمة الأدبية).

وهو ثانياً ناقد متمكن من أبرز النقاد في الوطن العربي فله ((منهج جديد في دراسة السرقات الأدبية - مقالات في النقد الأدبي - دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق)).

وهو ثالثاً مترجم عن الإنجليزية ((الإسلام لألفرد جيوم - يوميات هيروشيما لهاشيا - ملفل الملاح الصغير لجين جولد - قاهر القطب الجنوبي لريتشارد بيرد - في عالم القصة لبرنارد ديفوتو)).

وهو رابعاً مؤلف في التربية والتعليم في مصر وفي البلاد العربية، وهو خامساً صاحب اتجاهات إبداعية في الشعر والرواية والقصة القصيرة.

### الأدب العربي في العصر الجاهلي

حين عنّ لي أن أشارك في الكتابة عن هذه الشخصية العلمية والأدبية البعيدة الغور، المتعددة الجوانب، جعلت من كتابه ((الأدب العربي في العصر الجاهلي)) مداراً للحديث، وشجعني على ذلك، أنني تعلمت دروس الأدب الجاهلي على يد أستاذي في بداية دراستي الجامعية.

ولعل السمة الواضحة في دراسات أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة هي الأصالة من ناحية، والتجديد من ناحية أخرى، تلك هي السمة الواضحة المعالم، والتي تتضح لمن يمعن النظر في سياق دراساته ومناهجه النقدية.

وكتابه (الأدب العربي في العصر الجاهلي) يتميز فيه بأنه يتعد - إلى حد كبير - عن الطريق المألوف في التأريخ الأدبي، الذي يبدأ عادة بمقدمات طويلة عن الزمان والمكان، فيدرس العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العصر الأدبي، ويهتم في كتابه بصفة خاصة بدراسة أصول العرب الأولى، وجغرافية جزيرتهم، وتوزعهم القبلي، ومعتقداتهم القديمة، وأيامهم، وكل ما يتعلق بحياتهم وكيانهم.

ثم يدرس موضوعات الشعر وأغراضه، ويتناول طوائف الشعراء فيه، ثم يحلل خصائص الشعر وظواهره الفنية.

لقد تنكب الطريق الذي سار فيه كل من درس الحياة الأدبية الجاهلية وما تلاها من عصور عامداً، لأنه يقصد أن يعبر بصورة صادقة عن خلاصة تجربته في محاضراته على مدى عشرين عاماً سبقت تأليف الكتاب، فلم يشأ إضافة دراسة تقليدية للدراسات المألوفة عن عصور الأدب العربي، التي تزخر بها المكتبة العربية، وإنما أراد أن يصل للقارئ بأيسر سبيل، إلى القضايا الرئيسية في تاريخ الشعر العربي، وإلى موضوعاته، وأهم شعرائه، وظواهره الفنية، وعناصره الجمالية، وإلى أجمل الأشعار التي أبدعتها قرائهم.

هذه الطريقة - غير التقليدية - تقدم للقارئ من الحقائق الأدبية في كل عصر ما ينبغي أن يصل إليه بطريقة سائغة، وهيئ له من خلال النصوص الشعرية فهم كل اتجاهات الشعر العربي، وقضاياه الرئيسية وظواهره الفنية، ومعرفة أبرز الشعراء في كل عصر، بعيداً عن الإسهاب التاريخي، والمقدمات، والحشو والنهج المدرسي في التركيز على حياة الشعراء.

ويلحق بدراسة الظواهر الفنية والموضوعية في الشعر الجاهلي بعض البحوث الخاصة بالشعر في ذلك العصر، أو ببعض الشعراء، وكذلك بعض النصوص المكتملة للدراسة.

ومن أهم الأفكار التي حاول بها الدكتور محمد مصطفى هدارة تفسير دوافع الشعراء لتسجيل أشعارهم، فكرة الجانب الذاتي الذي يعبر تعبيراً مباشراً عن النفس الإنسانية في كل حالاتها، دون تزييف للمشاعر، أو الاستعانة بالخيال.

((فالشعر الجاهلي قبل كل شيء غنائي، يعبر به الشاعر عن ذاته، وما يعتلج فيها من خطرات نفسية، وعن كل ما ينتابه من أحاسيس ونوازع تجاه المواقف والبشر والأشياء من حوله، صحيح أن الشاعر الجاهلي كان مرتبطاً بقبيلته ارتباطاً وثيقاً، ولكن ذلك في الحدود التي تلتزم بها القبيلة في حربها وسلامها، وحين يتعد عن هذه الرابطة القبلية لا ينسى عواطفه ونوازعه بكل ما فيها من خير وشر، بحيث نجد صورة متكاملة للإنسان، وهو في تصوير علاقته بغيره يقترب من النموذج الإنساني السامي كما يتصوره إن كان في موقف مدح وإعجاب، ويداني النموذج الإنساني الكريه كما يتمثله إن كان في موقف هجاء وإعراض))<sup>(١)</sup>.

وعن هذا الجانب يقول: ((وهذا الجانب الذاتي في أشعار الجاهليين لا تفي به القيم الثابتة التي كان المجتمع الجاهلي متفقاً عليها كمدح الكرم مثلاً، وذم البخل، والإشادة بالشجاعة، والاستهانة بالجن، بل تفي بها مواقف فردية يختلف فيها كل

(١) الأدب العربي في العصر الجاهلي ص ٢٩.

شاعر عن سواه))<sup>(١)</sup>، ويأتي في الكتاب بمواقف ذاتية لشعراء بعينهم يعبرون عنها في أشعارهم.

وقدم الكتاب دراسة رائدة عن الصورة المثالية للإنسان في الشعر الجاهلي، وهي التي يتكلف لها الشاعر، ويجتهد فنه في تميقها، ويورد نماذج لهذه الصورة المثالية في المدح والفخر والاعتذاريات، ويقف عند صورة المرأة التي أتت في الشعر الجاهلي مثالية دائماً.

والكتاب في جملته يعد دراسة وافية أراد بها أن يجلو صورة حياة الشعر العربي عند نشأته، والدكتور محمد مصطفى هدارة بخبرته الطويلة وذوقه المرفه، يعرف كيف ينتقي مختارات من الشعر الجاهلي كنصوص مكتملة للدراسة ذيل بها الكتاب.

هذا جانب واحد من جوانب نتاج أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة، وهو يمثل اهتمامه بتاريخ الأدب العربي، ودراسته من وجهة جديدة، رعاه الله وأطال بقاءه، حتى يظل علماً يهتدى به، ويستضاء بعمله وخلقه وكريم سجاياه.



obeikandi.com

## الناقد شاعراً

د. ربيعي عبد الخالق\*

يسري نبض الشعر في وجدان كل نفس، متمثلاً في حسها الرهيف، وذوقها الشفيف، أو بما لها من نصيب في مجال الأداء الإبداعي تعبيراً وتأثيراً.

وهذه شخصية قد سكنتها روح الشعر إحساساً وتذوقاً وإبداعاً، حيث تدفقت ينابيعه مبكرة، فكانت بهذا أولى عطاءاته، سواء في المجالات الإبداعية التي تنوعت بين المسرحية الشعرية، والرواية والقصة القصيرة، أو في المجالات الأكاديمية، التي عُرف بها في ميدان الدراسات الأدبية والنقدية والفكرية، إلى جانب جهوده العلمية في مجالي التحقيق والترجمة وغيرها من المجالات.

وكلنا يعرف الرجلَ عالماً أكاديمياً له قدره ودوره، ولكننا بهذا نكون قد عرفنا عنه شيئاً، وغابت عنا أشياء عَمُرَ بها عالمه الشعري، الذي نسعى إلى التعرف على بعض جوانبه وملامحه بالقدر الذي تتيحه لنا هذه الإطلالة السريعة.

بداياته:

تفتحت شاعريته مع نهاية العقد الخامس وبالتحديد في عام ١٩٤٨<sup>(١)</sup>، حيث تدفقت أشعاره في غزارة واضحة إذ بلغت في عامها الأول وحده ما يقرب من

\* كلية الآداب - جامعة طنطا.

(١) شهد هذا العام بلوغه الثامنة عشرة من عمره المديد، وكان وقتها طالباً بالفرقة الأولى بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

سبع عشرة قصيدة ومطولة، ضمت بين دفتيها مشاعر ومشاغل هذه المرحلة السنوية، حيث حُميَّ الشباب، وما تمور به النفس من منازع القوة والفتوة معلنة عن ذاتها في تحدٍّ وتصدُّ إذ يقول:

إني رفيع القدر سامق همه    يعلو عناني فوق كل عنانِ  
وإذا غضبت ففي الدراري رعدة    والنجم في أفق السماء خشاني  
وما يفور به الوجدان من مشاعر متأججة أذابته رقةً وولهاً وشغفاً عبَّر عنها  
قائلاً:

ليالي سُهادٍ بتُّ أصلى عذابها    يُوسِّدني شوقي لواعج صَبُوبِي  
تعالِي لِرُودِ الحُبِّ نشفي أوامنا    على رفرِف الأَحلامِ في ظل أَيْكَةِ  
نُبَادِلُ أَيْدِينَا فَنَنْسِي مَكَانَهَا    وينسى كلانا أيَّ أَيْدٍ هي التي!!

وتتابعت مسيرة عطائه الشعري، ولم تقتصر على معالجة همومه الشخصية، وإنما تنوعت مجالاتها واتسعت مسارها لتوجهاته الإنسانية والاجتماعية والوطنية، في إطار نزعة تقويمية ترتكز على اتقاء ما يسوء، وانتقاء ما ينبغي أن يسود، مستهدفاً الارتقاء بحياة المجتمع والناس، من خلال تأكيدِه بعض القيم الفاعلة والبناءة في حياة الأمم.

ولكلّ هذه البصيرة الانتقادية والانتقائية التي جاء ماؤها يترقرق في حنايا جُلِّ تجاربه الشعرية، تكون هي البذور أو الجذور التي أثمرت وأينعت، فأسهمت في تشكيل بصره النقدي الذي استندت إليه بحوثه ودراساته، التي توخت عناصر قيم الجمال والجلال في العمل الفني والفكري تنظيراً وتطبيقاً، مما يؤكد تأصل هذه

الترعة النقدية في كيانه شاعراً، وامتدادها في حياته العلمية والعملية، فكانت ركيزة أصيلة في اهتمامه البحثي الأكاديمي.

ولحضور هذا التوجه النقدي في معظم تجاربه الشعورية وخبراته النفسية، وهيمته على دراساته وبحوثه العلمية جاء عنوان هذه الإطالة (الناقد شاعراً).

### مجالاته:

من منطلق حسّه الإنساني والاجتماعي كان حرصه على التفاعل مع روح عصره قبولاً ورفضاً، وكان تعاطفه مع هموم المجتمع ومعاناته، ولذا فإن المتصفح لقصيدته يرى تجرته الشعورية قد تنوعت بين الذاتية والجماعية معاً، فالشعر عنده هو الفن الجميل النافع، ولا يكون نافعاً إلا إذا اهتم بتصوير الحياة. الحياة بمفهومها العام، حيث يخدم المثل الرفيعة، والقيم الأصيلة التي تعالج أدواء المجتمع ونقائصه، والحياة بمفهومها الخاص، أي الحياة النفسية للشاعر بما ينتابها من مشاعر الفرح والترح، والحب والكره، واليأس والرجاء.

### أولاً: اهتماماته العامة

في ضوء اعتزازه بموروثه الديني والقيمي، وانتمائه لبيئته الشرقية بمبادئها العريقة، وأعرافها الأصيلة، جاء حرصه على المثل والمبادئ التي تكفل كرامة الآدمي، وتسمو بإنسانيته، إذ يقول:

أهوى كريم الخلق دون تكلف هل بالضياء تكلفَ البدران؟!  
وأهيم بالأفضال تسمو كملاً وأفيض بالإسجاح والإحسان  
أرضى قضاء الله فيما قد قضى والمرء يعلو في رضا الديان

ومن منطلق هذه القيم والفضائل جاء تصديه لما سنح له من المعايير  
والرذائل، ومنها ما أخذه على (بنات الآداب) من تهتك وتبرج، فكان تعنيفه لهن  
وتهكمه بهن:

خرج النساء من القيود عالياً فإذا هن خوافض الأعناقِ  
يرسفن في قيد الغواية والهوى باسم التمدن والفعال الراقي  
إن الفضيلة كالشمس ضياؤها لا ينقضي بترقق الأذواقِ!  
لطحن ((آداباً)) فكن ضلالة أسماً على الأوراق صنع نفاقِ  
يحسبن ساحات العلوم مراتعاً للعشيق بين تهتك ونزاقِ  
يمرحن في كنف الفساد وطالما هتكت بهن شريعة الخلاقِ  
العلم لا يهوى خطوط حواجب أو لون ثغر أو يد الخلاقِ  
لولا الرجال أمامكن لما بدا منكن ظفر عن دم مهراقِ!  
ويتملى (بنات البلد) معجباً بما طبعن عليه من حسن، وما فطرن عليه من  
جمال، وقد عافت نفوسهن التجمل المصنوع، فزدن حسناً على حسن، ولم  
يتكلفن المغالاة في التبرج صنيع غيد العصر في تزيهن المقوت، الذي زاد عن  
الحد، فانقلب إلى الضد، فشاهن وأساء إليهن:

حسان بنات الطبع، أهل سماحة تركن البها حراً، تصول المفاتنُ  
فما أُطلقت مثل الوحوش أظافر لهن كغيد العصر غاضت محاسنُ  
ولا خُضبت أهب الحدود - ضراوة دماء لها في كل حد مواطنُ  
تريد النساء الغيد جلب طلاوة وأحلى جمال ما تجن البواطن!

وتغنيه بسماحة المظهر والمنظر هنا، ترفدها دعوته إلى سماحة النفس بالبذل  
والعطاء في وجوه الخير، ومنها ما جاء في حثه أهل الخير على التبرع لجمعية  
الفتيات المسلمات:

عُمَدُ الْفَضِيلَةِ يَا مَلُوكَ عَرُوشِهَا      هِيَ ابْذَلُوا فِي أَوْجِهِ الْخَيْرَاتِ  
بِالْمَالِ خَطُوا فَحْرَكُمْ طُولَ الْمَدَى      وَتَقَرَّبُوا لِلَّهِ بِالْحَسَنَاتِ  
مَا أَنْتُمْ مِنْ غَيْرِ ثَبَتِ حَافِلُ      بِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ وَالْآيَاتِ  
فَاحْمُوا ذِمَارَ الدِّينِ فِي جَمْعِيَةِ      خَيْرِيَةِ بِالْجُهْدِ وَالصَّدَقَاتِ  
وهذا الحس الديني الذي اصطبغت به هذه الأبيات ليس إلا صدى لما  
يعتمل في كيانه من غيرة على الإسلام وإشادة دائمة بمآثره وآدابه  
وأخلاقه:

دين يرى في الصفح آية رفعة      يقوى فيعفو سيذاً ومسوداً!  
سن الإخاء شريعة لبني الدن      ما أبيضٌ إلا وساوى أسوداً  
كم من بلادٍ بيننا سفكت دماً      للسود حتى سود الظلم اليداً  
ليس الذي صَبَغَ إِلَهُ مُحَقَّرًا      فاللون ما تخفيه ليس بما بدا  
رد الكرامة للنفوس فلم تعد      عرضاً بمالٍ إذ تباع إلى الردى  
قد حرر الإسلامُ من رق الهوى      فكرَ الورى فغدا يفكر سيذا

وهذه المآثر الدينية بما تكفله للإنسان من كرامة نفس، وحرية فكر، وبما  
تحث عليه من معاني الأخوة والمودة، قد أورثته روحاً أراد لها أن تملأ نفوس الناس  
لترقى بهم إلى أسمى مراقي الإنسانية وأنقى معانيها:

وأهـبّ للحق الصراح أقيمه وأهدّ صرح الظلم والطغيان  
والعدل نور في القلوب مضيع كم من ظلوم بيننا أو جانٍ!  
والنفس إن عشقت جمال عدالة تسمو بنور آلقٍ روحاني  
وتحمسه لقيم الحق والعدل والحرية يزداد توقداً وضراوة في مضمار مناصرة  
حقوق الوطن، والتفاني من أجل بقائه حراً عزيزاً شامخاً: فالأرض عرض.  
يقول في (صرخة):

أيا مصر فدتك كل رحيمة بوليدها إن مات عنك فتاها  
سبقت إليك قلوبنا ترمي العدا حقداً وتقضي ثارها بدمائها  
ليبك ما في العيش بعدك مترع للروح إن ظلت تجيب صداها  
تأبي نفوس الأكرمين مذلّةً وترى الردى عند القيود مناهها  
وتمتد أبعاد حسه الوطني، فيتفاعل مع قضايا أمته وما تعرضت له من كبار  
أحداث العصر على المستوى العربي في مراكش وفلسطين والسودان وغيرها.

ففي قصيدته (صدى مراكش) يتصدى لما جناه المستعمرون الفرنسيون،  
مندداً بما يروجون له من مزاعم، وما يتشدقون به من أقاويل زائفة عن حقوق  
الإنسان ودفاعهم عنها، فيقول مشنعاً بانتهاكهم للحقوق، متهكماً باستبدادهم  
وأحقادهم:

روّعوا الحقّ بأرض الشهداء واسجنوه في تصاريق القضاء  
واقتلوه إن رأى مدفعكم أن نسف الحق للغلّ شفاءً

وينفخ في روع فتية الحق مُحَيِّياً روح النضال فيهم، ومشعلاً جذوة الكفاح  
في عروقهم، مبيناً قداسة جهادهم، ومشروعية حقوقهم وحمية واجبهم:

يا رجالَ الحقِّ يا فتيةَهِ      ليس كالحقِّ يتيمَ الأوفياءِ  
أنتمُ أهلٌ له فاستبسّلوا      دونه ما دام في الروح ذمّاءُ  
أرخصوا القلبَ وهبّوا وحدةً      تركّزُ الحقِّ جهاداً لا رجاءُ  
لم يُعْذِ للسلامِ فيكم رَفَقُ      بعد ما داسَ العرينَ اللؤماءُ  
أوقدوا من شُعْلَةِ الحقِّ الرُّبى      بهشيمِ الروحِ للعُليا فِداءُ

وحرصاً منه على إيقاد روح الجهاد في فلسطين وإذكاء مشاعر الغيرة، انطلق  
يندد بأطماع المستعمر وأحقاده الدفينة، وهمجية انتهاكه المقدسات إذ يقول:

ساء الزمان لنا أهلاً بني رحم      عرباً أصيبوا من الدنيا بأوطانِ  
قد هب عرب لنصر الحق منكفئاً      في ((بيت مقدس)) يشكو زيف بهتانِ  
سَلَّ الظلوم له رمحاً ليقتله      وهو السليب بلا سيف ومرّانِ  
ويقول:

ساموا فلسطين ظلماً من مطامعهم      ذا يرتجي نصفها والنصف للثاني  
قد أولموا فوق أعضاء لها صرخت      من عاديات فكانوا شرّاً عقبانِ  
ولما كانت مصر السبّاقة بجهودها وبطولات رجالها، مواطن اقتداء لغيرها؛  
فقد حرص على استعراض عراقه شيم الجد والحزم لدى المصريين وتأصل قوتهم  
الضاربة في التصدي لهذه الشرذمة المرذولة:

يا باذر الحقد لن تلقى سوى أمم تجري وفاء وإخواناً بإخوان  
 رمنا التوحد لا من بالغ أرباً فينا يغير رفيع العز والشان  
 إنا نقاتل دون الحق لا أربُ نسعى إليه ولا حبٌ لتيجان  
 ولا يفوته أن ينتقد نخاذل بعضهم ونكوص نخوهم وتبلد مشاعر الغيرة فيهم،  
 فقال معنفاً، مستنكراً:

ما بال عرب تخلوا عن تحالفنا كانوا رجالاً فصاروا صلد أوثان  
 سجا الرصاص فلا جرس ولا لهب يرمي الأعادي وبالأ مثل بركان  
 أحفاد هاشم هل لازلتم عمدا للمجد تبنون عزاً فوق كيوان؟؟  
 وتعلو حدة انتقاداته فيوبخهم متهكماً بضعفهم، ساخراً من تقاعسهم حيث يقول:

رُدّوا السيوفَ إلى أعمادها أمداً حتى تُجلى بأحرار وفرسان  
 ما للحسام بصنع فضل منقبةً إن الحسام بأبطال وشجعان  
 ومن عجيب تروم الأرض مملكةً لهاشم ولها تاج: ((بريطاني))!  
 وفي قصيدته (وثبة السودان) انطلق يبارك وثبته العاتية من أجل حرمانه التي  
 استهان بها الإنجليز، الذين تربصوا بأهله دوائر السوء:

سودان مهد خوالد الأيام أعليت نجم المجد بالإقدام  
 إن المعالي بُنتي بجماجم أجيال شم خالد وعظام  
 كذب ((إنجليز)) بأهلنا وتربصوا بهم الدوائر من قلى بظلام  
 حسبوا ليوث النيل أهل مقابر تعنوا لذل الجور والإرغام

وفي مثل هذه المواقف الحرجة في حياة الشعوب والأمم وما تستعديه من مسؤوليات جادة وواعية، يتوجه بتحيته وسلامه إلى بنت السودان:

يا بنت سودان إليك تحيّي من شاعر عشق العلا وسلامي  
لا يشرب النيل الطلا متقاعس يهوى الخنا ويعيش في الإظلام  
ماء طهور العرق علمنا العلا والجد ثاو في مقار غلام  
وهذا التوجه إنما يؤكد الوعي بمكانة المرأة ودورها المسؤول ومشاركتها  
الفاعلة في قضايا الوطن وهموم نضاله من أجل الحرية والكرامة.

ثانياً: اهتماماته الخاصة (تجاربه الذاتية)

كان لفيض جمال الطبيعة السكندرية التي تفتح وعيه عليها، وتنبهت حواسه  
إليها، أكبر الأثر في رقة طبعه، ونزوعه إلى التعبير الشعري الوجداني، الذي أكد  
تعطشه للجمال في كل شيء، ففي روجه ظمأ لا ينطفئ إلى الجمال في كل  
مظاهره ومباهجه، كما هو الشأن عند الرومانتيكيين جميعاً، لأنه مستودع  
الرغبات والوجدانات.

ويبدأ شاعرنا غمار تجربته العاطفية بالحديث -شعراً- عن تبدل حال قلبه،  
فقد كان حصناً مانعاً تصدى لكل هجمات عيون الجآذر، فهزمها المرة تلو  
الأخرى، ولم تترك فيه أثراً إلى أن غزاه سحرها فأنجذب إليها:

قلبي حديد مانع أحسب كالحصن الأشب  
عين الجآذر أنفذت سهماً أغار لم يصب

كم من عيون أبرقت والقلب منها ما انشعبُ  
 لاقيتها صبحاً بدت سحراً كلغزٍ في حجبُ  
 نفذت سهام اللحظ في قلبي إليها فاستطبُ  
 للسحر أرخى مقوداً لما رآها فابجذبُ  
 ومن هنا كان عليه أن يعيد حساباته، ويصحح وجهته منتقداً نفسه إذ تمادت  
 في الريب!

أنكرت قلباً قد عشق حتى هويت فلم أربُ  
 خليت نفسي نائياً بالقلب عن نصب المحبُ  
 يا ويلتي قد أخطأت نفسي تمادت في الريبُ  
 وفي موقفه من نفسه يذكر: ممتزج متصوفة المسلمين في زجرهم للنفس كبهاً  
 لجماحها وكفأ لها عن تماديها في غيرها.

وهو في حبه عفيف، لا يصدر فيه عن النظرة الحسية<sup>(١)</sup> القاصرة للمرأة، وقد  
 حمد لنفسه هذا، وأشاد به في أكثر من موضع.

إننا قضينا للهوى حقاً علينا لم يزلُ  
 في عفة وترفع عن زلة أو عن خطلُ  
 وهي عفة تقوى مع الأيام وتتأصل:

الحبُّ يجمع بيننا مترفعاً حتى الأجلُ

(١) باستثناء أبيات قليلة تلوح هنا وهناك ولا تمثل اتجاهها أو نزعة في شعره.

ويؤكد قناعته بقوله:

فما صبوتي إلا صباة ناسكٍ      يهيم بنور يجتليه بعفة  
وقوله أيضاً:

إني وإن لعب الغرام بمهجتي      عف الهوى أبداً أصون خلاقتي  
لم أستبح خدر الهوى بصغائر      يغضي بها وجه الحياء الوافي  
وفي ظل هذه العفة ارتقت المرأة في نفسه فكانت كل شيء.

يا شمس هيا فاغربي      يا بدر هيا فاحتجب!  
إن الحبيب معي هنا      لا شأن لي بضيا الشهب  
بل هي أسمى وأرقى ما في حياته:

جدول أنت في مفازة قلبي      شاعري مهدهد بالورود  
أنت ما أنت؟ أنت كون بهيج      مترع بالحيا وسحر الخلود  
أنت عيناى تنفذان لكون      مغرد في البها فريد الوجود  
أنت أمسي وأنت عيشي، غدائي      أنت صبحي وفجر عمري السعيد

فهذه رؤى شاعرية رقيقة لتلك العلاقة الحميمة التي ارتقت وسمت بعيداً عن  
النظرة الحسية أو الجسدية إلى درجة من السمو فصارت تحاكي علاقة الروح  
بالجسد، وعلاقة الحياة بالماء والروء،.. إلى غير ذلك من الصور الشفيفة الموجبة  
التي تميل إلى تماويل الرومانسيين.

أنت روح تطوف جسمي فيحيا      إن رأيت المنون تبني لحودي

وطرحت الشقاء عن طفل أنسي بعد أن شاب من فراق السعود  
ومن منطلق هذه الحميمية، وتلك العفة فإن علاقة الحب بناءة، علاقة خصبة  
وعميقة، علاقة تنهل بالروح وتتصل بالعقل معاً فتضيء البصر، وتذكي البصيرة،  
وفي هذا الشأن يذهب شاعرنا مذهب الرومانسيين في كون التجربة الوجدانية  
الصادقة هي مصدر المعرفة الحق في الحياة، وبها يفتح الإنسان على الجديد من  
مجالات الحياة ومعارفها:

إن قلباً بغير طيفٍ نحبيّ أبكمُ الحسّ واهنُ الأبصارِ  
غارقٌ في الظلام يغشاه ليلٌ أبديٌّ ينوءُ بالأسرارِ  
في قناع من الأسى محكم اللصقِ توارى كلائدٍ من عارِ  
كما تسمو بالنفس فتقيها من الأدران والأحقاد:

يا فتنة الروح آفاق مطهرةٌ نختال فيها بنورٍ منك في رشدِ  
ننسى بها ما تضمُّ الأرضُ من نغمٍ بنتِ الشرورِ كداءِ الحقدِ والحسدِ  
وعندما يعاني اضطرام التجربة المعيشية في تقلباتها بجلوها ومرها، يأخذها في  
التغني بما ذاقه من ألوان السعادة في وصالها، وما عاناه من مشاعر الأسى والألم  
في الحرمان منها، فيقول في وصالها:

ولدت جديد العمر بعد لقائنا وليس لمن يهنا تذكرُ شقوةِ  
تعالى لورد الحب نشفي أوامنا على رفراف الأحلام في ظل أيكّةِ  
نبادل أيدينا فننسى مكافئنا وينسى كلانا أي أيدٍ هي التي؟!!

وفي بعادها وحرمانه منها يضح شاكياً:

ليالي سُهادٍ بتُّ أصلى عذابها يُوسِّدُني شوقي لَواعجِ صَبْوتي  
 هبيني انطلاقاً من إسارِ صِباةٍ وِخَلِّي بقايا الحب تبقي بقيتي  
 سلاماً إلى مَنْ ذاب رُوحِي بروحها فقد حان ترحالي، عذابي وجنني  
 وداعاً سأمضي عن رباك معذباً إلى مهمه الحرمان في ليل عزلي  
 وإلى جانب تجاربه العاطفية هذه، جاءت أشعاره تعالج تجاربه النفسية،  
 وتبوح بما يمكنه عالمه الداخلي من خواطر وهواجس.

ونراه في بعض هذه التجارب يتأمل تيار الحياة في جريانها من حوله؛  
 ليستوحىها المعاني الخالدة في أبديتها ودوامها، حيث ينظر إلى الأشياء كما ينظر  
 إليها سائر الناس، إلا أنه يستشف من هذه المرئيات المحدودة زمانياً ومكانياً معاني  
 مطلقة لا محدودة.

إن البصر الموحى إلى البصيرة، والحس المحرك لقوة الفكر والخيال ليسير  
 الأغوار البعيدة، والأبعاد غير المتناهية، ففي قصيدته (عند الرواح) نلمس إحساسه  
 الرهيف بالطبيعة، وألفته الحميمة بمظاهرها التي تستقطب كيانه، فيسبح بتأملاته  
 في عالمها وعلاقته بعالم الإنسان، فيختار من واقع الطبيعة بعض مظاهرها  
 المحسوسة والمحدودة زمانياً ومكانياً، فيصهرها في طوية نفسه لتوحي بنموذجها  
 المطلق غير المحدود، إذ يقف في هذه القصيدة عند بعض مشاهد لحظة الغروب،  
 حيث وقت الرواح: رواح النور والطيور والرعيان والقطعان.. إلخ، ويعبر عن  
 حسّه الرومانسي تجاه هذه المشاهد وما تبثه في نفسه من أصداء شجية فيقول:

النور يذوي في البطاحُ والطير يفزع للروح  
وملاحنُ الرعيان تبسُّ — دو في الإياب صدى نواح  
والعشبُ ودعه الأصيل — ل يميل من نشوات راح  
ومتوجَّحاتُ النخل يعسُّ — بث كبرها فوق الرياح

فعند الرواح تبرز الحقيقة المرة الخالدة، حقيقة تبدل الحال غير الحال:

لم يبق في الوادي سوى شبح يعيش على الخفاء  
يبدو الظلام به كأح — قناد يظن بها الدهاء  
خفت الوجود به فلا لحن ينم ولا غناء  
لحن عميق كان ف — تان المعاني ثم راح

ويستنطق عالم المحسوسات لينطلق منه إلى النموذج المطلق (للروح) والمصير المحتوم للإنسان، بأبعاده الممتدة إلى ما لا نهاية، حيث لا حدود زمانية ولا مكانية:

زالت معالمه وتل — لك نهاية الأمل الغير  
فمن الطفولة للكهو لة للتراب إلى المصير  
وحقائق الكون العظي — م تعيش في الوادي الصغير  
فضت أمامي سرها في ساعة عند الروح

ونحس نفساً رومانسياً أصيلاً يسري في عروق جميع أشعاره التي توفر فيها على الاهتمام بنوازع وخلجات عالمه الداخلي، ومنها إحساسه الأليم بالغرابة عما يحيط به من واقع بشري مححف ينفر منه:

أصاحب الذئب لا أخلو لإنسان      وأصطفي الليث دون العاقل الجاني  
لولا جهاد معاش بات يعشقه      قلبي لسامرت وحش الأيك والبان  
تبدو الوحوش بخافيتها لظاهاها      والأرض تبدي ذئباً طي إنسان  
إن الليوث تكف البغي إن طعمت      والمرء يبدو على ملء كجوعان  
إن الشرور مع الآماد قد رضعت      ثدي الوجود فلا تعذل أخوا العاني

ولذا انطلق في قصيدته (هروب) على أجنحة خياله المخلق، ينشد الخلاص  
بالانصراف عن العالم المرئي، صانعاً لنفسه عالماً من الأحلام يعوضه ما افتقده في  
عالم الناس، وينأى به عن الهموم وعذابات الحن:

سأظل أشدو في ربي الأحلام كالأمل السعيد  
سأظل أعلو في سماء الوهم كالنجم البعيد  
سأظل منطلق الجناح أهيم كاللحن الشرود  
سأظل مخمور الفؤاد أعيش للوهم الجديد

وإذا تكاثفت الهموم وناء بي قيد الزمن

لم يلق دهري ما يريد من العذاب من الحن

وتدل لفظة (سأظل) على رغبته في استمرارية هذه الانطلاقة وشدة تعلقه  
بها، وإيمانه بأهميتها في حياته. كما يأتي تكرارها ليؤكد نفوره وحرصه على  
الخلاص من عالم الواقع الموبوء والمرزوء، واحتفاله بعالم أحلامه. إنه عالم السعادة

والموطن الآمن الذي يشبع حنينه إلى ميلاد جديد، وإلى عالم الطفولة حيث البراءة  
والرحابة وبكارة المشاعر:

في عالمي نور تفيض به الروابي والسماء  
ينساب حولي في سلام ملهم عذب الصفاء  
لا تبرز الأنياب فيه من رياء أو دهاء  
أو تصرخ الأهواء ظمأى للضحايا والدماء  
رفت به الأطيوار تخفق بالغناء وبالأمل  
ويثير فيه العطر والأنداء أحلام القبل  
وأعيش كالطفل الغرير به أسامر خاطري  
لا تصرع الآمال فيه ولا يقيد طائري  
أنسى الزمان وقيده وجراح قلبي الحائر  
وأظل أشدو في ربي الأحلام لحن الشاعر

ولم يأت هذا الهروب تخلياً عن دوره في رفض النقائص، والدعوة إلى  
ما يحيا في أعماقه من القيم الإنسانية والأخلاقية، وإنما صارت هذه  
الدعوة ديدنه في عالمه العامر بالصفاء والنقاء، فمن خلال تغنيه بما يسمو  
به عالم أحلامه، أخذ يشير من قريب ومن بعيد، ملمحاً ومصرحاً بهذه  
المعائب والمساوي، معلناً أسبابها، ومشنعاً بآثارها وجرائرها كما في  
قوله:

أنا لا أرى في عالمي المحفوف بالورد الندي  
 أمل الصغير من الورود يموت في ظلّ القوي  
 والسم ينفضه الحقود بوجه نادية بغية  
 ليث شوك الذل والإرعاد في قلب الأبي

وزنابق الأحلام يهرق عطرها باغ عنيذ  
 وتسلُّ في كف الشباب من الرياض إلى اللحد

أنا لا أرى في عالمي للإثم أفواج العيذ  
 يسعى بهم ليل جديد للخطايا من جديد  
 لص، بغية، قاتل، عات وشيطان مريد  
 ملئت نفوسهم ظلاماً فاستكانوا في القيود

وترى ضحاياهم يشيون الليالي بالأنين  
 وغذاء جرحهم الأسي والثأر والحقد الدفين

ويستمر في إدانة الواقع البغيض، ومحكمة ضلالاته وتجاوزاته، حيث انعدمت  
 فيه القيم وخربت الدمم، فصار الأنام أشباحاً في عالم الظلم والظلمات الذي  
 تناوله في قصيدته (الأشباح):

وكثيراً من الأنام إلى الأشباح صاروا وإن همُ بجسوم  
 يرهبون السنّا ويهوون ستر الليل في حال الظلام الجثوم  
 كالحفافيش في الدجى تطلب العيش لسر يكون في

وبهيُّ السَّنا لعين العصافير حياة ومقتل للبومِ



فترى في الأنام سارق عرض أو حياة يكيل للناس حقدا

وغويًّا يسل روح الضحايا بالتهام الحقوق عهداً فعهدا

وعتياً يغل مال البرايا باحتيال رمى به الناس وردا

وألوفاً تلبسوا بدجى الأشباح شادوا على المذابح مجدا

أما وقد ضاق ذرعاً بما في عالم الناس من أرزاء وأدواء، فكان توجهه إلى

الله، بيته ما أمضه وأكداه:

يا إلهي وأنت للعدل ربّ لك في الناس عاجز وقويُّ

أمنَ الطينِ بدوهم نبع الخُلف أم الخُلفُ ذاك شيء خفيُّ

يسترقّ القوي من هو بالضعف على مذبج الورى آدميُّ

أُترى عالم الظلام من الأشباح فيه مسالم وغويُّ

وإن كان شاعرنا قد أعلن فراره عن هذا العالم المزدول، حيث وجد ضالته

في عالم أحلامه، إلا أنه يعود، فيعلن عن عدم جدوى الأحلام في معالجة الواقع

والارتقاء به، فالخيلات أوهام كذاب لا ترقى مدامع ولا تبرئ مواجع:

أترانا مع الخيال عدونا بالليالي فلم نعرها عيوننا

وجلوننا من الأوتى كذابا رائع السبك في الدن لن يكونا

وغزار الدموع تسقي ربانا وعيون القلوب تبكي أنينا

أما وواقع الأشباح كتيب والخيال كذوب، والعيون تملكها الدموع،  
والقلوب تشكو الأئين، فلا مفر من هذا وذاك إلا بالعودة إلى الله، تستشعره  
القلوب وتراقبه، وتراه العيون وتستجديه، فهو ملء هذا الكون موجود في كل  
الوجود:

ملء هذا الكون لا يخـ      فـى عليه ما يهـون  
فتـراه في جميع الـ      خلق ذا نور أمين  
في ورود الـروض في طيـ      صـدوح بالـلحون  
في وليد العشب في نو      ر طريـر في الغـصون  
في لـجين الصـبح في فحـ      م الـدياجي المسـتكين  
في تـراب في سـحاب      في سـهول في حـزون  
في نجـوم في غيـوم      في عـرين في وكـون  
يغمـر الكـون سـناه      وصـداه في الـيقين

### أدواته وجمالياته

إن ثقافته التي ضربت بجذورها في عوالم الشعر العربي قديمه وحديثه قد  
أحدثت بينه وبينها تراسلاً وجدانياً وفتياً:

وقد جاءت باكورة أشعاره - حيث تلمس الطريق - تحافظ على التقاليد  
المعهودة للتراث الشعري العربي القديم، وتستوحي وتستعير بعض طرائقه وألوانه  
في التعبير والتصوير، ومنها ما نلمسه في (صدود):

ألاقي من صدودك ما ألاقي وأرضى بالبعاد على اشتياقي  
لطيف، كاعب، ضحاك بدر ربيع فؤادي الحي التلاقي  
إذا عاتبته يوماً شكاني وألب من شامٍ أو عراقٍ  
وقال الصب عندي ثم يمضي مطيل البعد يعقبُ بالشقاقِ  
يحاكي البدر أضواءً وحسنا وليسا في الظهور على وفاقِ  
فكن كالبدر يطلع كل شهر ولا تجعل حياتي في محاقِ  
وكذا ما جاء في قصيدته (حب وحنين) ومنها قوله:

ورقاءً ناحت فاستهلت أدمعي ناحت وكان السامعون غصبونا!  
أرخت عيوني للدموع أعنة فجرت وكان بها الحنين معينا  
ورقاءً مثلي قد ضمنت على الهوى قلباً فصار لدى الضلوع سحينا  
قلبي تأسى بالشجى رغم الأسى ولربما عاد الحزين حزينا  
ولا غرو أن يحتفظ شعره ببعض السمات التراثية، فالتراث العربي بضخامته  
وعراقة و ثراء عطائه استطاع أن يأسر العقول والقلوب، وأن يفرض بصماته على  
كبار الشعراء المحدثين والمعاصرين.

ولم يدم هذا التلمس طويلاً إذ تفاعلت شاعريته مع إبداعات الرومانسيين  
العرب يتقدمهم أبو القاسم الشابي، فقد عايش شعره، وعبر عن إعجابه بفنه من  
خلال معارضته للدالية المشهورة (صلوات في هيكلك الحب) وهي قصيدة طويلة  
من ثمانية وستين بيتاً، استهلها الشابي بقوله:

عذبةٌ أنت كالطفولة، كالأحلام، كاللحن، كالصباح الجديد  
عارضها في مطولة من خمسة وستين بيتاً سجلت تفننه في التغني بفيض  
الجمال، وسلطان الجلال، وسحر البهاء، يقول في مطلعها:

نبضة أنت من جمال الدين العذب المجلى بلحن رب مجيد  
ومنها قوله:

وردة أنت من ورود الأمانى قد سقاها السحر الوديع بجود  
بسمة أنت في فم الدهر للسعيد الطروب في يوم عيد  
أنت لحن على شفاه زمان ضاحك ناعم بسحر نشيد  
وأولى شعر المهجر عنايته واهتمامه الذي وضع في دراسته لقضاياه، والجديد  
فيه، فكانت له أصداء في شعره، ولا سيما في مجال تأملاته، ورؤاه للطبيعة  
والحياة، ومنها -على سبيل المثال- ما جاء في تصوير إحساسه بلحظة الإمساء  
وما ينتاب النفس والكون من تغير وتبدل، إذ يقول في قصيدته (عند الرواح):

النور يركض خائفاً كالطفل من شبح مخيف  
في كل ناحية يرى في الليل أفواه الكهوف  
في جوفه يبدو له زنج يثيرون الدفوف  
أين الفر من القضاء أبالكساء أو الصياح  
إذ تذكرنا برؤى وهواجس إيليا أبي ماضي فيما يستشعره في (المساء) ومنه

قوله:

السحب تركض في الفضاء      ء الرحب ركض الخائفين  
والشمس تبدو خلفها      صفراء عاصبة الجبين  
والبحرُ ساجٍ صامتٌ      فيه خشوع الزاهدين  
وفي قصائده أمثال: عند الرواح، وهروب، والأشباح، نراه قد تحول عن  
النسق القديم للقصيدة العربية الذي يلتزم القافية الموحدة، حيث نلاحظ حماسته  
للتنوع في المقاطع والقوافي، تنوعاً يدل بوضوح على تأثره في بناء قصائده هذه  
بالموشحات الأندلسية، وبتجديدات المهجرين في هذا المضمار.

وفي ضوء اكتمال أدواته الفنية، وثراء تجاربه الحيوية وخبرته النفسية، جاءت  
لغته لغة شعرية تصويرية، تقوم على التعبير بالصورة، فكان أدأؤه في معظم أشعاره  
أدأءً تصويرياً يبعد به عن التجريد والتقرير.

ومن نماذج ولعه بالتصوير ما رسمه من ملامح عُجَبٍ ودلالٍ (بنات البلد) من  
خلال هذه اللقطة:

يلاطفن بالفعل الرشيق جوامداً      من الأرض تعلقو إثرهن الملاحنُ  
بأرديةً محبوكةً في سوادها      تمادين تبدو من خفايا المفاتنُ  
إنها الصورة الحية التي تكشف خبايا نفوس ذوات الدل، وتحكي تفننهن في  
استعراض مفاتنهن لبلوغهن المآرب في الإثارة والتأثير، وهي لغة تؤكد فطنة  
الشاعر لهذه المعاني ومهارته في عرضها شاخصة، مجسدة.

ومنها أيضاً - هذه المشاهد التي التقطتها مصورته، ورسمتها فرشاته حية  
نابضة بالحركة والحياة (على الشاطئ) لهذه الحسناء في انطلاقتها ورشاقتها:

وتقلبت فوق الرمال سخية      بالحسن يلثمها الحصى في مكر  
متعلقاً تشيه عن يدها قلى      فيجيبها قبلاً بدت في النحر  
وكأنما لمحت من الرمل الهوى      فتخلصت من حبه بالهجر  
وترجلت عن كبرها وتواثبت      فوق الرمال فراشة في نور  
حلت غدائر فرعها فكأنما      نثرت ذكاء أشعة من تبر  
وتلقفت أحضان موج حسننها      بين التردد شاردات الفكر  
قد أذهلت بالحسن أمواجاً كما      لو أنها قد رُكبت من خمير  
تتلاحم الأمواج زائغة النهى      ترجو رحيقاً من ذباب الثغر  
لا تعزبي في الماء ثمة غائص      يرنو لمثلك لاهثاً في صير  
تاج الملوك بغير مثلك درة      عطل وإن قد زينوه بيدر

وهذه الأبيات بما تضمنته من اللقطات الحية والتعليقات الطريفة إنما تشف عن خفة الظل، وتوحي بلطافة النفس، ورهافة الحس بالجمال الذي استقطب كيان شاعرنا روحاً وعقلاً معاً، إذ نلمس إعجابه النفسي، وفرحه الروحي بهذه الحسناء قد فاض على كل الوجود من حوله، وانعكس على الرمال والصخور والأمواج، فذب في الجميع نبض الحياة مما أذاب القلوب وهماً وشوقاً، وأزاع العقول تعلقاً وعشقا، فراح الصخر يلثم في مكر، والرمل يقبل اليد والنحر، والأمواج تحتضن الحسن، وتهفو لرحيق الثغر، وانطلق يناشد الحذر، فالغواص يتبغها، ويطمح إليها، ويطمع فيها، وتيجان ذوي السلطان إليها تهفو، وبها تسمو وتزهو.

ونذوق نكهة الجدة والابتكار في لغته التصويرية الموحية، عندما ينقلنا إلى عالم أحلامه معبراً عن هواجس وجدانه الرومانسي في مثل قوله:

في عالمي نور تفيض به الروابي والسماء  
ينساب حولي في سلام ملهم عذب الصفاء  
لا تبرز الأنياب فيه من رياء أو دهاء  
أو تصرخ الأهواء ظمأى للضحايا والدماء

رفت به الأطيوار تخفق بالغناء وبالأمل  
ويثير فيه العطر والأنداء أحلامُ القبل

إنه عالم الحب للحياة والأحياء، ولذا يرغبهم فيما يرتقي بهم، ويسمو بمشاعرهم وإنسانياتهم عذوبة وصفاء وأماناً وأماناً، ويتفنن في ترهيبهم وتنفيرهم من عالم القبح بصورة المشينة، التي أبدع في تجسيمها، فجعل للرياء أنياباً توحى بشراسته في الفتك بالذمم وضياع القيم، وأبرز الأهواء في وحشيتها وشراستها المتعطشة دوماً لدماء الأبرياء الضحايا والضعفاء.

ويعاوده الحنين إلى عالمه حيث رفيف الطيور وشدوها، وإشراق الروح بأصول الأمل، وحيث أحلام القبل التي تعيشها النفس في نشوة العطور والأنداء.

وتصدر ندرة التشبيه في بيته الأخير هذا عن إحساسه بالمزاجية والتوحد بين الطبيعة العطرة الندية وأحلام القبل، إذ يعايش فيهما نشوة واحدة وإن اختلف مظهرها، وكذا الشأن في لوحته التي رسمها واصفاً ما كان عليه الوادي من بهاء وضياء، قبل أن يطبق عليه ظلام المساء، إذ يقول متعجباً:

أين الأغاريد العذاب من المزهري في الطبيعة  
يشدو بها الوادي لأنوار السماوات الوديعه  
فيثبه الله العظميم على تبتله ربيع  
ويفيض بالوادي المنير من السماوات المراح  
ففي إطار هذه التعبيرات المجازية تتكاثف الصور الثرية بإيجاءها وما تعكسه  
من رؤى ودلالات نفسه، إذ تستوحي البصيرة، بعيداً عن الوقوف عند رصد  
المشاهد الخارجية والرؤية البصرية، وعلى قدر نفاذ البصيرة، وخصوبة المخيلة،  
يكون نصيب الصورة من الأصالة والجدة والابتكار.

وتعكس هذه اللوحة أصالة تلك الرؤية الإيمانية التي تتمثل الوادي بمزاهره  
قلوباً شاكرة، وألسنة ذاكرة، تسبح بحمد ربها في تجرد وتبتل، فصارت أهلاً لمثوبة  
الله العظيم، وفيوضات عطائه التي لا يحدها حد، ولا يحصيها عد.

ولعلك تلمس جلال المعنى وروعته، وحسن التعليل وطرافته في قوله:

فيثبه الله العظميم على تبتله ربيع  
إذ فسر تأثير الربيع على الوادي خصوبة ونماء وإزهاراً على أنها مثوبة عظيمة  
من رب عظيم لمخلوق عاش في معية ربه ناسكاً متبتلاً.

ومن بلاغيات التشكيل الشعري عنده اتخاذ الرمز -أحياناً- وسيلة للإيماء  
والتلميح بما يريد طرحه من الحقائق بعيداً عن التقرير والتصريح، كما في (توبة  
الأسد) وهي قصيدة طويلة من سبعين بيتاً، تجد صورة محسوسة رسمها الشاعر

لتسجل بتفصيلاتها أطواراً من حياة ليث الغاب، ومنها ما أنطق به الليث مصوراً  
جبروته وشراسته:

كنت ليث الغاب ذاناب طغى أصطفي القربان بالخلب النهيم  
أملاً الدنيا زئيراً مربعاً يرعد الآفاق بالصوت الغليم  
أفزع الأطيوار في وكناتها أرهب الأتباع لا أرعى الحرم  
علّ ناي من دمء وارتوى مخلبي حتى أصابته التخم  
وأدرك الليث وخامة العاقبة فعافت نفسه البغي والطغيان فسعى تائباً:

راعني ظلمي وأضحيت بغيتي أن أقيّل النفس من دنيا الوخيم  
كيف أرضي الله ساءلتُ النهي وعباب الإثم بحسراً يلتطم؟  
كيف أمحو ذكره الماضي الذي قد همى بالبغي مني واحتدم؟  
لقد تاب وأنااب متخلياً عن وحشيته، متخلصاً من جبروته:

واعترلت الخلق أواباً أرى جنة النفس بصمت كالصنم  
قانعاً بالماء في تيه جرى طاعماً بالغصن أحياء كالنعم  
ثم خانتته القوى، فأصابه الضعف والهزال، فصار شكلاً بلا مضمون، ومظهراً  
بلا جوهر، وهباءً تذرؤه الرياح:

خانت الليث القوى واستجمعتْ ضعفها فاهتدّ يصلى بالندم  
مثل طودٍ نخبوا أساسه غير شبّ هُدّ من ريح بنم<sup>(١)</sup>

(١) نخبوا أساسه: نزعوا.

ولكن على الرغم من ذهاب قوته فقد بقيت له هيئته.

وقد جاء الأسد هنا رمزاً لأصحاب الجبروت، تذهب مع الأيام قوتهم المادية،

ولكن تبقى لهم آثار من هيئتهم الماضية، يستشعرها كل من يراهم.

وتعدى في بعض ((إطار القصيدة)) إلى عمل فني كبير متعدد الجوانب تتنوع

فيه المشاهد ويتداخل فيه القص والوصف والحوار، وقد تجلى ذلك في مطولته

(أهازيج موت) من مئة وخمسة وتسعين بيتاً، صاغ في إطارها حكاية ذات خط

درامي، تدور حول مأساة (ثرثيا) تلك الحسناء التي فاجأها الموت ليلة زفافها على

توأم نفسها، وشقيق روحها الذي اختارته من بين خطابها الكثيرين..، ونكتفي

ببعض لقطات منها:

لهفي! ((ثرثيا)) ذات حسن ناظر متألق في سـرحة الأرواح

كانت كلمح راقص مستعذب يجلو قلوباً صدأ الأتراح

لاقت خدين القلب توأم روحها من بين عشاق لها أسماح

عقدوا لها في ليلة مياسة حفل القران بمجمع لـاح

وبدت مواكب عرسها في زفة كالبدر زف من النجوم ضواح

ويصفها وهي تستنجد مما ألم بها، فيقول بلسانها:

كفوا الشدائد عن فؤادي ترعوي صدوا مخالب ضيغم محتاح

رفعوا العروس إلى فراش ناعم لم يرتشف من حسننها الوضاح

وتحرقت شفة تخلى كرزها عنها بُعيد توجع ملحاح

أُمَاهُ صُدَيِّ دَمْعَةٌ وَتَجْلُدِي فَالدهر غير ملاطف مسمح  
 عَاتٍ يَصُولُ بِكَفٍ وَهَنْ مَسَاءَةٍ لَا يَنْتَهِي كَالجَازِرِ السَّفَاحِ!  
 وَأَتَى الْقَرِينَ نِيَالِ ضَمَّةٍ وَالهِ حُمِّ الْقَضَا فَرَمَى لَهَا بِسِلَاحِ  
 قَوْمِي لِنَحِيَا فِي رَبِيعِ هِنَاءَةٍ فَوْقَ الرَّبِيِّ مِنْ بَاسِمِ الْأَفْرَاحِ  
 لَمْ يَسْمَعْ الْمَقْدُورَ مِنْهُ شِكَايَةَ فَقَضَتْ كُورِدَ نَاضِرَ نَفَّاحِ  
 وَكَذَا عُقَابَ الْمَوْتِ يَخْتَطِفُ الْمَنَى تَغْشَى صَدُورَ مُؤَمِّلِي الْأَفْرَاحِ  
 فَمِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَبِيْثَ بَعْضَ مَا وَعَاهُ مِنْ دُرُوسِ الزَّمَنِ  
 وَصُرُوفِهِ، وَأَنْ يَعْضِرَ آرَاءَهُ فِي الْحَيَاةِ وَتَقْلِبَاتِهَا.

ومن القيم الجمالية الطريفة عنده اتجاهه في بعض أشعاره إلى التصوير  
 الكاريكاتوري الساخر، الذي يعكس خفة الظل، والميل إلى الدعابة والتفكه، كما  
 في قصيدته (إلى صديق كاد يغرق) التي تنطوي على المفارقة المثيرة للضحك،  
 هُكْمًا مِنْ هَذَا الصَّدِيقِ الَّذِي أَخَذَ يَصُولُ عَلَى الشَّاطِئِ وَيَجُولُ اخْتِيَالًا وَمَرْحَاً،  
 مُبْظَهْرًا دَوَاعِي الْمَهَارَةِ وَالشَّجَاعَةِ إِلَّا أَنَّهُ يَخْوُضُ بِتَجْرِبَةِ الْعُومِ فَيَفْشَلُ، وَيَخِيبُ الظَّنَّ  
 فِيهِ، وَلِذَا يَقُولُ مُسْتَخْفًا بِهِ:

أَتَذَكُرُ يَا أَحْمَدُ إِذْ ذَهَبْنَا بِنَجَارِي النَّاسِ قَفْزَاتٍ وَسَبْحَا  
 رَأَيْتُ الْجِسْمَ إِعْصَارًا فَحَسْبِي عَلَى الْحِصَاءِ أَجْلُو الْوَجْهِ سَمْحَا  
 خَلَعْتَ الثَّوْبَ عَنْكَ لَكِي تَلْبِي نِدَاءَ الْمَوْجِ مَخْتَالًا مُلِحًّا  
 لَهَيْبِ الثَّوْبِ مِنْكَ دَعَاهُ مَاءٌ وَظَنُّكَ أَنْ فِي الْأَمْوَاجِ فَتْحَا

تتبعه به على الشيطان زهواً أمام الغيد والشبان مرحى!  
 إخالك في ثيابك مستعداً كليث إنما ألقاه شبها  
 وغبت عن العيون وأنت شمس وعدت من الكسوف خروف أضحي  
 بليل الثوب خفاقاً ذليلاً وجيب القلب يكفي الشكل شرحاً  
 وأسمع من شفاه الغيد همساً عن البطل الذي قد رام نُجحا  
 ومالت كاعب في الأذن همساً بوجه ناعم تحتال صباحاً  
 صديقك إن أراد اليوم سبحاً فخذهُ جاعلاً في البيت قدحاً!

وتأتي - أحياناً - صوره الكاريكاتورية مشبعة بانتقاداته اللاذعة وسخرياته  
 الموجعة، مثيرة للأسى، ومعبرة عن السخط، كما هو الحال في قصيدته (زمان  
 القروء) التي جاءت تعج بالحركة الدرامية القائمة على الصراع بين عوامل البناء  
 ومعاول الهدم، وإدانة المفارقات والتجاوزات الدالة على اختلال المعايير وفساد  
 القيم، والتي تشكو عبث أهل هذا الزمان، وتصور عالمهم المخبول، الذي استمرأ  
 الفوضى والانحطاط والضياع وانقلاب الأوضاع:

تسلقي ما شئت يا قروءُ بغايبي قد نامت الأسودُ  
 وحلّقي في الجوى يا بغاثُ نسورُ دهري غلّمةٌ وغيدُ  
 عليهم هذا العصر مات غمّاً وجاهلُ رأسَ النهي يسودُ  
 وحرُّ عقل غاب في قيودٍ وأحمق في حُمقه سعيدُ  
 تمردي يا أمة المثاني على زمان ساده العبيدُ

عدونا من مشرق وغربٍ له على أشلائنا حشودُ  
 تمرغي في الوحل يا خطانا بفرقةٍ من بعدها نبيدُ  
 تسلقي ما شئت يا قرودُ بغابتي قد نامت الأسودُ  
 مقتطفات من شعره

### ١- فتنة الروح<sup>(١)</sup>:

يا فتنة الروح لا تقنات من جسد مضناك في الحب لا يسلك للأبد  
 ما أنت حمى سرت في الجسم من ولّه توهي قواه وإن تبقي إلى أمد  
 كالآل يخلب ذاك الضال في سغب يسعى إليه خبيباً دون ما ثمدا!  
 كالبرق يومض في ليل ومن لُجج يُيدي الضياء ويخفيه ولم يكد  
 مثل السراج بغير الزيت منطفئ مثل الغدير بغير الماء لم يُرد  
 بل أنت نور -وقاك الله من عطل- يجلو النفوس بسحر غير مفتقد  
 يا فتنة الروح آفاق مطهرة يختال فيها بنور منك في رشد  
 ننسى بها ما تضم الأرض من نقم بنت الشرور كداء الحقد والحسد

### ٢- على مرقاً النسيان<sup>(٢)</sup>:

هيني انطلاقاً من إसार صباية وخلي بقايا الحب تُبقي بقيتي  
 سكبت رحيق العمر فيك تخيلاً وقدمت هذا العمر كأساً لنشوتي

(١) قصيدة من خمسين بيتاً.

(٢) مطولة من مئة بيت.

خيال يدانينا فندنو من السها وإن بان عنا ضاق وجه البسيطة  
 أسلو هواها وهو يرسف في دمي وأنكر قلبي وهو دائم خفقة؟!  
 أعني على الماضي ودعني لحاضري ففي الأمس صهبائي وفي اليوم سكرتي  
 سلاماً إلى من ذاب روحي بروحها فقد حان ترحالي عذابي وجنتي  
 وداعاً سأمضي عن رباك معذباً إلى مهمه الحرمان في ليل عزلي

### ٣- فجر على الشاطئ<sup>(١)</sup>:

ونسجت أوردة الفؤاد حبائلاً فطوت خيلاً لا يفارق صدري  
 هدهدته بالصبر في فلك المني فشكا: أصير في مغاني الجمر؟!  
 وصفيّة الحسن الرطيب ترققت كالظل في ثمر الربى والتّور  
 وكأنها قمريّة قد غردت لحن التصابي في خميلة صدري  
 ألفتها فوق الرمال تخاف من عين الترقب في الحصى والبحر  
 ترنو اليمين إلى الشمال كأنها ظي تغفل أمه في ذعر  
 وكأنها حذر النواظر ترتجي في كل عين أعيناً للنسر  
 راقبتها حتى اطمأن فؤادها ما للعيون ظوامئاً من أثر  
 وتقلبت فوق الرمال سخيّة بالحسن يلثمها الحصى في مكر  
 متعلقاً تشنيه عن يدها قلباً فيجيبها قبلاً بدت في النحر  
 وكأنما لمحت من الرمل الهوى فتخلصت من حبه بالهجر

(١) قصيدة من اثنين وخمسين بيتاً.

## ٤- ثورة

على زيد الرياء نما الجفاءُ      بأيام يواكبها الفناءُ  
 سئمت من الخديعة كل صلٍّ      يوافيني دواءً وهو داءُ  
 يواجهني مضيئاً ناظريه      ودونهما لهيب لا ضياءُ  
 تضحك نأبه يغري بودي      ولو أغضيت روتته الدماءُ

## ٥- انتظار

حياتنا حياتنا      بالليل والنهارُ  
 نعيش مثل تاجر      يروغوه البوارُ  
 أعد ساعات مضت      كأنها إعمارُ  
 وأرقب الآتي الذي      يضحج بالأسرارُ



## صدى مراکش

رَوَّعُوا الْحَقَّ بِأَرْضِ الشُّهَدَاءِ      واسجنوه في تصاريفِ القضاءِ  
 واقتلوه إن رأى مدفعكم      أن نسفَ الحقَّ للغلِّ شفاءِ  
 ويح قوم طالما قد جرَّعوا      غصّةَ الذلِّ وما زالوا ظمأِ  
 أمةٌ تخشى من الحرب وما      برحت بعدُ جنيناً في الخفاءِ  
 علقت في الخوف من أرجلها      فسعت للفرِّ من قبل النداءِ  
 أمةُ السوءِ التي قد شرَّعت      مُنصَلِّ الظلم على أرضِ النقاءِ

أدهبا الموتُ (بِفِتْنَامٍ) فصا لَت بِحِقْدِ الثَّأْرِ تَغْشَى الْأَبْرِيَاءُ  
تُحْرِزُ النَّصْرَ عَلَى جَيْشِ الْخِيَا ل بِأَحْلَامٍ إِذَا جَدَّتْ.. غُثَاءُ  
أُمَّةٌ كَانَتْ فَأُضْحِتْ أُمَّةً كَبَّرَ الذُّلَ عَلَيْهَا بِالْحُدَاءِ  
نَخَرَ السُّوسُ هَوَىٰ أَعْظَمَهَا وَرَأَى الْعَقْلَ مَجَالاً لِلْغِنَاءِ  
وَكَذَا الْهَمَشُ مَعَ النَّاسِ إِذَا تَخِذَ الدَّهْرُ بِهِ مَرَعَى لِدَاءِ  
أَسْلَمَ الرُّوحَ وَفِيهِ قُوَّةٌ غَابَ عَنْهَا فِي مَهَاوِي الضَّعْفَاءِ  
يَا رَجَالَ الْحَقِّ يَا فِتْيَانَهُ لَيْسَ كَالْحَقِّ يَتِيمَ الْأَوْفِيَاءِ  
أَنْتُمْ أَهْلٌ لَهُ فَاسْتَبَسَلُوا دُونَهُ مَا دَامَ فِي الرُّوحِ ذِمَاءُ  
لَيْسَ لِلْحَقِّ نَصِيرٌ إِنْ غَفَا صَاحِبٌ عَنْهُ وَلَا بَيْنَ السَّمَاءِ  
أَوْقَدُوا الْأَوْطَانَ مِنْ نَارِ الدِّمَا كَالْجَحِيمِ مُوقَدٌ فِيهِ الْهَوَاءُ  
لَا تُضَيِّعُوا الْعُمَرَ فِي اللَّهْوِ فَمَا يَلْعَبُ الدَّهْرُ بِغَيْرِ الْأَغْيَاءِ  
وَاسْبِقُوا الْأَمَالَ فِي وَادِي الْعُلَا جَاعِلِينَ الْجُهْدَ لِلْسَّبْقِ لَوَاءِ  
كَمْ دَعَا الصَّائِحُ وَاسْتَبَكَ الْبُكَاءُ وَصِيَاحُ الدَّمْعِ أَصْدَاءُ فَضَاءِ  
كَلِمَا جَفَّ لَهُ دَمْعٌ... بَكَى وَغِرَّاسُ الْحَقِّ يُفْنِيهِ الْبُكَاءُ  
لَيْسَ كَالْقَوْلِ يُرِيحُ الْمَشْتَكِي وَالِدْمُوعِ الْغُزْرِ مِنْ طَرْفِ النِّسَاءِ  
شَيْمَةُ الضَّعْفِ الَّتِي لَا تَرَعُوِي عَنْ أَنْاسٍ جَهْدَهُمْ نَقَشَتْ بِمَاءِ  
أَرْخَصُوا الْقَلْبَ وَهَبُّوا وَحِدَةً تَرْكُزَ الْحَقِّ جَهَادًا لَا رَجَاءِ

لم يُعَدِّ لِلسِّلمِ فيكم رَفَقٌ بعدَ ما داسَ العَرينَ اللُّمَاءُ  
 أوقِدوا من شُعلةِ الحقِّ الرُّبِّيِّ بهَشِيمِ الرُّوحِ للعَليِّا فِداءً  
 فحِياةُ المرءِ ما أهونُها في إسارِ الذلِّ تَقْضِي بالعِواءِ!



### فكاهة

في بستان يملكه حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب قضى وقتاً ممتعاً مع  
 أساتذة قسم اللغة العربية وبعض طلابه وكان فيهم فتى من الصين أخذ يغني بعد  
 الغداء، فكانت هذه الأبيات:

لو قال ضُيِّبٌ<sup>(١)</sup> في المثل صينيُّ يُعْـوِلُ في بَـجْدِ  
 صدَّقْتُ ولكن في حَجَلٍ وخالَطْتُ الهزل مع الجَدِ



صينيُّ يُعْـوِلُ في بَـجْدِ حق يرويه البستانُ  
 في مهد الشيخ ذرى المجد يترامى الصوت الوسنانُ  
 الخضرة تسري في دمناء بشراً والريح تداعبنا  
 والنخل يناغم رُماناً والكرم يعانقه الظلُّ  
 والقهوة روت ندمانا والخيل يصفاه الخيلُ  
 وسَدْنَا الكبسة تفاحاً ليهيج الحسنُ مع الطربِ

(١) ضبيب: هو الدكتور أحمد الضبيب مدير جامعة الملك سعود بالرياض (سابقاً).

لكن الصوت بنا نأحا صينيّ يشدو في العرب!  
 عياد<sup>(١)</sup> يسأل والسيد<sup>(٢)</sup> والشامخ<sup>(٣)</sup> يلهج في الصحف  
 مع أن المنشرق قد أنجد فلم إذا نام مع الخزف  
 ويثير الدهشة منصور<sup>(٤)</sup> يستهدي من شعر النبط  
 فيقوم عبيد<sup>(٥)</sup> ويمور ونصون القول عن الشرط!  
 أما الشماع<sup>(٦)</sup> فقد تابا عن شدو الصين أو الجزر  
 يستضحك في قول يابا ويثير العذب من الصور  
 يا خيل الصين وتيوان لم نفهم عنك فلا تغضب  
 هيجت مكامن أحزاني في وقت الصفو فلم أشغب



لو قال ضبيب في المثل صينيّ يُغول في نجد  
 صدقت ولكن في حجل وخلطت الهزل مع الجد



- (١) عياد: هو الدكتور شكري عياد الأستاذ السابق بآداب جامعة القاهرة.  
 (٢) السيد: هو الدكتور سيد حنفي حسين الأستاذ بآداب جامعة القاهرة.  
 (٣) الشامخ: الدكتور محمد الشامخ الأستاذ بآداب جامعة الملك سعود (سابقاً).  
 (٤) هو الدكتور منصور الحازمي عضو مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية.  
 (٥) و(٦) عبيد، ود. حسن الشماع من أعضاء هيئة التدريس بآداب جامعة الملك سعود.

## في الصين

إلى أساتذة قسم اللغة العربية بمعهد شانغهاي وطلابه بمناسبة زيارتي لمدينة  
سوجو<sup>(١)</sup>:

بَسُوجُو جَنَّةٌ تَسْبِيكُ حُسْنًا      وَتَجْلُو قَلْبَكَ الْمَحْزُونِ فَنَّا  
روائع من أزهير الرواي      تُعَانِقُ طَيْرَهَا الْغَرِيْدَ لَحْنًا  
وَأَنْسَامٌ خَطَرْنَ مَوْقِعَاتِ      عَلَى قَلْبِ الْمُحِبِّ إِذَا تَغْنَى  
تَرُوذُ الْعَيْنُ فِيهَا كُلَّ حُسْنِ      يَطُوفُ مَعَ الْخِيَالِ بِكُلِّ مَعْنَى  
وَأَمْوَاهُ يَمْسُنُ مُدَلَّلَاتِ      كَخَاطِرِ شَاعِرٍ مَعْنَى فَمَعْنَى  
أَبَى التَّارِيخُ يَا سُوجُو أَنْزَوَاءً      بِأَرْضِكَ فَاثْتَى يَرْفُضُ سَجْنَا  
وَأَطْلَقَ لِلصَّنَاعِ مِنَ الْأَيْدِي      صَحَائِفَ تَزْدَهِي حَجَرًا وَلَوْنَا  
تَرَى الصِّينَ الْعَظِيمَ بِكُلِّ خَطٍّ      لِيُوسِعَ لِلْحَضَارَةِ فِيهِ رُكْنَا



## الأشباح

أيها العالم الخفيُّ بَرَحِبِ الْكَوْنِ تَسْعَى مِنَ اللَّيَالِي الْحَقِيقَةِ  
تُغْرِقُ الْيَوْمَ وَالْمَوَاضِي بِأَغْوَارٍ مِنَ السَّرِّ كَالْبَحَارِ الْعَمِيقَةِ  
صَامَتِ سَاكِنِ كَثِيفِ الظَّلَالِ السُّودِ خَافٍ كَطِيفِ رُوحِ طَلِيقَةِ  
أَنْتِ كَالْمَوْتِ تَنْتَقِيهِ وَنَخْشِي      مِنْ لِقَائِهِ لَجْهَلِنَا بِالْحَقِيقَةِ

(١) يوم ١٤/١١/١٩٨٠.

ولعل الضياء في ظاهر الوجه ينسابُ يُسِرُّ عمقَ الظلامِ  
والضبابُ الكثيفُ يُخفي من المجهول روحاً من السنا البسامِ  
غير أن الخفيَّ في الناس مظلومٌ عليه أصابع الاتهامِ  
وبدا الظاهر الظلوم بريئاً ساخراً من عمى قلوب الأنامِ



في شِعاب اليباب تخفق أحلامك يا عالمَ الظلامِ الرحيبِ  
وبقفر الطلول تنشر أجنادك بعد انطواء جنود الحروبِ  
وغداً تعمّر الدنى بك لا بالنشر المولّع بالتخريبِ  
وتصير الحياة في حوزة الأشباح أضحوكة بدت في نخبِ



أترانا مع الخيال عدونا بالليالي فلم نعرها عيوننا  
وجلونا من الأوائِ كذابا رائع السبك في الدنى لن يكونا  
وغزار الدموع تسقي ربانا وعيون القلوب تبكي أنينا  
وأدم الثرى دمٌ بشريُّ يتلوى على الثرى مجنوننا



يا إلهي وأنت للعدل رب لك في الناس عاجز وقويُّ  
أمنَ الطين بدوهم نبع الخلفُ أم الخلفُ ذاك شيء خفيُّ

يسترَقّ القويُّ من هو بالضعف على مذبح الوري آدميُّ  
أترى عالمَ الظلام من الأشباح فيه مسالم وغويُّ



وكثير من الأنام إلى الأشباح صاروا وإن هُمُ بجسومِ  
يرهبون السّنا ويهوون ستر الليل في حالك الظلام الجثومِ  
كالخفافيش في الدجى تطلب العيش لسرُّ يكون في التهويمِ  
وهي السّنا لعين العصافير حياة ومقتل للبومِ



فترى في الأنام سارق عرض أو حياة يكيل للناس حقدًا  
وغويًّا يسألُ روح الضحايا بالتهم الحقوق عهداً فعهداً  
وعتياً يغلُّ مال البرايا باحتيال رمى به الناس وردا  
وأولفاً تلبسوا بدجى الأشباح شادوا على المذابح مجدًا



قد بنينا من الرؤى كاذب الوهم لنلقي على الوجود ظلاله  
وثوى في النفوس مارِدُ أشباح ييئس الهوى ويخفي ضلاله  
ما رأى الإنس في الدنى غير مرآة تصرخ منه خياله  
فاحذري يا طيوفَ جنٍّ من الإنسان يغري جعل شيء ضلاله

## هروب

سأظل أشدو في ربي الأحلام كالأمل السعيد  
سأظل أعلو في سماء الوهم كالنجم البعيد  
سأظل منطلق الجناح أهيم كاللحن الشرود  
سأظل مخمورَ الفؤاد أعيش للوهم الجديد  
وإذا تكاثفت الهمومُ وناء بي قيدُ الزمنُ  
لم يلق دهري ما يريد من العذاب من المحنُ  
أنا لا أرى في عالمي المخفوف بالورد النديّ  
أملَ الصغير من الورود يموت في ظل القويّ  
والسمّ ينفثه الحقود بوجه نادبة بغيّ  
يُثّ شوكَ الذل والإرعاد في قلب الأبيّ  
وزنابقَ الأحلام يهرق عطرها باغ عنيذُ  
وُتسلّ في كف الشباب من الرياض إلى اللحد  
أنا لا أرى من يطعمون الصيرَ في سجن رهيبُ  
أدمى أكفهُمُ الشتاء وذوّبت فيه القلوبُ  
وثمارُ سعيهمُ الظما والجوع والخوف الكئيبُ  
لا يطلبون من الحياة سوى المنية عن قريبُ  
ومواكب الأحزان يحدوها أنين الراكعينُ  
ونخط في صخر الطريق شقاء آلاف السنينُ

أنا لا أرى في عالمي للإثم أفواج العبيد  
يسعى بهم ليل جديد للخطايا من جديد  
لص، بغى، قاتل، عات وشيطان مريد  
ملئت نفوسهم ظلاماً فاستكانوا في القيود

وترى ضحاياهم يُشيون الليالي بالأنين

وغذاء جرحهم الأسي والثأر والحدق الدفين

في عالمي نور تفيض به الروابي والسماء

ينساب حولي في سلام ملهم عذب الصفاء

لا تبرز الأنياب فيه من رياء أو دهاء

أو تصرخ الأهواء ظمأى للضحايا والدماء

رفّت به الأطيّار تخفّق بالغناء وبالأمل

ويثير فيه العطر والأنداء أحلام القبل

وأعيش كالطفل الغريب به أسامر خاطري

لا تُصرغُ الآمالُ فيه ولا يقيّد طائري

أنسى الزمان وقيده وجراح قلبي الحائر

وأظل أشدو في ربي الأحلام لحن الشاعر



## عند الرواح

النور يذوي في البطاخ والطير يفزع للرواح  
وملاحن الرعيان تبدو في الإياب صدى نواح  
والعشب ودعه الأصيل يميل بمن نشوات راخ  
ومتوجات النخل يعبث كبرها فوق الرياح



ومسارح الوادي تضيق وتنطوي عبر الفضاء  
وأزاهر الربوات تُغمض عينها أيدي المساء  
وجداول الأمواه تُسكن عندها قلب الفناء  
وأنا وحيد في الظلام أعيش في حلم الصباح



النور يركض خائفاً كالطفل من شبح مخيف  
في كل ناحية يرى في الليل أفواه الكهوف  
في جوفه يبدو له زنج يثيرون المدفوف  
أين المفر من القضاء أبا لكاء أو الصياح؟



صور يلونها الشتاء تمر في ركب حزين

ليبل ثقیل الصدر یجثم فی الری مثل المنون  
ونعیق بومسات من الأشباح أصوات الأنین  
ومعاول الأسرار تعرف نفسها بین الریاح



أین الأغارید العذاب من المزهري فی الطیعة  
یشدو بها الوادي لأنوار السماوات الودیعة  
فیثیبه الله العظیم علی تبلیه ربیعه  
ویفیض بالوادي المنیر من السماوات المراح



أین المعانی السماویات النابضات من الوجود  
تسری علی الوادي فتفتث سحرها فیما ترید  
فتراه فی ضوء الإله یصور كالطفل الولید  
بالنور یسبح فوق وجه الأرض من غیر الجناح



لم یبق فی الوادي سوى شبح یعیش علی الخفاء  
یبدو الظلام به كأحد یضن بها الدهاء  
خفت الوجود به فلا لمن یمنم ولا غناء  
لمن عمیق کما ان فتان المعانی ثم راح

وأفقتُ من حُلُم الصباح على مجاهدة الفؤاد  
 مُدّت من الجهول حول القلب أيد من سواد  
 فبغى النجاة من المصير وكيف ينجو بالجهاد  
 والنور حولي في الأصيل يئن من ألم الجراح



زالت معالمه وتلك نهاية الأمل الغرير  
 فمن الطفولة للكهولة للتراب إلى المصير  
 وحقائق الكون العظيم تعيش في الوادي الصغير  
 فضت أمامي سرّها في ساعة عند السراخ



obeikandi.com

قصائد الرثاء

في الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة

obeikandi.com

## كلمة وفاء

شعر: د. عدنان علي رضا النحوي\*

حَنَائِكَ! قَلْبِي مِنْ أَسَاهُ مُفَجَّعُ      وفي كُلِّ يَوْمٍ صَاحِبٌ لِي أودَّعُ  
تَحَارُ القَوَافِي مِنْ أَسَايَ وَإِنِّي      مع الذِّكْرُ للرحْمَنِ أَدْعُو وَأُخْشَعُ  
أَبَا مِصْطَفَى! وَيَحِي! رَحَلَتْ وَلَمْ يَزَلْ      صَدَى الذِّكْرِيَّاتِ الحَانِيَّاتِ يُرْجَعُ  
وما زال في المِيدَانِ صَوْتُكَ هَادِرًا      وما زال فِيهِ لَهْفَةٌ وَتَطْلُعُ  
وما زالت الأَصْحَابُ تَهْفُؤُ جُلُوعًا      يَضُمُّهُمْ حُلُوقُ البِيَّانِ وَيَجْمَعُ  
وما زال في السَّاحَاتِ طَيْفُكَ مُشْرِقًا      يُطِلُّ وَحِشْدٌ بَاتَ يُصْغِي وَيَسْمَعُ  
وما زالتِ الأَصْدَاءُ تَرَجِعُ والشَّدَا      بِمَوْجٍ فَتَغْنَى مِنْهُ دَارٌ وَأَرْبَعُ  
فَتَتَّبِعُ مِنْ حُسْنِ البِيَّانِ رَوَائِعُ      كَأَنَّهَا المِلكَ الَّذِي يَنْضَوِعُ  
فكم نَدْوَةٌ تَحْنُو لَذِكْرِكَ كَلِّمَا      تَنَادَى إِلَيْهَا الصَّالِحُونَ وَأَرْبَعُوا  
وكم مَنبَرٍ ما زال يَهْتَزُّ، كَلِّمَا      أَلَّتْ بِهِ الذِّكْرِيَّ يَهِيحُ وَيُفْجَعُ



أَبَا مِصْطَفَى! لَهْفِي عَلَيْكَ وَحَسْرَةٌ      تَرَدَّدُ فِي صَدْرِي وَفِي العَيْنِ مَدْمَعُ  
تُذَكِّرُنِي عَهْدَ الوفا فِيهِزُّنِي      وَعِزْمًا أَيْبًا بِالْيَقِينِ فَأُفْجَعُ

\* أديب سعودي كبير، له سبعة دواوين، ولثاني ملاحم شعرية، وكتب أخرى تزيد عن خمسين كتاباً.

أَلَيْفٌ عَلَى الْخِلَّانِ حُلُومُ شَمَائِلٍ      تَلِينُ عَلَى حَقِّ جَلِيٍّ وَتَصَدَّعُ  
 وَتَقْسُو عَلَى مَنْ يَسْتَجِيرُ بِبَاطِلٍ      إِذَا مَا أَبِي هَدِيًّا فِتْنَايُ وَتَقَطَّعُ  
 قَوِيَّتَ عَلَى صِدْقٍ، فُطِرْتَ عَلَى هَدَى      غَنِيَّتَ بِإِيمَانٍ يُعِزُّ وَيَرْفَعُ  
 وَتَجَلُّو بِأَخْلَاقِ الرَّجَالِ مَكَارِمًا      مَعَالِيَ أَخْلَاقٍ تَرُومُ وَتَجْمَعُ  
 وَتَعْلُو وَأَنْتَ الْحُرُّ عَنْ كُلِّ ذَلَّةٍ      وَيَهْبِطُ فِيهَا كُلُّ عَبْدٍ وَيَقْبَعُ



تَرَكْتَ كُنُوزًا لَا يَضِلُّ بِهَا الْفَسَى      فَيَعْنَمُ مِنْ زَادِهَا وَيُمْتَعُ  
 وَتَسَعِدُ آدَابٌ وَيَغْنَى رَجَالُهَا      بِرَأْيِكَ يُجَلِّى فِي الْمَتُونِ وَيَسْطَعُ  
 وَفِي كُلِّ دَارٍ مِنْ جِهَادِكَ جَوْلَةٌ      وَفِي كُلِّ نَادٍ مِنْ بَهَائِكَ مَطْلَعُ  
 فَهَذَا الرِّيَاضُ الْيَوْمُ تَسْأَلُ وَالرُّبَا      وَيَسْأَلُ فِيهَا الْمَهْرَجَانُ وَيَفْرَعُ  
 وَهَذَا رَبًّا ((لكنو))! لِقَاؤُكَ عِنْدَهَا      تَحْنُ إِلَى ذِكْرِي لِقَائِكَ أَضْلَعُ  
 وَفِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى نَوَادٍ تَفْتَحُتْ      إِلَيْكَ وَأَكْبَادُ تَحْنُ وَتُوَلِّعُ  
 وَهَذَا رَبًّا مَصْرٍ وَأَنْتَ فَتِيهَا      وَفَارْسُهَا تَرْنُو إِلَيْكَ وَتَدْمَعُ  
 فَإِنَّكَ فِي دُنْيَا الْمَعَارِفِ جَوْهَرٌ      وَالْمَاسَةَ كُبْرَى تَشْعُ وَتَلْمَعُ  
 دِيَارُ تَنَاءَتْ أَوْ دَنْتَ وَمَنَازِلُ      تَشْدُ إِلَيْهَا الرَّحْلَ شَدًّا وَتَدْفَعُ  
 فَلَا مَرَضٌ يُشْنِيكَ عَنْهَا وَلَا هَوَى      يَرُدُّكَ عَنْ حَقِّ وَلَا أَنْتَ تَهْجَعُ  
 عَرَفْتُكَ فِي هَدْيِ الْمَنَازِلِ فَارْسًا      تَجُودُ وَتُوفِي مِنْ نَدَاكَ وَتَنْفَعُ

وقلبك فياضٌ وعزمك صادقٌ      وثغرك بسامٌ وكفك مُترعٌ  
ففي كل يوم جولةٌ بعد جولةٍ      لها عبقٌ يُغني وجودٌ يوسعُ



دفعتَ عن الإسلامِ شرَّ عصابةٍ      وعن لُعةِ القرآنِ كيداً يُروغُ  
تَرُدُّ أباطيلَ الحداثةِ فأنزوي      بنوها إلى حينٍ فجمّوا وأوضَعُوا  
فإنَّ لهم حشداً يمدُّ ضلالَهُم      ويُغريهم منّا سفيةً مضيعُ  
فخضتَ مع الأيامِ حرباً عليهمُ      فترميهم بالبيناتِ وتصرعُ  
وإخوانك الأبرارُ أبلّوا بلاءَهُم      وشدّوا عليهمُ في التّزالِ وأوقَعُوا  
وصنّتَ بيانَ الحقِّ يبقَى جمالهُ      ندياً مع الأيامِ يزهُو ويطلعُ



ومنّ تكُ دنياه ممرّاً لغايةٍ      أجلٌ وأسمى لا يهْنُ منه منزعُ  
إلى الله تشبّدُ الخطأ ويحُثُّها      إلى جنّةِ الرحمنِ شوقٌ ومطمَعُ  
ومنّ تهنّ الدنيا عليه تهنّ بها      صعابٌ وآلامٌ عليه تجمّعُ  
فما العمرُ إلا أن تُودَى رسالةُ      وتوفى أماناتٌ تُردُّ وتودَعُ  
فطوبى لمن أوفى مع الله عهدَهُ      ومن ضمّةٍ في اللحدِ روضٌ يوسّعُ  
كأنّ نداءه في الحياة له ندىٌ      وبردٌ حياةٍ في المماتِ ومضجعُ



رحلتَ وفي جنبيك أحزان أمة  
 وفي كل دارٍ، ونوحٍ نفسي، فواجعُ  
 صببنا على الساحات شكوى تفجعاً  
 من الحق أن تُبكي الرجال لأنهم  
 ولكنما الأوطان تُرثى بأجرٍ  
 إذا لم يجذُ بالروح لله جندها  
 توالى من الآفاق أهوال نكبةٍ  
 هزّ من الأركان أركان أمة  
 تقطعت الأرحام واشتدّ بينها  
 كأن بني الإسلام والزحف مقبلُ  
 فما عاد يدري صاحب الدار ما به  
 وفي كل كفٍ خنجرٌ ومعاولُ  
 إذا ضيّع الغافون ديناً وشرعة

وفي الصدر حسرات لها وتوجعُ  
 زلازل ما زالت تهزُّ وتقرعُ  
 فما كان يُجدي في التزال تفجعُ  
 حماةً إذا جدَّ التزال ومفزعُ  
 من الدّم دفاقاً به النور يطلعُ  
 فأى سبيل دون ذلك ينفعُ  
 ثمزق من هذي الرُّبا وتقطعُ  
 فيهبوي بها ركنٌ وركنٌ يضعضعُ  
 هوىً وفسادٌ في المربع أقطعُ  
 عليهم غفاةً في الأسرة هجعُ  
 ولا ما أصاب الجار حين يُروعُ  
 يدقُّ بها ظهر القريب ويصدعُ  
 فأنفسهم يوم القوارع ضيعوا

الرياض: ٢٥/١٠/١٤١٧هـ

الموافق: ٤/٣/١٩٩٧م



## بكاية

شعر: سعيد عبد العزيز القماش\*

نم هانئاً

فالجد لك

لم يبق شيء ههنا إلا هلك

فالبدر لما يُفتقد

تغدو القبيلة كالفلك

دوارة.. هدارة

آسادها.. آجامها

حتى العصافير التي

كانت لها

رحلت معك

والأنجمُ الزهرُ التي

كانت لنا

صارت حلك

---

\* مدير تعليم بالمعاش - الإسكندرية.

المجدُّ لك

لِمَ لَمْ تَعُدْ؟!

الكل منا قد رحلُ

رحلوا معكُ

قلبي معكُ

روحي معكُ

كل الذين أحبهمُ

ذهبوا معكُ



لِمَ لَمْ تَعُدْ؟!

يا قاصداً مهجَ القلوبِ

تَوَزُّها أَرْأَ أدُّ

مهجاً تفانتُ في هواكُ

وما لها حصرٌ عددُ

ماذا دهاكُ من الزمانِ

وما له منا شردُ؟

يا ليته يستوقفكُ!

كنت العمادَ لبيتنا

والسقفَ والركنَ الأشدَّ

مَنْ يرشد الحيرى؟ ومَنْ

يستلهم الرُّشدى؟ ومَنْ

يُجليك أيامَ الكمدِ

ذُوبانُ قرينتنا غدوا

حيث القبيلةُ واللدنُ



لِمَ لَمْ تعد؟

لترد بالكفِّ الوضيئة

وجهَ زيفٍ قد أطلُّ

قمِّ يا بطلُ

يا أيها الأفقُ المطلُّ

بيدُ أرتالِ الدجلِ

قمِّ يا بطلُ

يا أيها النجمُ الذي

قد كان لي

نوراً تمددَ في المقلِّ

قمْ يا بطلْ

يا سدرَةً أمَّلتها

قد أسقطتْ أوراقها

يا سدرَةً الأُحبابِ

أوراقي بددْ



لِمَ لَمْ تعدْ؟

ألأننا والكلُّ قدْ

ساروا معكْ

هل يا ترى أرواحنا

عادت كما عاد الأُمُّ

أم أننا والكلُّ صرنا رحلةً

سكنوا العدمْ؟

والناسُ حولي لحظةً

والدهرُ منا قد نفذْ

والكونُ غشَّاه البددْ

أم أنها رحلت إليك

وجاورتك إلى الأبد؟

فعلمت أنك لن تعود

ونحن أيضاً لم نعد

الإسكندرية ٢٠/٤/١٤١٨هـ



obeykhalid.com

obeikandi.com

## صوتٌ من النغم المترامي

شعر: محمد فؤاد محمد علي\*

دمعةٌ... دمعتانِ..  
ولثمةٌ شعرٌ  
وصوتٌ من النغم المترامي..  
وسهمٌ من النور كرّ  
وجذع تحوم على كل غصنٍ بهِ  
ألفُ ألفِ قصيدةٍ شعرٌ  
ونسرٌ يدوي فترتاعُ منه ((الحدائث))  
يدخل أربابُها في مغاراتهم  
حين يكتب خيلُ الأصالةِ كانت تُكرُّ  
كلما حدّث ((المتوسط))..  
أعطى له في الصباحات نورسه،  
والطيورُ إذا شاقها الفجرُ  
تأوي إليه وترتاده نورَ فجرٍ

\* مدرسة الكوادي - المنيا، مصر.

فيا أيها المتسامي..

وينبوعه يستفيضُ..

تساقى بينبوعه ((النثرُ)) والشعرُ))

حتى استطلا سنابلَ خضرُ

وحين اصطفيتَ الجمالَ اصطفاكَ الجمالُ

وقال لك الصبحُ:

من كوةِ النورِ مرّ



## نم هانناً واجن خيراً الجزاء

شعر: أحمد محمود مبارك\*

وهبت علينا العواصف هوجاء..

تبغي انتزاع الفروع..

من الجذر..

كيما تُبعثرها مرقاً من هشيم..

بغير انتماء وغير هوية

وهبت علينا العواصف داجية..

تُلطخ أوراقنا..

بقتام بهيم..

وتُطفئ أضواء..

أحرفنا العربية

وهبت علينا العواصف تنفث سماً وضعنا..

تدسُّ بأمن الحصون..

فحيح المعاول..

---

\* شاعر وقاص - الإسكندرية، مصر.

مِنَّا الْمَاعُولُ

ولكن.. علينا..

مُضَلَّلَةٌ أَلْبَسَتْهَا الْأَبَاطِيلُ..

سَمَتَ التَّعْرُبَ وَالتَّبَعِيَّةَ

وَرَا حَتَّ تُحْرِكُهَا فِي الظَّلَامِ..

لِتَضْرِبَ مَثَنَ التُّرَاثِ الْوَضِيءِ..

وَتَنْبِشَ مَقْبِرَةَ الْخَالِدِينَ..

بأحلامنا..

وَتُهَيِّنَ..

رُفَاتِ الْأَوَائِلِ

وَلَمْ تَسْتَكْنِ أَنْتَ رَغْمَ اشْتِدَادِ الْعَوَاصِفِ..

لَمْ تَسْتَكْنِ أَنْتَ رَغْمَ سُعَارِ الْمَاعُولِ

تَدْرَعَتْ نَوْرَ الْيَقِينِ..

امْتَشَقَّتْ يِرَاعَكَ سَيْفًا

وَرُحْتَ تَنَاضُلُ

وَلَمْ يَبْعَثِ الْعَصْفُ فِي عَزْمِكَ الصَّلْبِ ضَعْفًا

وَمَا بَثَّ نَصْلُ السُّعَارِ بِقَلْبِكَ خَوْفًا

ظللت تصدُّ هبوب الصَّغائِنِ..

تحمي شموخَ الحصونِ..

ولم تكثُرْ بالسَّهامِ التي أثخنتُك..

ولا بالتيوبِ..

التي غرِزَتْ في شغافِ الفؤادِ..

ولم تُلقِ يوماً يراعَ الجهادِ..

لتؤثِّرَ فيءَ السلامةِ في موكِبِ الخانعينِ..

أو المُسكينِ..

العصا..

مِنْ حَمِي الْمُتَّصِفِ

وَحِينَ الْوَجِيبُ تَحَمَّدُ..

وسيفُ اليراعِ انْقَصَفُ

تَلَقَّفُ مِنْكَ لَوَاءَ مُحَمَّدُ

بواسلُ لم يَنْتَزِعْهُمْ موارُ العواصفِ..

من جذرهمِ..

لم يبيعوا عقيقَ التُّراثِ..

بزيِّفِ بریقِ زُجاجِ التَّعْرِبِ..

فَاهِنًا وَنَمَّ..

مَطْمَئِنًّا فَإِنَّ الْبَوَاسِلَ كَثُرَتْ..

بِسَاحِ الْأَصَالَةِ..

هُمُّ..

مَنْ تُسَبِّحُ أَحْرَفُهُمْ لِلإِلهِ

وَهُمْ..

مَنْ تَوَضَّأَتِ الْكَلِمَاتُ..

الَّتِي يَكْتُبُونَ بِنُورِ إِسْلَامِنَا السَّمْحِ..

هُمُّ

مَنْ أَصَابَهُمْ قَابِضَاتٌ عَلَى جَمَرَاتِ الْقِيَمِ..

بِرَغْمِ زَمَانٍ بَدَا..

كَمْزَادٍ لِيَبِيعَ الذَّمُّ..

وَهُمْ..

مَنْ غَرَّاسُهُمْ..

أَيَّنَعَتْ مِنْ رُؤَاكُ..

هُمُّ

مَنْ تَعَهَّدَتْهُمْ بِضِيَاثِكَ..

والدّرْبُ من حَوْلِهِمْ..

مُدْلِهِمْ..

فَمَم...

هائناً واجن خيّر الجزاء

سيبقى عطاؤك رغم الفناء

حدائق نورٍ بأحلامنا..

ويذهبُ غرسُ الضلالِ جُفَاءُ



obeikandi.com

## سيرة حياة الدكتور محمد مصطفى هدارة

### ونتاجه العلمي

ولد بالإسكندرية عام ١٩٣٠، وتلقى بمدارسها تعليمه الابتدائي والثانوي، ثم تخرج في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية في عام ١٩٥٢ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، وحصل على درجة الماجستير في عام ١٩٥٧ بتقدير ممتاز، وعلى درجة الدكتوراه في عام ١٩٦٠ بمرتبة الشرف الأولى.

عين معيداً بكلية الآداب بجامعة عين شمس (جامعة إبراهيم باشا سابقاً) بعد تخرجه، ثم عمل ملحقاً ثقافياً بجامعة الدول العربية حتى عام ١٩٦٠، ثم عين مدرساً بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، ورفقي أستاذاً مساعداً في عام ١٩٦٦، وأستاذاً في عام ١٩٧٢، حتى أحيل إلى التقاعد في فبراير عام ١٩٩٠ فعين أستاذاً متفرغاً.

عين وكيلاً لكلية الآداب للدراسات العليا والبحوث في الفترة من ١٩٨٠ حتى ١٩٨٢، ورئيساً لقسم الدراسات الصوتية في الفترة ذاتها، وعميداً لكلية الآداب بجامعة طنطا، ورئيساً لقسم اللغة العربية وآدابها منذ عام ١٩٨٣ حتى ١٩٨٩.

حصل على جائزة التفوق الأدبي في اللغة العربية عام ١٩٤٨ (المسابقة التوجيهية)، وعلى جائزة الرواية التاريخية من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب عام ١٩٦٠ عن رواية المنصورة، ونال في عام ١٩٨٨ جائزة صدام للآداب في فرع تاريخ الأدب.

عضو لجنة الدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضو اتحاد الكتاب ورئيس مجلس إدارة نادي القصة بالإسكندرية، وعضو اللجان العلمية الدائمة لفحص الإنتاج العلمي للمتقدمين للترقية إلى درجة أستاذ وأستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها، وقد قام بفحص الأعمال العلمية لأكثر من مئتي متقدم في الجامعات المصرية والعربية.

أعير للعمل بجامعة أم درمان الإسلامية في عام ١٩٦٦ لمدة ثلاث سنوات، وأسهم في إنشاء قسم اللغة العربية بها، ثم أعير للعمل بجامعة الملك سعود (الرياض) في عام ١٩٧٢ لمدة خمس سنوات فأسهم في وضع مناهج الدراسات العليا بها.

عمل أستاذاً زائراً في عدد من جامعات المملكة السعودية ولبنان والكويت والإمارات والسودان والأردن والصين والولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا، ودعي لإلقاء محاضرات في عدد من الجامعات العربية والأجنبية، وزار في مهمات علمية معظم الدول العربية والأوروبية والإفريقية وأمريكا وكندا واليابان والصين.

وضع في أثناء عمله بالإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية خطة لترجمة أمهات أعمال المستشرقين، فأشرف على إصدار ترجمة تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، كما وضع مشروعاً لتوحيد قانون المطبوعات بالبلاد العربية، وإصدار نشرة بيبلوجرافية موحدة بما يصدر في العالم العربي من مؤلفات.

طلب مكتب التربية العربي لدول الخليج استشارته في إنشاء مركز لتعليم اللغة العربية، فوضع في ذلك مشروعاً مفصلاً، كما اشترك في تأليف مجلد عن موقف المستشرقين من الحضارة العربية والإسلامية أصدره المكتب بالتعاون مع

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، كذلك اشترك في بحوث مجلد عن رواد النهضة الإسلامية الحديثة صدر عن مكتب التربية العربي لدول الخليج بالتعاون مع المنظمة العربية، واشترك في كتابة موسوعة عن الحضارة العربية تصدر بعدة لغات عن إحدى دور النشر اللبنانية الكبيرة. كذلك اشترك في تأليف سلسلة (الروائع) التي يصدرها المجلس الأعلى للثقافة، كما اشترك في تحرير مواد الموسوعة العربية العالمية التي تصدر عن دار الشروق من أول عام ١٩٩٤ وهو عضو مجلس إدارة تحريرها.

اشترك في عدد كبير من المؤتمرات العلمية والثقافية التي عقدت في مصر والبلاد العربية والأجنبية، منها على سبيل المثال: المؤتمر الثقافي العربي الرابع الذي عقد بدمشق سنة ١٩٥٧، والمؤتمر الثقافي العربي الخامس الذي عقد بالرباط ١٩٥٩، ومؤتمر الجامعات العربية الذي عقد في بنغازي ١٩٦٠، ومؤتمر اليونسكو الذي عقد في بيروت سنة ١٩٥٩، ومؤتمر اللغات الإفريقية الذي عقد في لاجوس ١٩٨٢، ومهرجان الربد الذي عقد في بغداد سنة ١٩٨٦، ١٩٨٧، ١٩٨٨، وأعد مؤتمر تدريس اللغة العربية في الجامعات التي عقد بالإسكندرية سنة ١٩٨١ والندوة الدولية عن بحوث محمد خلف الله أحمد ١٩٨٤، ومحمد محمد حسين ١٩٨٥، ومؤتمر الأدباء الذي عقد بالكويت ١٩٥٨، ومؤتمر الأدب الإسلامي الذي دعت إلى عقده جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وعقد بالرياض ١٩٨٥، واشترك في مهرجان ((الجنادرية)) الثقافي بالسعودية في معظم مواسمه، ومؤتمر النقد الأدبي بجامعة اليرموك، وندوات الأدب الإسلامي في القاهرة والإسكندرية والزقازيق، وهو عضو في رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

تخرج على يديه في مرحلة الليسانس آلاف من الطلاب في مصر والعالم العربي على مدى أكثر من ثلاثين عاماً متصلة في التعليم الجامعي حتى الآن، وأشرف حتى الآن على ٨٢ رسالة ماجستير و ٨٩ رسالة دكتوراه في الجامعات المصرية والعربية، ومعظم تلاميذه يتولون التدريس في أقسام اللغة العربية في الجامعات المصرية والعربية.

يعمل مستشاراً لتحرير مجلة الرافي.

وهو عضو بمجلس أمناء جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري والثقافي.

اشترك في عدد كبير من الندوات الثقافية في مصر والعالم العربي، وألقى عدداً كبيراً من المحاضرات آخرها سبع محاضرات في موضوعات أدبية ألقاها في عام ١٩٨٧ في الجامعات والنوادي الثقافية بالسعودية، وثلاث محاضرات عامة بجامعة الكويت في عام ١٩٩١، ومحاضرتين بجامعة اليرموك بالأردن، ومحاضرة بندوة الثقافة والعلوم بدبي.

أصدر عدداً من الكتب المؤلفة والمحققة والمترجمة نذكر منها ما يأتي وقد طبع كل منها عدة طبعات:

#### ١- الكتب المؤلفة:

- تيارات الشعر المعاصر في السودان.
- التحديد في شعر المهجر.
- مشكلة السرقات في النقد العربي: دراسة تحليلية مقارنة.

- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري.
- دراسات في الشعر العربي جزآن.
- مقالات في النقد الأدبي.
- الشعر العربي في القرن الأول الهجري.
- الشعر العربي في العصر الجاهلي.
- المأمون الخليفة العالم.
- النقد الأدبي الحديث.
- دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق.
- دراسات في النثر العربي الحديث.
- مصادر دراسة البارودي.
- فرسان الشعر في إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي: عبد العليم القباني،  
يسن الفيل، إسماعيل عقاب.
- الشعر العربي الحديث.
- المنصورة (رواية تاريخية).
- الشعر العربي المعاصر إلى أين ((دراسة تطبيقية لشعراء الأقاليم)).

## ٢- الكتب المحققة:

- سرقات أبي نواس لمهلل بن يموت.
- ضرائر الشعر للقرزاز القيرواني.

- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي.
- مختارات البارودي (٤ أجزاء) تقدم وإشراف على التحقيق.

### ٣- الكتب المترجمة:

- الإسلام لألفريد جيوم.
  - يوميات هيروشيما هاشيا.
  - قاهر القطب الجنوبي لرتشارد بيرد.
  - ملفل الملاح الصغير لجين جولد.
  - عالم القصة لبرنارد ديفوتو.
- أشرف على إصدار ((مصادر دراسة البارودي)) والكتاب التذكري عن سيرة الدكتور عبد المجيد عابدين.
- اشترك في كتابة مقالات وبحوث في عدد كبير من المجلات العلمية المتخصصة، والمجلات الثقافية التي تصدر في العالم العربي، ومن المجلات التي زودها بكثير من مقالاته: المجلة - الشهر - الثقافة - فصول - إبداع - (وهي تصدر في مصر) والعربي التي تصدر في الكويت والفيصل والشرق والقافلة والخفجي (وهي تصدر في السعودية) والفكر التونسية والدوحة التي كانت تصدر في قطر والأدب الإسلامي التي تصدر عن الرابطة.

كما حرر مقالات في الصحف التالية: الأهرام، الأخبار، الشرق الأوسط، الرياض وغيرها.

## من بحوثه التي نشرها:

- ١- البطولة في الشعر العربي من خلال حروب قيس وتغلب (مقدم لمؤتمر أدباء الكويت ١٩٥٨).
- ٢- القوس العذراء رؤية في الإبداع الفني (ضمن مجلد بمناسبة تكريم الأستاذ محمود شاكر لبلوغه سن السبعين).
- ٣- الإنسان في شعر نازك الملائكة (ضمن مجلد أصدرته جامعة الكويت بمناسبة بلوغ الشاعرة سن الستين).
- ٤- موقف مرجليوث من الشعر الجاهلي بين سوء النهج والتعصب (ضمن مجلد أصدرته المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة).
- ٥- الشعر العربي عبر العصور (ضمن مجلد عن الحضارة العربية والإسلامية يصدر عن دار الكيال ببيروت).
- ٦- محمد عبده (ضمن مجلد عن رواد النهضة الإسلامية).
- ٧- خير الدين التونسي (صدر عن مكتب التربية لدول الخليج).
- ٨- التراث الإسلامي في أدب توفيق الحكيم (ضمن الكتاب التذكاري الأول الذي أصدره المركز القومي للآداب بوزارة الثقافة).
- ٩- ملامح رومانسية في الشعر السعودي الحديث (ضمن ملف الثقافة والفنون الذي أصدرته جمعية الثقافة والفنون بالرياض ١٩٨٥).

- ١٠- الالتزام في الأدب الإسلامي (ضمن بحوث مؤتمر الأدب الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٩٨٥).
- ١١- اتجاهات جديدة في القصة السكندرية المعاصرة (نشر بمجلة ((الدوحة)) في قطر في عهدي يونيو ويوليو ١٩٨٣).
- ١٢- الحدائق والتراث (محاضرة بدعوة من مؤسسة الملك فيصل بالرياض ١٩٨٥).
- ١٣- كتاب ((نهاية الإيجاز)) للفخر الرازي وأثره في تاريخ البلاغة العربية (نشرت بمجلة كلية الآداب بجامعة الرياض ١٩٧٦).
- ١٤- اللغة العربية واللغات الإفريقية (بحث بالإنجليزية ضمن بحوث مؤتمر اللغات الإفريقية الذي عقد بلاجوس ١٩٨٢).
- ١٥- قراءات في النقد البنيوي (محاضرة أقيمت بدعوة من النادي الأدبي بالمدينة المنورة ١٩٨٧).
- ١٦- الأدب العربي الحديث والمذاهب الأدبية في الغرب (محاضرة أقيمت بدعوة من كلية التربية بالطائف بالمملكة العربية السعودية ١٩٨٧).
- ١٧- معالم الأدب الإسلامي (محاضرة أقيمت بدعوة من جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٨٨).
- ١٨- الأدب الإسلامي بين جمال الفن وحدود الالتزام (محاضرة أقيمت بدعوة من جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٨٨).
- ١٩- الغموض في الشعر العربي الحديث (محاضرة أقيمت بقصر ثقافة الشاطبي عام ١٩٨٨).

- ٢٠- التغريب وأثره في الشعر العربي الحديث (محاضرة أقيمت بقصر ثقافة الحرية عام ١٩٨٨).
- ٢١- موقف الأدب الإسلامي من المذاهب الأدبية المعاصرة (بحث ألقى في ندوة الأدب الإسلامي - جامعة عين شمس (١٩٩٢).
- ٢٢- عبثية الحياة في شعر أحمد مشاري العدواني (ضمن مجلد عن الشاعر تصدره جامعة الكويت).
- ٢٣- اتجاهات الحركة الشعرية في الخليج العربي (محاضرة بدعوة من ندوة الثقافة والعلوم بدبي ١٩٩٠).
- ٢٤- الانتماء في الشعر العربي الحديث من خلال تجربة فتحي سعيد (مجلة الثقافة الجديدة).
- ٢٥- صور الطبيعة في شعر محمد إبراهيم أبي سنة (مجلة الثقافة الجديدة).



obeikandi.com

## فهرس

الصفحة	الكاتب	الموضوع
٦	د. عبد القدوس أبو صالح	تصدير..
٩	أ. د. محمد زكريا عناني	مدخل عن حياة وأعمال د. محمد مصطفى هدارة
١٧	أ. د. محمد زكي العشماوي	د. هدارة بين التراث والحداثة
٢٧	د. سعد أبو الرضا	د. محمد مصطفى هدارة.. الفارس الذي ودّعناه
٣٩	د. محمد توفيق محمد سعيد	معارج حياة
٥١	أ. د. محمد زكريا عناني	أ.د. هدارة: رؤية سكندرية. هدارة فقيده الأدب
٥٩	أ. د. بدر أحمد ضيف	دراسة في فكر د. محمد مصطفى هدارة
٧٩	د. سعد سليمان حمودة	ملاحح وسمات عامة في المنهج النقدي في كتابات د. محمد مصطفى هدارة
١٠١	د. صالح حسن اليعطي	منهج د. هدارة بين التأصيل والتجديد ونشدهان الحقيقة
١٣١	د. علي حمدي علام	ما بين الأصالة والمعاصرة من خلال دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق
١٤٩	د. محمد أبو الفضل بدران	رواية المنصورة بين الإبداع والتأريخ
١٧٩	د. مختار عطية عبد العزيز	منهج دراسة السرقات الشعرية بين د. طبانة ود. هدارة
٢١١	د. منصور نصره	بين البعد الإنساني والصدق الفني نظرات في المنهج النقدي للأستاذ د. محمد مصطفى هدارة

- ٢٣٥ د. ناهد أحمد الشعراوي نظرة في تاريخ الأدب الجاهلي للأستاذ د. هدارة
- ٢٤١ د. ربيعي عبد الخالق الناقد شاعراً...
- ٢٨٥ محمد مصطفى هدارة قصائد الرثاء في د.
- ٢٨٧ د. عدنان علي رضا النحوي كلمة وفاء...
- ٢٩١ سعيد عبد العزيز القماش بكائية...
- ٢٩٧ محمد فؤاد محمد علي صوت من النغم المترامي
- ٢٩٩ أحمد محمود مبارك ثم هانئاً واجنٍ خير الجزاء
- ٣٠٥ سيرة حياة الدكتور محمد مصطفى هدارة ونتاجه العلمي
- ٣١٥ الفهرس

## منشورات

### رابطة الأدب الإسلامي العالمية

- ١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة
- ٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.
- ٣- ديوان (رياحين الجنة)؛ عمر بهاء الدين الأميري.
- ٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، إعداد د. عبد الباسط بدر.
- ٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.
- ٦- ديوان البوسنة والمهرسك - مختارات من شعراء الرابطة.
- ٧- لن أموت سدى (رواية)، جهاد الرجحي (فازت بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية).
- ٨- ديوان (يا إلهي)، محمد التهامي.
- ٩- يوم الكرة الأرضية (مجموعة قصصية)، د. عودة الله القيسي.
- ١٠- ديوان (مدائن الفجر)، د. صابر عبد الدلم.
- ١١- العائدة (رواية)، سلام أحمد إدريسو (فازت بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية).
- ١٢- (محكمة الأبرياء) مسرحية شعرية، د. غازي مختار طليمات.
- ١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.
- ١٤- ديوان حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري، د. جابر قميحة.
- ١٥- ديوان في ظلال الرضا، أحمد محمود مبارك.
- ١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.
- ١٧- أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات.
- ١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليلة بنت سويد الحمد.

- ١٩- د. محمد مصطفى هدارة: بحوث ودراسات.
- ٢٠- معسكر الأرامل - للرواية الأفغانية مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.
- ٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم، دراسة أدبية، محمد رشدي عبيد.
- ٢٢- قصص قصيرة من الأدب الإسلامي (الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى).

\* \* \*

### سلسلة أدب الأطفال:

- ١- غرد يا شبل الإسلام (شعر)، محمود مفلح.
- ٢- قصص من التاريخ الإسلامي، أبو الحسن الندوي.
- ٣- تغريد البلابل (شعر)، يحيى الحاج يحيى.
- ٤- مذكرات فيل مغرور (حكايات شعرية)، د. حسين علي محمد.
- ٥- أشجار الشارع أخواتي (شعر).. أحمد فضل شبلول.
- ٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب (قصص) فوزي خضر.
- ٧- باقة ياسمين (قصص)، للكاتب التركي علي نار، ترجمة شمس الدين درمش.

\* \* \*

### تطلب من مكاتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

- ١- مكتب المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ - ص.ب: ٥٥٤٤٦ هاتف:
- ٤٦٤٩٧٠٦ - فاكس: ٤٦٣٤٣٨٨
- ٢- مكتب الأردن: عمان ١١١٩٢ - ص.ب ٩٢٣٠٨٤ - هاتف/فاكس: ٥٦٢٠٩٣٥
- ٣- مكتب مصر: ص. ب ٩٦ - رمسيس القاهرة - هاتف: ٥٧٥٠٨٣٠ - ٣٨٢١٦٢٤
- ٤- مكتب المغرب: ص. ب ٢٣٨ وجدة ٦٠٠٠١ - هاتف/فاكس: ٥٠١٩٢٥

\* \* \*